القرآن سورة واحدة

جزءِ عمَّ نموذجاً

بقلم

عمرو الشاعر

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [سورة
يونس ,٣٧]

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨﴾ [سورة
الإسراء ,٨٨]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ٣٢﴾ [سورة الفرقان ,٣٢]

إهداء

إلى نفس أستاذي الكبير، إلى من له علي الفضل الكثير

إلى من علمنا الكثير ونفع من قبلنا وبعدنا

إلى من لم ينقطع يوما عن خدمة العلم وخدمة الناس

إلى نفس الأستاذ الدكتور:

محمد أحمد منصور

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وجزاه الجزاء الحسن على ما قدم لنا وللدراسات الإسلامية باللغة الألمانية في جامعة الأزهر خير الجزاء.

كلمة الغلاف الخلفي

إن قراءة أي نص تحتم علينا أن نفهمه كنص ونقرأه كنص، ويفترض أن يكون الحال كذلك عند قراءة أي كتاب، وهذا ما وجدناه فعلا إلا مع كتاب الله تعالى! فوجدنا أن غالب المفسرين يتعاملون مع كتاب الله تعالى، لا كأنه كتاب وإنما كجمل منفردات، وعلى أفضل تقدير كمقالات متناثرات غير مرتبطات. وكان لزاما أن يؤدي هذا التناول العجيب إلى وقوع الاختلاف الكبير بينهم، وهكذا ظهرت أقوال ما أنزل الله بها من سلطان، واعتُمدت كتفسير لكتاب الله تعالى!

وهذا الكتاب إذ يناقش قضية كون كتاب الله كتاب! فإنه يعرض للسبب الرئيس الذي أدى إلى تناول سور الكتاب كآيات منفصلات وليس كسور متصلات، مبينا بطلانه، مظهرا حتمية اتصال الآيات داخل السورة، ووحدة موضوعها، وحدة واحدة حقيقة، وليس اجتماع موضوعات متناسقة، واتصال السور ببعضها مكونة سورة واحدة!

ويقدم الكتاب كدليل على ذلك تناولا جديدا لجزء عم كاملا، يعمل على إبراز الوحدة الموضوعية لسوره، واتصال السور بعضها ببعض، كما يقوم باستخراج معان جديدة لمفردات وتصورات بديعة لمشاهد أُشكلت على السادة المفسرين في سور هذا الجزء، استنادا إلى الوحدة الموضوعية للسورة، مبرهنا بذلك على كتابية الكتاب!

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، رب الأولين والآخرين، رب الخلق أجمعين، نحمده حمدا كثيرا، يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، راجين به أن ندخل سلك الحامدين الذاكرين الشاكرين الراضين الخاضعين المحبين المقتربين.

سبحانه فاضت أنوار جلاله على قلوب عباده فأنارت لهم دنياهم وبصيرتهم، فرأوا جلال الله وبهائه في كل خلقه وفعله، فأحبوا خلق الله، فأحبهم خلقه، فتقلبوا في نعماء الله، ناظرين النعيم العظيم يوم لقياه واليقين برضاه.

سبحانه تفرد وحده بالجمال والكمال، فليس له مثيل أو شبيه، ولم يكن له كفوا أحد. وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، فيفتح به على من يشاء متى يشاء، سبحانه له الأمر كله، وإليه المرجع والمآب، غاية كل قاصد وهداية كل طالب، وعون كل راغب.

وأصلي وأسلم على صفوة خلقه، أنبيائه ورسله الأبرار الأخيار، من اصطفاهم ربهم وزكاهم، وأمر بالاقتداء بهداهم، وأخص بصلاتي وسلامي حباي الخليل إبراهيم والخاتم محمد، من ظهر على يديهما نور الله أيما ظهور، وجاهدا في الله حق الجهاد، حتى أتاهما اليقين. ونتبعه بمغفرة ورضوان على من اهتدى بهدي الأبرار الأخيار واقتدى إلى يوم الدين، ثم أما بعد: فإن نِعم الله على الإنسان وفيرة كثيرة، وإن عددها لا يُحصى، نِعم يحتار أصحاب الألباب فيها وفي إدراكها. إلا أنني أرى نعم الله صنفين اثنين.

1- الكون وما فيه من كواكب ونجوم وأشجار وأنهار وأراض وأنعام ونبات ودواب وما أنعم به على الإنسان من ملكات .

2- القرآن.

فالقرآن كما أؤمن هو الكتاب الثاني والنعمة الثانية، التي تُعرف النعمة الأولى والكتاب الأول (الكون) وتوجه الإنسان فيها، وتملكه إياه على مراد خالقه، بل وزيادة على ذلك تتكفل له بجنات نعيم مقيم في دار آخرة، إضافة إلى النعيم الذي سيتقلب فيه في دار الدنيا، إذا اتبع كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم لا؟! أليس تنزيلا من حكيم حميد؟!

ولأن القرآن كتاب ثقيل أمرنا الرب الخبير بتدبره، فكلما قرأناه وتدبرناه سنستخرج منه المزيد والمزيد، وإذا أدمنا قراءته سنحبه ونتعلق به ونعشقه، حتى يصبح شعارنا: هل من مزيد!

والقرآن كأي كتاب يحتاج إلى منهجية في قراءته، فلا ينتقي الإنسان منه قطعا متناثرة، يحكم بها على الكتاب، وإنما عليه أن يقرأه قراءة منتظمة، أو يبحث الأمر في مظانه بحثا شافيا كافيا.

ولأن القرآن كتاب الخلّاق العليم فقد تكفل بتبيّن منهجية قراءته والتعامل معه، وليست هذه المسألة هي لب هذا الكتاب، فلقد كتب فيها الكثيرون قبلي، وكتبت أنا نفسي فيها[1]، ولا يزال الأحباب فيها يكتبون، وستستمر الكتابة فيها إلى يوم الدين، وسيظل المعيار دوما هو اقتراب منهج القراءة مما قال به القرآن. أما لب هذا الكتاب فمسألة أخرى ما جال بخاطري في يوم من الأيام أن أكتب فيها، وهي كون القرآن كتابا!

قد يعجب القارئ الكريم، فلم يشكك أحد في كون القرآن كتابا، فلماذا الكتابة في هذه المسألة؟ وتأتي الإجابة المفجعة، في أن المسألة لم تأت من غير المسلمين أو حتى من عوامهم وإنما أتت من علماء مسلمين! فهم وإن كانوا يقولون أن القرآن – بشكله الحالي– كتاب، إلا أنهم يتعاملون معه على غير هذا الأساس، فهم يرون أن القرآن أنزل مفرقا، تارة على شكل سور وتارة آيات متفرقات جُمعت لاحقا وأدرجت

[1] يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على كتابنا: لماذا فسروا القرآن. على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

تحت سورة واحدة، وهكذا استمر جمع الآيات في سور، إلى أن مات الرسول الكريم بعد أن أخبر صحابته بترتيب سوره، أو لم يخبرهم وتولى الصحابة ترتيب المصحف بأنفسهم! وتبعا لهذا القول فإن القرآن يفقد معنى الكتاب، لأنه أصبح عبارة عن مجموعة "مقالات" رُصت بترتيب معين –لا يوثق في راصها– وقُدمت للبشرية.

ولهذا لم يقرأ عامة المفسرين القرآن على أنه كتاب ذو موضوعات متصلة، وإنما قرأوا السور على أنها مجموعة آيات متراصة، وأخذوا في تفسيرها! فإذا التفت أحدهم إلى السياق الذي وردت فيه الآية فبها ونعمت وإن لم يراعها فلا حرج، فلم يرهق نفسه، ألم تنزل السور مفرقة، وكانت تنزل آيات في مكة وأخرى في المدينة، وآيات تنزل بعد عشر سنين، وآيات تنزل في مواضيع مختلفة ثم جُمعت في سورة واحدة؟! فكيف أربطها ببعضها، وما الذي سأستفيده أو سيستفيده القارئ، إذا رأى العلاقة بين الآيات؟!

وهكذا فسّر المفسرون القرآن كآيات منفصلات، فتخبطوا تخبطا شديدا وذكروا في كتبهم أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان، وأضاعوا دلائل بينات على كون القرآن من عند الله عزوجل، وذلك لأنهم اعتمدوا منهج التجزئة في التعامل مع كتاب الله تعالى، واكتفائهم بالقول أن القرآن أفصح كلام .. مقتضب متقطع!!

ويعجب المرء من هذا القول! هل هناك كلام فصيح غير متصل، وإنما جمل متناثرات تُرص رصا، في موضوعات لا علاقة لها ببعضها؟! لذا فإننا سنقوم في هذا الكتاب بتناول هذا القضية، مظهرين أن كتاب الله تعالى كتاب، يشتمل عناصر الكتاب، كتاب أفضل من أي كتاب، كتاب ذو بنيان قويم، مترابط الأجزاء متناسقها، يصدق بعضه بعضا، كتابٌ آيته أنه كتاب، وليست آيته في السورة الواحدة، لأن السورة لا تكون سورة إلا بغيرها!

ولأن المسألة تحتاج إلى مناقشة الأصول، فإننا سنفند المقولة الرئيسة، التي قادتهم إلى تجزئة القرآن، وهي القول بنزول آيات منفصلات، جُمعت في سورة واحدة، مثبتين أن القرآن ما أنزل إلا على شكل سور كاملة، فلم تنزل سورة منقسمة أبدا!

ثم ندلل بعد ذلك على أن ترتيب سور القرآن هو من عند الله الواحد العلام، فليس للبشر أي يد فيه.

ثم نعرض بعد ذلك –في عجالة– إلى طريقة التناول القويمة للقرآن وهي ما يسمى ب "التفسير الموضوعي"، مبينين أنه كان يفترض أن تكون الأساس في التعامل مع سور كتاب الله تعالى، موسعين نطاقها وجاعلينها أصلا جديدا في تحديد مدلولات الكتاب العزيز، بحيث تُعين السورة المتدبر على فهم مفرداتها.

ثم نقدم بعد ذلك للقارئ الكريم نموذجا كبيرا لما نقول به، وهو تناولنا لجزء عم كاملا، تناولا فريدا لم نُسبق إليه –ولله الحمد والمنة–، جهدا كبيرا استغرق منا قرابة العام حتى أخرجناه بفضل الله وعونه.

وسيرى القارئ الكريم في هذا التناول التناسب العظيم بين سور القرآن، وتصديق بعضها بعضا، كما سيرى أقوالا جديدة في فهم مفردات ومشاهد بعض سور هذا الجزء، استُخرجت بفضل الله وعونه استنادا إلى النظر في موضوع السورة، والعمل على تحديد المتنازع فيه، بحيث أظهرت السورة أو السور في ثوب جديد واحد واضح الملامح، عجيب البناء، معلنة أن طريقة التناول هذه ما أتى بها بشر قط قبل محمد – ولن يأتي–، تناولا وعرضا يستحيل أن يكون أتى بهما محمد من البدو أو ممن سبقه من بدو أهل الكتاب!

وختاما نقول: هذا كتاب ثقيل، لأنه يتحدث عن كتاب الله عزوجل، أثقل الكتب! سيجد القارئ الكريم فيه أكثر مما يتوقع من كتاب بمثل هذا الحجم، وأنا أدعوه أن يقرأه أكثر من مرة، قبل أن يتقبل الجديد فيه أو يرفضه. وفي الحالتين لا ينسى الدعاء لنا بالهداية والتوفيق.

جعلنا الله من خدام كتابه الكريم، وجعله الله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وعمل قويم.

العبد الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

الباب الأول

سورة وسور

الفصل الأول: حتمية السُّوَرِيَة

كيف أُنزل القرآن؟

من المسلّم به بين عوام المسلمين وعلمائهم أن القرآن أنزل مفرقا، ولم ينزل جملة واحدة، وذلك لصريح قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الإسراء, ١٠٦] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الفرقان, ٣٢] فالكافرون كان يريدون أن ينزل القرآن جملة واحدة حتى يعرفوا ما فيه وماذا سيقدم لهم، ولكن الله عزوجل بيّن أن طلبهم هذا مخالف للحكمة من طريقته التي ارتضاها في تنزيل القرآن.

فإذا تجاوزنا هذه المسَلّمة انتقلنا إلى النقطة التالية، وهي السؤال: إذا كان القرآن أُنزل مفرقا، فكيف كان هذا الإنزال؟ المشتهر أنه كان هناك طريقتان في نزول القرآن، فإما أن تُنزل السورة كاملة، أو تُنزل آيات بحسب الحاجة، فلربما أُنزلت خمس أو عشر آيات أو أكثر، ولربما أُنزلت آية أو جزء من آية، وفي هذا يقول الإمام السيوطي في الإتقان: "(...) النوع الثالث عشر: ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً. الأول غالب القرآن. ومن أمثلته في السور القصار: اقرأ، أول ما نزل منها إلى قوله (ما لم يعلم) والضحى أول ما نزل منها إلى قوله (فترضى)، كما في حديث الطبراني. ومن أمثلة الثاني: سورة الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت، ولم يكن والنصر والمعوذتان نزلتا معاً، ومنه في السور الطوال المرسلات. ففي المستدرك عن ابن مسعود قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار فنزلت عليه المرسلات عرفاً، فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها فلا أدري بأيها ختم: (فبأي حديث بعده يؤمنون) أو (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون)، ومنه سورة الصف لحديثها السابق في النوع الأول. ومنه سورة الأنعام، فقد أخرج أبو

عبيد والطبراني عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك.[2]" اهـ

وعلى قولهم، لم تنزل الآيات داخل السور المفرقة مرتبة، وإنما كانت تنزل هكذا حسب الحالة، فلربما أُنزلت آيات في آخر السورة أو وسطها قبل آيات في أولها، ثم ينزل الأول بعد ذلك، ولربما أُنزلت مرتبة، وهكذا إلى أن رُتب القرآن الترتيب الذي نحن عليه الآن في العرضة الأخيرة على الرسول الكريم، والذي استقر عليه المسلمون في آخر حياة الرسول وبعد وفاته.

وبعد أن عرضنا ما قالت به بعض الروايات، والتي صدّق عليها العلماء، ننظر في القرآن، لننظر؛ هل ما قال به العلماء الأفاضل هو ما قال به القرآن.

الناظر في القرآن يجد أنه يقولها صراحة، أنه أُنزل على شكل سور ولم ينزل على شكل آيات متفرقات! فكانت السور الطوال مثل البقرة وآل عمران والنساء تنزل جملة واحدة، كما كانت السور القصار مثل الإخلاص والكوثر والنصر تنزل جملة واحدة. وإذا كان القرآن تبيانا لكل شيء فمن البدهي والمنطقي أن يبين الهيئة التي أنزل بها، فإذا كان قد بيّن طريقة إنزاله المخالفة للطريقة التي أوتيها موسى، فلم يؤت الرسول الكريم ألواحا وإنما أنزل القرآن على قلبه، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّـجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [سورة البقرة, ٩٧]

وإذا كان قد بيّن لسانه (لغته) فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [سورة الشعراء, ١٩٣-١٩٥]

وإذا كان قد بيّن أنه نزل مفرقا، أفلا يوضح طريقة الفرق هذه؟!

[2] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر: لبنان، الطبعة الأولى، تحقيق: سعيد المندوب، ص. 109.

ونبدأ في تناول الآيات[3] التي تصرح أن القرآن أُنزل على شكل سور وليس على شكل آيات: ونبدأ بالآيات التي يخبر الله تعالى بعدم قدرة البشر على الإتيان بمثل القرآن، والتي قالوا أن الله تعالى تحدى فيها البشر، وبغض النظر إذا كان الأمر تحديا أو إخبارا فإن كليهما مؤدٍ إلى ما نقول به: يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة يونس ,٣٨]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة هود ,١٣]

هذه الآيات تقول صراحة أن الكفار لن يستطيعوا أن يأتوا بعشر سور من القرآن أو حتى سورة واحدة، وعلى قولهم فهي تتحداهم أن يأتوا بسورة أو عشرة، فلماذا يطالبهم الله عزوجل أن يفعلوا ما لم يفعله هو في كثير من الأحيان؟!

فإذا كان يُنزل على الرسول الكريم السور القصار فقط جملة واحدة، وأحيانا يُفرقها، وأما السور الكبار فينزلها على مرات متتاليات، بدون أي ترتيب للآيات، فينزل آخر السورة قبل وسطها، وقبل أولها؟!

التحدي لا يكون إلا إذا كانت السور، كبيرة كانت أو صغيرة، تُنزل جملة واحدة وعلى الآخرين أن يأتوا بمثلها.

[3] إحقاقا للحق وإسنادا للأقوال إلى أصحابها، فإني لم أصل إلى هذا الرأي بنفسي، وإنما قرأته أول مرة للأستاذ إسماعيل حسين الكبسي؛ أستاذ البلاغة والتفسير في جامع صنعاء الكبير باليمن، وتوقفت فترة في قبوله أو رده، ثم وجدت بعد ذلك آخرين يقولون به، فلما تفكرت فيه وجدت أنه الحق فنزلت عليه.

ونقدم لك عزيزي القارئ تصورا يقرب لك المسألة: تصور أني شاعر كبير وأدعي أني آتي بقصائد لم يأت به الأوائل ولن يستطيعها الأواخر، فقال لي الناس: قدّم لنا ما عندك لنحكم. فقدمت لهم بعض أبيات من قصيدة، ثم بعدها بفترة قدمت لهم أبيات أخرى، وقلت لهم: هذه الأبيات لا أعرف موضعها من القصيدة، وسأخبركم فيما بعد، المهم أنها من القصيدة.

وهكذا كل فترة، أقدم لهم بعض أبيات تضاف إلى القصيدة، وأحيانا كنت أحذف بعض الأبيات بعد أن أقدمها لهم، وأحيانا أقدم لهم أبياتا، فيعترض معترض أو يسأل سائل، فأضيف بعض الكلمات إلى القصيدة، وبعد فترة أقول لهم: الآن انتهت القصيدة، وهذا هو الشكل النهائي لها، وأتحداكم أن تأتوا بمثلها؟!

بالله عليك هل يُقبل مثل هذا الشكل من التحدي في أي مجال أدبي أو فكري؟! إن تفرد أي نص أدبي أو فكري، شعرا كان أو نثرا، يكمن في مجموعه، فالعناصر المعروضة في الموضوع الواحد يكمل ويصدق بعضها بعضا، إضافة إلى المحسنات البديعية المعتمدة على تراص الكلمات بجوار بعضها بعضا، والتي تقدم إيقاعا معينا أو تقابلا بين مفردات وأخرى، أما أن يكون الموضوع المعروض عبارة عن جُمل مبتسرة، يُفترض فيها الإكمال فيما بعد فليس فيها أي كمال أو تفرد!

إن قولهم هذا كمثل من قال أني رسمت صورة لا مثيل لها، ثم أخذ يعطينا قطعا صغيرة منها، إذا ركبناها مثل لعبة "البازل" فسنحصل على صورة رائعة! وقد تظل هناك بعض القطع، يقدمها لنا بعد سنوات طوال لنكمل الصورة! وعلى الرغم من ذلك يصر أن هذه الصورة، على الرغم من نقصها، تحفة فنية لا مثيل لها! ولن يأتي أحد بمثلها!!

ونلاحظ أن الله تعالى لم يخبر (لم يتحد) بأننا لا نستطيع أن نأتي بمثل بضع آيات، وإنما كان التحدي (الإخبار) بعدم القدرة على الإتيان بسورة، وإذا كانت الآيات المنزلة في كل مرة كافية شافية في قضية ما، فإن إضافة غيرها يعد حشوا! أو نقضا للتناسق بين الكلام وبعضه.

وإذا كان الله تعالى يعتمد هذا الأسلوب في إنزال النصوص، فكان من الممكن أن يعتمده أيضا كفار قريش، فيردون على محمد بجمل مرتبطة، ويقولون: هذا مثل ما أنزل عليك وسنكمله نحن أيضا فيما بعد، عندما تكمل أنت سورك!!

ومن الممكن أن يفعله أي مدعٍ للنبوة في أي زمن، فيقدم بعض نصوص تتناول أي موضوعات، فإذا قيل له: وماذا في هذه النصوص؟ ليست على القدر من الفصاحة والبيان، كما أن موضوعها ليس على المستوى. أجاب: لقد فعل الله سابقا مثل هذا! —تعالى الله عن هذا— فأنزل جملا متفرقة على محمد، ثم جمعها فيما بعد فصارت معجزة أدبية! فلم تقبلونها مع محمد وترفضونها معي؟!

إن القول بتفريق سور القرآن كان دقا لأكبر مسمار في نعش تفرد القرآن، وقضاء على تحديه بأن يأتي المخالف بسورة من مثله، فسيأتي المخالف ببعض جمل ويقول: أتيت بسورة من مثله، وباقيها سأكمله بعد سنة أو عشر سنين، كما حدث مع مزملكم؟! فكيف نرد على هذا؟!

أما مع القول أن القرآن أنزل على شكل سور كاملة متصلة، فلا مجال للمخالف للاعتراض أو المراوغة، وعليه إما الإتيان بسورة أو السكوت! وسيسكت!

الأدلة على نزوله سورا فقط

حتى لا يقول قائل: إن ما تقول به، مجرد استنتاجات من آيات، لا تقوى على مكافئة الروايات، —على الرغم من أن كليهما ظني، إلا أن الروايات حتما أقوى من الاستنتاجات عند الكثرة—، نقدم الأدلة من القرآن على أنه كان ينزل على شكل سور وليس آيات متفرقات:

الناظر في كتاب الله تعالى يجد أنه يتحدث دوما عن نزول سور، ولم يتحدث أبدا عن إنزال آيات، فإذا نظرنا في سورة التوبة وجدنا هذه النقطة جد جلية، فنجدها تتكرر أربع مرات، فيقول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة التوبة, ٦٤]

فالله تعالى يحكي حذر المنافقين من إنزال سورة تنبأ بما في قلوبهم، فالمنافقون في زمن الرسول يعرفون أن القرآن ينزل على شكل سور، لذلك كانوا في حذر وترقب لنزول سورة تفضحهم، ولو كان هناك نزول لآيات متفرقات لكان حذرهم أولى وأكبر من هذه الآيات، لأنه من الممكن أن يُفضحوا في خمس أو عشر آيات، ولكن لما كان القرآن يُنزل سورا سورا، كان الحذر من نزول سورة فاضحة كاشفة لما في الصدور.

فإذا انتقلنا إلى آية أخرى في سورة التوبة، نلتقي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة التوبة, ٨٦]

فهنا كذلك يتحدث الله تعالى عن إنزال سورة، وعن رد فعل المنافقين عند إنزال هذه السورة، ولو كان القرآن ينزل على شكل آيات لكان من الأولى الحديث عن رد فعل هؤلاء مع الآيات.

وننتقل إلى آية أخرى، فنجد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة التوبة, ١٢٤]

فالحديث هنا أيضا عن إنزال سورة، فالسورة كانت تنزل فيجمع الرسول الكريم الناس فيقرأها عليهم، فيتساءل المنافقون: ماذا في هذا؟ هل أثرت هذه السورة في أحدكم

شيئا؟ فأما المؤمنون فيزدادون إيمانا وأما الذين في قلوبهم مرض فتزيدهم السورة رجسا إلى رجسهم. فالحديث هنا أيضا عن سور وليس عن آيات.

وبعد هذه الآية بآيتين فقط نجد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [سورة التوبة, ١٢٧]

فالله تعالى يحكي حال هؤلاء عند نزول القرآن، فبعضهم في مرة يتساءل عن تأثير السورة في الإيمان، وبعضهم في مرة أخرى يفر وينصرف، ولو كان هناك إنزال لآيات لكانت هذه الآية هي المناسبة للحديث عن هذا الموقف، فالآية السابقة تحدثت عن ردة فعلهم تجاه إنزال السور، فمن الأولى أن تتحدث هذه عن ردة فعلهم المماثلة عند إنزال الآيات. ولكن لما كان القرآن ينزل على شكل سور فقط، كان الحديث في هذه الآية كذلك عن شكل آخر لردة الفعل عند نزول السور.

وآيتا التوبة الأخيرة كافيتان لمن يبحث عن الحق، ولكن نكمل ذكر باقي الآيات حول هذه المسألة، حتى لا يقال أنها ذُكرت في سورة واحدة من سور القرآن فقط، فإذا نظرنا في أول سورة النور وجدنا قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [سورة النّور, ١]

فالله تعالى يخبر أن هذه السورة أنزلت وفرضت، والعجيب أن هناك بعض الروايات التي تقول أنها لم تنزل على شكل سورة، وإنما أنزلت آيات متفرقات، فنجد في البخاري في رواية حادثة الإفك أن عشر آيات أنزلت جملة واحدة بعد الحادثة، من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ ... ١١﴾ [سورة النّور, ١١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ [سورة النور, ٢٠]

ولست أدري أنصدق الآية، التي تقول أنها أنزلت سورة، أم الرواية التي تقول أنها فرقت[4]؟!

فإذا أتينا إلى آخر موضع متعلق بالإنزال نجد قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ [سورة محمّد, ٢٠]

فالمؤمنون يطلبون ويتمنون نزول سورة، فلم لا يتمنون هم أيضا إنزال آيات؟! إن هذا أسهل وأسرع؟! ولكن لأنهم يرون القرآن ينزل على شكل سور تمنوا نزول سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة حدث كذا وكذا ...

فكما رأينا فإن الآيات كلها تتحدث عن إنزال سور ورد فعل أو طلب أو حذر من إنزال سور، ولم نجد طلبا أو خوفا من آيات، فكل هذا يؤكد أن القرآن كان ينزل على شكل سور.

وحتى لا يبقى عند القارئ أي شك بهذه المسألة نناقش الآيات التي تتعلق بإنزال آيات، حتى نبين له أنها لا علاقة لها بهذه المسألة.

إذا نظرنا في الآيات التي تتحدث عن طلب إنزال آيات، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [سورة الأنعام, ٣٧] ومثل قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [سورة يونس, ٢٠] وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [سورة العنكبوت, ٥٠]

[4] لن يعدم المعارضون حجة لتصحيح الرواية، فسيقولون: ربما أنزلت الآيات العشر مجتمعة، ثم أنزلت باقي السورة بعد ذلك ثم أنزل أول السورة، وبذلك تكون السورة قد أنزلت! وربما أنزلت السورة مرة أخرى كاملة! والآية تبطل احتمالاتهم و*ربماتهم*، فهي تنص على أنها لم تنزل إلا كسورة!

نجد أن الحديث لا يدور عن آية من آيات القرآن، وإنما حول آية حسية –ما يُعرف باطلا ب المعجزة–، فيرد الله تعالى على طلب المشركين في كل آية برد مختلف! وهذه الآيات مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [سورة الأنعام, ٨]، فهم يطلبون نزول الملك، وكذلك يريدون آية حسية، وبداهة هم لا يريدون آية من القرآن، فلقد قدم لهم الرسول الكريم سورا كاملة! إذا فطلب الآيات هو طلب لآيات حسية وليس لآيات قرآنية.

فإذا انتقلنا إلى الآيات التي تتحدث عن نزول آيات، نجد أنها تتحدث عنها بمعنى أنها دلائل بينات، علامات على الصدق، لا بمعنى أنها آيات في مقابل السور، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [سورة البقرة, ٩٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج, ١٦]

فالآيات البينات التي أنزلت إلى الرسول الكريم هي مجموع القرآن أو السور التي أنزلت عليه –والتي أخبر أنه لن يؤتى بمثلها، ولم يقل المولى هذا مع الآيات–، وليس الآيات المنفصلة عن بعضها.

إذا وكما رأينا، فالقرآن الكريم يتحدث عن إنزال سور ولم يتحدث أبدأ عن إنزال آيات، فعلى كل مؤمن متبع للكتاب أن يصدق بما قاله، لا أن يتبع الربمات التي لا تغني عن الحق شيئا، فإذا رفض هذا القول فليسأل نفسه: هل معه دليل غير "ربما"؟!

وبهذا القول نكون قد قدمنا قول القرآن في المسألة، قولا منطقيا متفقا مع العقل والآيات، وأجبنا على السؤال المستعصي: كم مرة نزل جبريل على الرسول الكريم بالقرآن؟ وهو أنه نزل بعدد سور القرآن. وكذلك نقضي على الإشكاليات الكبرى، التي نشأت بسبب القول بتجزئة سور القرآن نزولا، والتي سنقدم للقارئ الكريم طرفا منها، حتى يعرف كم تخبط السابقون بسبب القول برأيهم، الذي لا أصل له في القرآن.

وأنا أعلم أنه غالبا ما سيرفض بعض القراء هذا الرأي، لأنهم نشأوا على القول الأخر، ولورود الكثير من الروايات التي تقول بنزول آيات متفرقات تبعا للمناسبات، والقول بهذا القول موجب لردها، ولكن عندما يقرأون الإشكاليات التي سببها قولهم هذا، والتي سنذكرها بعد سطور قلائل، والتي غفلوا عنها ولم ينبههم إليها أحد، سيعيدون التفكر مرة أخرى في هذه المسألة، وبإذن الله سيميلون إلى رأينا في المسألة بعد فترة من الزمن، طالت أو قصرت.

إشكاليات القول بالنزول آيات متفرقات

درسنا نحن طلاب العلم الشرعي، القول بنزول القرآن مفرقا على شكل سور وآيات، ولم نر في ذلك حرجا، فلما توقفت لأتفكر في هذه المسألة وجدت أنها جد خطيرة وسببت الكثير من الإشكاليات والمطاعن، التي غفلنا أو تغافلنا عنها، ونبدأ في عرضها على القارئ الكريم، حتى لا يتقول على الله ولا ينقصه قدره، وسيعرف بعد هذا العرض كم هو تجنٍ عظيم القول بغير ما نقول به:

أول وأكبر إشكالية تنبع من قبول نزول القرآن على شكل آيات منفصلة، بخلاف إعطاء المعاندين أكبر فرصة لرفض الإيمان بالقرآن، هي وقوع التشكيك في مصدر الوحي! والإدعاء أن القرآن الكريم من عند محمد بن عبدالله!

فإذا كان القرآن الكريم منزل من لدن حكيم عليم، وهو الواقع فعلا، أفلم يكن علام الغيوب عارفا بالوقائع التي يمكن حدوثها في المستقبل فيدرجها في كتابه؟ أم أنه ينتظر حتى تقع، فيُعدل من أجلها كلمته الخاتمة؟! إننا نشكو من القصور التشريعي الذي تعاني وتأنُّ منه الأحكام الوضعية، لأنها من وضع وتأليف بشر، ليست لديهم الرؤية الكاملة ولا التوقعات المستقبلية للحوادث الممكنة، لذا فإن هذه القوانين محكوم عليها بالنقص والعجز وبالتعديل المستقبلي!

فهل يكون الأمر كذلك مع الله سبحانه وتعالى؟! إننا نباهي دوما بأن القرآن كتاب شامل متجاوز لحدود الزمان والمكان، صالح لكل إنسان مهما ومتى كان، فكيف يكون ذلك إذا كان الله –تعالى سبحانه عن ذلك– لم ينتبه أو يراعي بعض المسائل البسيطة في زمن الرسول، فما بال ما بعد ذلك بآلاف السنين والأميال؟!!

فإذا أخذنا رواية واردة في مسلم –على سبيل المثال– تقول: "عن أبي إسحاق أنه سمع البراء يقول في هذه الآية: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله" فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فجاء بكتف يكتبها، فشكا إليه بن أم مكتوم ضرارته فنزلت: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر"

وهنا نتساءل: لماذا لم ينزلها الله عزوجل في المرة الأولى، أكان هذا عن نقص علم أم عن سهو عن أصحاب الضرر، أم غفلة منه؟ تعالى سبحانه عن ذلك! إن علمه وكرمه يجعلان هذا الأمر محالا!

وإذا بررها القابلون بأي تبرير مثل القول أن هذا كان من أجل إظهار منة الله على عباده! فإن هذا لا يرفع شبهة السهو والغفلة –تعالى سبحانه عن ذلك– كما أنه يؤدي إلى التشكيك، ونسب القرآن إلى محمد نفسه! فيقول الطاعن أو غير المؤمن: إن الرب كامل وعلمه كذلك، أما هذا القرآن فكان من عند محمد، يؤلفه كما يحلو له، فإذا أُعترض عليه أصحابه أضاف أو حذف، وقال: أوحي إلي كذا وكذا، ولو كان من عند الله لما حدث هذا؟!

فإذا تركنا الطاعنين جانبا، وانتقلنا إلى الصحابة –أو المؤمنين في أي زمان–، ألا يثير هذا عندهم الشك؟ أليسوا بشرا يفكرون، ويدفعهم إيمانهم بكمال الله إلى التساؤل حول نقصان الإنزال وإكماله فيما بعد! فإذا غفل الصحابة عن هذا الأمر فلم لم ينتبه إليه المنافقون والمرجفون واليهود في المدينة، فيقولون أن محمدا يؤلف من عنده فيضيف ويحذف؟!

فتصور مقدار الحيرة والتخبط الذي سيكون فيه الصحابة، المكلفون بوعي القرآن في صدورهم!! فإذا أنزلت آية ناقصة!!! ووعاها (حفظها) الصحابة على هذا النحو، ثم أُضيف جزء إلى الآية!!! فمن المفترض أن يجمع الرسول الصحابة ويخبرهم أن يعدلوا حفظهم على الشكل الجديد، ولا يعترضوا أو يشكوا!!!

وإذا أُنزلت بعض آيات في آخر سورة وبعدها بفترة آيات أخر في وسط سورة أخرى، وبعدها بفترة آيات في أول السورة الأولى، وبعدها بفترة آيات في وسط سورة جديدة! فيفترض في كل مرة أن يجمع الرسول الصحابة ويخبرهم بهذه الآيات ويأمرهم بأن يحفظوها في جانب حتى تنزل باقي السورة، وهكذا كل مرة حتى تنزل السورة كاملة فيتلوها عليهم بالترتيب الجديد، ويأمرهم أن يحفظوها على هذا الشكل في أدمغتهم!!!

لا يجد الأخوة حرجا من هذا ويقبلون أمثال الرواية، التي رواها أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها (!!!) فقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لها أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال[5]" اهـ

---

[5] هذه الرواية عند هؤلاء كلهم مدارها على عوف بن أبي جميلة ويزيد الفارسي! وهناك من ضعفها من العلماء لجهالة يزيد الفارسي! وقال الشيخ أحمد شاكر في تخريجه وتعليقه عليه في المسند رقم **[399]**: في إسناده نظرٌكثيرٌ، بل هو عندي ضعيفٌ جداً، بل هو حديثٌ لا أصل له يدور إسناده في كل رواياته على (يزيد الفارسي) الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي، وهو ثقة. ثم قال الشيخ أحمد شاكر: فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذاالحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبّه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره، ويذكره البخاري في الضعفاء فلا يقبل منه مثل

فيقبلون أن ينزل الشيء من القرآن على الرسول، فيؤمر بأن يوضع في المكان الفلاني من السورة الفلانية!

وتصور أنك مكلف بحفظ قصائد شعرية أو خطب نثرية وتُبلغ إليك بدون أي نظام، فتارة من آخرها وتارة من أولها وتارة من الوسط وتارة مرتبة، وكله بجوار بعضه، وبعد سنين طوال تكمل القصائد والخطب وتؤمر بحفظها على الترتيب الجديد!!

فإذا أضفنا إليه القول بالنسخ –كما يفهمون– فكم ستكون الأسباب الداعية للتخبط والشك والحيرة! وغير المنطقي ألا ينتبه المعاندون إلى كل هذا ويطعنوا به أو يعلقوا عليه!

وكنا قد كتبنا قصة افتراضية عند حديثنا عن النسخ في كتابنا "لماذا فسروا القرآن" بيّنا فيها عظيم التخبط والحيرة التي كان سيقع فيه الصحابة لو كان هناك نسخا في القرآن، ونثبتها هنا من باب التذكير: "عمر بن الخطاب يقول لصاحبه: أنزل اليوم آيات جدد وهي كذا وكذا. بعد أسبوع أو شهر أو عام يقول له صاحبه: الآيات التي نزلت في يوم كذا وكذا رُفعت، فلم تعد قرآنا ولسنا مطالبين بها. بعد فترة صاحب عمر يقول له: أنزل اليوم آيات جدد وهي كذا وكذا. بعد فترة عمر يقول له: الآيات الفلانية رفع حكمها الآية الفلانية أو قول رسول الله كذا وكذا، فلم نعد مطالبين بالعمل بها ولكن لفظها موجود. بعد فترة عمر يقول لصاحبه: أنزل اليوم آيات جدد، وبعد فترة يقول له صاحبه: رفعت الآيات لفظا فلم تعد قرآنا وبقي حكمها فنحن مطالبون بالعمل بها وأن ننساها. وبعد فترة نرى عمرا يعمل بحكم معين، فيقول له صاحبه: لقد نُسخت هذه الآية. فيقول له عمر: لا يا أخي لقد أخطأت، فهذه الآية نسخت الآية الفلانية.

هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيكٌ في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي قراءةً وسماعاً وكتابةً في المصاحف وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك فلا علينا إذا قلنا أنه حديثٌ لا أصل له تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث.اهـ

وتبعا للمنهج الذي نقول به في تصحيح الأحاديث فالرواية ضعيفة لا محالة، لحدوث التفرد وفي طبقات عدة، كما أنها مخالفة للقرآن. ولمزيد من التفاصيل حول المنهج في التصحيح والتضعيف يرجى مراجعة الباب الأخير من كتابنا: القرآنيون: مصلحون أم هادمون. من إصدارات مكتبة النافذة. والذي عرضنا فيه تأصيل أصيل في تلقي السنة وتصحيحها.

فيقول له صاحبه: لا يا أخي أنت لم تعرف، فقد أنزلت آية نسخت الآية الناسخة، فدع العمل بها .!!!" انتهى!

فإذا أخذنا بقولهم ببدائية ومحدودية الأدوات التي كانت يُكتب بها وعليها القرآن، فإن هذا مؤد إلى إشكالية كبيرة، وهي التصحيح والمحو! فإذا كان الصحابة مثلا قد كتبوا عشرين آية في صحيفة ما، وأنزل بعد ذلك خمس آيات، يُفترض فيها أن توضع في داخل هذه الآيات العشرين، فهذا يعني أن عليهم أن يعيدوا كتابتها من جديد! وإذا أضيفت بعض الكلمات فلن يُتعب هذا كثيرا، وإنما سيؤدي فقط إلى بعض الكحت وعلامة × ووضع الكلمات الجديدة بأعلى السطر بين قوسين!

وهكذا سنجد صحفا مختلفة للقرآن، صحف قبل التعديل وأخرى بعدها! وسيؤدي هذا لا محالة إلى وقوع الاختلاف بين المسلمين، حول أي النصين أصح!!

فإذا تركنا الطعن والتشكيك يحق لنا أن نتساءل: إذا كانت هناك آيات أنزلت بدون بعض أجزاءها مثل الآية المذكورة في الحديث، أو مثل قولهم أن آية الصيام نزلت بدون قوله تعالى: "من الفجر" واقتصرت فقط على الخيط الأبيض والأسود، فهل هذه الآيات قبل هذا الجزء المدرج فيها كانت كاملة وصالحة أم أنها كانت ناقصة؟ فإذا كانت كاملة وصالحة فالمدرج فيها حشو، وإذا كانت ناقصة ف ... تعالى الله عن ذلك!

وتصور إنسانا يؤلف بيت شعر أو قطعة نثرية يقول أنها ليس لها مثيل، فيعترض عليه معترض فيضيف إليها مباشرة بعض الكلمات تعديلا فيها، فماذا تقول فيه وفي صياغته وفي تحديه؟!

كما أدى قولهم هذا إلى تقبلهم وقوع النسخ في آيات متتالية بدلا من أن يتدبروها ليستخرجوا المراد منها، فكان التوفيق الأيسر بالنسبة لهم أن يقولوا أن هذه الآيات أنزلت في كذا والأخرى أنزلت بعدها أو قبلها في أمر آخر! وإحداهما ناسخة للأخرى! و من أبرز الأمثلة على التخبط هو محاولة توفيقهم بين الآيات الواردة في شأن الصيام

في سورة البقرة، فعلى الرغم من أن الآيات ولله الحمد متتاليات إلا أنهم جعلوا بعضها ناسخ للآخر، وجعلوها نزلت مجزئة على مرات كثيرة، وكل مرة يُضاف حكم جديد!

وكل هذا بسبب قبولهم روايات من أمثال ما رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "أُحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فأما أحوال الصلاة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه: "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها" فوجهه الله إلى مكة هذا حول، قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نقسوا أو كادوا ينقسون، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت: إني لم أكن نائماً لصدقت، إني أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله مثنى حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك: قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علِّمها بلالاً فليؤذن بها، فكان بلال أول من أذن بها، قال: وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله قد طاف بي مثل الذي طاف به غير أنه سبقني، فهذان حالان، قال: وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل أن كم صلى؟ فيقول: واحدة أو اثنتين. فيصليهما ثم يدخل مع القوم في صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقني. قال: فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها قال: فثبت معه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا. فهذه ثلاثة أحوال، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين

من قبلكم لعلكم تتقون" إلى قوله: "وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين" فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن" إلى قوله: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان، وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له: صرمة كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فأصبح صائماً فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جهد جهداً شديداً فقال: ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟ قال: يا رسول الله إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر بن الخطاب قد أصاب من النساء بعدما نام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: "أحل لكم ليلة النساء الرفث إلى نسائكم" إلى قوله: "ثم أتموا الصيام إلى الليل" اهـ

فهذه الرواية تجعل التشريع تارة بيد الرسول: "إنه سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا"، فهل كانت الصلاة بالشكل الأول من عند الله أم من عند محمد؟ فإذا كانت من عند الله فكيف يعدل فيها معاذ ويتقبل الرسول؟ أما إذا كان محمد هو مؤلف شكل الصلاة فيمكن قبول أن فعل معاذ أعجبه لذلك ألزم المسلمين به! ولا تبرير غير ذلك! وهذه الجملة وحدها أكبر من كافية لرد الحديث، وعلى الرغم من ذلك قبلوه!!

وتارة تجعل علم الله قاصرا، فينزل الأحكام آية آية، ويعدل في الآية حسبما يظهر ويحدث بعد ذلك! وعلى الصحابة أن ينصاعوا في كل مرة ولا يعترض معترض على التعديلات الجديدة! ونتساءل: إذا كنا غير محظوظين ولم تحدث هذه الوقائع في زمن الرسول، وبقيت الآيات على ما هي عليه، كم سيكون الصيام عسيرا؟!!

وبسبب قولهم هذا وقعوا في إشكاليات كبيرة مثل القول بنسخ الحكم قبل العمل به!! تصور حكم يُفرض ثم يُنسخ قبل أن يُعمل به!!!

ولذا نجد الإمام الألوسي يقول في تفسيره: روح المعاني، عند تناوله لآيات الصيام في سورة البقرة: "واتفق أهل هذا القول على أن هذا الواجب قد نُسخ بصوم رمضان، واستشكل بأن فرضيته إنما ثبتت بما في هذه الآية، فإن كان قد عُمل بذلك الحكم مدة مديدة كما قيل به فكيف يكون الناسخ متصلاً وإن لم يكن عُمل به، لا يصح النسخ إذ لا نسخ قبل العمل؟ وأجيب: أما على اختيار الأول فبأن الاتصال في التلاوة لا يدل على الاتصال في النزول، وأما على اختيار الثاني فبأن الأصح جواز النسخ قبل العمل فتدبر." اهـ

فإذا تركنا هذه الإشكاليات قابلتنا إشكاليات أخرى وهي تسمية السور، فكيف كانت السور تسمى، إذا كانت تنزل مجزأة؟ ويعلق الإستاذ إسماعيل الكبسي على هذه المسألة فيقول: "فلنعلم أن السور كلها مسميات، فكل سورة لها اسم به تعرف عند نزولها بلا تريث، فالسورة الثانية من القرآن اسمها البقرة. أليست كذلك؟ بلى، لكن أين ورد اسم البقرة أو ذكرها؟ لم يرد إلا في الآيات **67** وما يليها من السورة إلى **71**. فهل يمكن أن نبني على أساسكم القائل أن السورة نزلت مقطعة؟ هل يمكن مع هذا أن تسمى السورة بهذا الاسم قبل نزول الآيات التي تذكر فيها البقرة؟ كلا. إذن فكيف سميت السورة بهذا الاسم من البداية؟!! لم تسم بهذا الاسم إلا لأنها نزلت كاملة متواصلة حتى النهاية، ولها صح أن يطلق عليها هذا الاسم وبه تسمى وإلا كان الاسم عبثاً وإبهاماً، وهذا لا يجوز على الله العليم. وكذلك تقول في سورة آل عمران، بل إن سورة المائدة لم تذكر فيها المائدة إلا في أواخرها، فكيف سميت بهذا الاسم من بدايتها؟[6]" اهـ

[6] منقول من مقال له بعنوان: هل القرآن تنزل سورا أم آيات متفرقات –الجزء الثاني– وهو موجود على موقعه الشخصي: www.alkebsi.com

وغير هذا من الإشكاليات كثير، مثل ترتيب نزول سور القرآن[7]، وغير ذلك، أثارها كلها قولهم بنزول القرآن على شكل آيات وليس سور.

ومع القول بنزوله على شكل سور ترتفع كل هذه الإشكاليات، فالله العليم القدير الحكيم المشرع كان ينزل سورا على محمد ليقرأها على الناس، ويتحداهم أن يأتوا بمثلها، وكان المؤمنون يستقبلون هذا السور من الرسول فتزيدهم إيمانا فيعونها في صدورهم، وعندما كان يجد جديد أو طارئ كانوا يتمنون نزول سور ويحذر المنافقون نزول سور.

وهكذا توالى نزول السور على الرسول الأعظم إلى أن رتبها في المصحف بالشكل الحالي، أي أن كل ما هنالك أن السور كانت تنزل على الرسول فيكتبها فيجعلها بجوار أخواتها، ثم بعد ذلك أُجريت عملية الترتيب على منوال معين، وعلى هذا الشكل كان المصحف.

وبهذا ننزه الله تعالى عن نقص العلم، وعن إنزال آيات ناقصات –بداهة: غير بينات!!– ونبرأ رسولنا الكريم من تهمة تأليف القرآن والتعديل فيه حسب الظروف!

إعلال الروايات

أنا على ثقة أن بعض القراء سيرفض هذا القول لا لشيء إلا لأنه مخالف لما تقول به كثير من الروايات، كما أنه مما لم تأت به الأوائل، على الرغم من الأدلة القرآنية والعقلية التي قدمناها عليه، والإشكاليات التي لا راد لها النابعة عن قولهم! ولن نتوقف

[7] المشتهر بين العلماء أنه ثمت ترتيب لنزول سور القرآن، وأن سورة كذا نزلت قبل كذا، فعلى أي أساس كان هذا الترتيب، إذا كانت السورة تنزل مفرقة، وربما نزل آخرها أو وسطها قبل أولها؟! هل تحسب السورة أسبق بنزول أولها أم أكثرها؟! وكيف يتذكر الصحابة التواريخ أصلا، إذا كانوا يحفظون مجموعة من النصوص المتداخلة، التي لا يعلمون في أي السور ستوضع، ثم رُتبت فيما بعد؟!!

لنناقش هذه الروايات لأنها من الكثرة بمكان، حتى أنه من المستحيل مناقشتها في مثل هذا الكتاب، ولكنا نوضح له لماذا رفضنا هذا الروايات على الرغم من كثرتها، والتي تشير إلى أن لها أصلا ما! فنقول:

كثيرٌ من الروايات التي تحدثت عن إنزال آيات من القرآن كانت تدور في فلك سبب النزول، ومن المسلم به أن القول بأسباب النزول هو اجتهاد من الصحابي! وبغض النظر عن كونه اجتهادا أو غير ذلك، فلا يعني قول الصحابي أن الآيات من كذا إلى كذا أُنزلت في كذا وكذا، أنها أنزلت بمفردها مستقلة عن باقي السورة، وإنما يعني أنه يرى أن سبب إنزالها كانت الحادثة الفلانية، وسواء نزلت مستقلة –على قولهم– أو نزلت داخل السورة فلن يتغير منطوق الصحابي بشأن المسألة.

فإذا استبعدنا روايات أسباب النزول، التي لا تصرح بنزول آيات منفصلة عن باقي السورة، وإنما تتحدث عن نزول آيات، وجدنا أننا نحّينا الجزء الأكبر من الروايات، وما بقي ليس بمثل هذه الكثرة!

فإذا تناولنا باقي الروايات وجدنا أن أكثرها ضعيف سندا ولا يخلو من مطعن، فإذا ناقشنا المتون وجدنا فيها منكرات، مثل الرواية التي ذكرناها عن معاذ بأعلى ومثل الروايات التي تتكلم عن نزول أجزاء من آيات. وبغض النظر عن المنكرات فإنها مردودة متنا لمخالفتها القرآن، والذي لم يتحدث إلا عن إنزال سور!

ونحن نرى أن سبب كثرة هذه الروايات هو –إذا أحسنا الظن برواتها واستبعدنا الميل إلى التعالم الكاذب– راجع إلى التداخل بين وحي السنة والوحي القرآني! ولا يعني ذلك أننا نقول أن الصحابة لم يكونوا يميزون بين السنة والقرآن، وإنما نقصد القول بأن الله تعالى كان كثيرا ما يوحي إلى الرسول الكريم بالأمر فيبلغه الصحابة فيعملون به، وبعد ذلك إما أن يأتي تصديقه في القرآن فيشير إليه، أو يأتي الأمر به في القرآن.

ومن ذلك الوضوء، فمن المعلوم أن المسلمين كانوا يصلون الصلوات الخمس وكانوا يتوضأون لها، ولم يأت أي ذكر للوضوء في القرآن إلا في آية واحدة في سورة

المائدة، وهي آخر ما نزل من القرآن، فأتت آية المائدة تأكيدا لحكم الوضوء وذِكرا له في الكتاب.

فبسبب هذا التداخل التشريعي وُجدت هذه الروايات، والتي خلطت الحابل بالنابل، فجعلت بعض الأحكام التي كانت قد فُرضت أول الأمر في السنة ثم أُكدت وصُدقت بالقرآن مما فُرض وأُنزل في القرآن[8]، ولكي يمرروها اضطروا إلى القول بنزول آيات منفصلات تحمل هذه الأحكام بشكل معين!

إذن لصراحة آيات الكتاب ولهذا كله لم نتحرج من رد الروايات الكثيرة، لأنها لا تحمل أي يقين تاريخي.

---

[8] يشهد لهذا التخبط الكبير الروايات الكثيرة، التي دفعت بعض السادة العلماء بالقول بتكرار نزول بعض آيات أو سور القرآن! وعلى الرغم من تهافت هذا القول، إلا أن هناك من يدافع عنه.

وكذلك وجدنا أقوالا عجيبة في الكتب المتخصصة لعلوم القرآن، ومن ذلك ما أورده الإمام السيوطي في الإتقان: "ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه". قال الزركشي في البرهان: قد يكون النزول سابقاً على الحكم كقوله: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)، فقد روى البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت في زكاة الفطر. وأخرج البزار نحوه مرفوعاً. وقال بعضهم: لا ادري ما وجه التأويل لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم. وأجاب البغوي بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال: "لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد" – فالسورة مكية وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال عليه الصلاة والسلام: أحلت لي ساعة من نهار. (الآية لا علاقة لها بهذا، وإنما الحديث عن استحلال المشركين إيذاء النبي الكريم –عمرو–) وكذلك نزلت بمكة: "سيهزم الجمع ويولون الدبر" قال عمر بن الخطاب: فقلت أي جمع؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلتاً بالسيف يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر" فكانت ليوم بدر. أخرجه الطبراني في الأوسط. وكذلك قوله: "جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب"، قال قتادة: وعده الله وهويومئذ بمكة أنه سيهزم جنداً من المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر." اهـ

ومثل هذا التخبط راجع إلى وجود تشريع أو إخبار في الوحي إلى النبي الكريم خارج القرآن، ثم يأتي بعد ذلك في القرآن ما يصدقه.

سورة القرآن

اعتدنا عند تعاملنا مع القرآن على استخدام بعض ألفاظ بدون السؤال عن معناها، لأن مدلولها (القرآني) من المفهوم لنا بداهة، مثل الآية والسورة والقرآن! ولم نهتم بمعرفة أصلها اللساني، حتى نتمكن من توسيع وتدقيق تصورنا حول المفردات القرآنية.

وبما أننا نتكلم عن تناسب سور القرآن واتصالها، وعن وحدة موضوعها، فلزاما أن يكون لنا وقفة مع كلمة "سورة"، فما هو أصلها، وإلى ما تشير؟ إذا نظرنا في معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ألفيناه يقول: "السين والواو والراء أصلٌ واحد يدلُّ على علوٍّ وارتفاع. من ذلك سَار يَسُور إذا غضب وثار. وإنَّ لغضبِهِ لَسَورةً. والسُّور: جمع سُورة، وهي كلُّ منْزلةٍ من البناء..."

وإذا نظرنا في لسان العرب لابن منظور ألفيناه يقول: "... وسُرْتُ الحائطَ سَوْراً وتَسَوَّرْتُه إِذا عَلَوْتَهُ. وتَسَوَّرَ الحائطَ: تَسَلَّقَه. وتَسَوَّرَ الحائط: هجم مثل اللص؛ عن ابن الأَعرابي: وفي حديث كعب بن مالك: مَشَيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ أَبي قتادة أَي عَلَوْتُه؛ ومنه حديث شيبة: لم يَبْقَ إِلا أَنَّ أُسَوِّرَهُ أَي أَرتفع إِليه وآخذه. وفي الحديث: فَتَساوَرْتُ لها؛ أَي رَفَعْتُ لها شخصي. يقال: تَسَوَّرْتُ الحائط وسَوَّرْتُه. وفي التنزيل العزيز: إِذ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ؛ وأَنشد: تَسَوَّرَ الشَّيْبُ وخَفَّ النَّحْضُ وتَسَوَّرَ عليه: كَسَوَّرَةُ والسُّورَةُ: المنزلة، والجمع سُوَرٌ وسُوْرٌ، الأَخيرة عن كراع، والسُّورَة من البناء: ما حَسُنَ وطال. الجوهري: والسُّوْرُ جمع سُورَة مثل بُسْرَة وبُسْرٍ وهي كل منزلة من البناء ومنه سُورَةُ القرآن لأَنها منزلةٌ بعد منزلة مقطوعةٌ عن الأُخرى والجمع سُوَرٌ بفتح الواو قال الراعي: هُنَّ الحرائِرُ لا رَبَّاتُ أَخْمِرَةٍ سُودُ المحَاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ. قال: ويجوز أَن يجمع على سُوْرَاتٍ وسُوَرَاتٍ ابن سيده سميت السُّورَةُ من القرآن سُورَةً لأَنها دَرَجَةٌ إِلى غيرها، ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقِطْعَة. وأَكثر القراء على ترك الهمزة فيها وقيل السُّورَةُ من القرآن يجوز أَن تكون من سُؤْرَةِ المال، ترك همزه لما كثر في الكلام. التهذيب. (...) قال: وأَما سُورَةُ القرآن فإِنَّ الله، جل ثناؤه، جعلها سُوَراً مثل غُرْفَةٍ وغُرَفٍ ورُتْبَةٍ

ورُتَبٍ وزُلْفَةٍ وزُلَفٍ، فدل على أَنه لم يجعلها من سُور البناء لأَنها لو كانت من سُور البناء لقال: فأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مثله، ولم يقل: بعشر سُوَرٍ، والقراء مجتمعون على سُوَرٍ، وكذلك اجتمعوا على قراءة سُوْرٍ في قوله: فضرب بينهم بسور، ولم يقرأْ أَحد: بِسُوَرٍ، فدل ذلك على تميز سُورَةٍ من سُوَرِ القرآن عن سُورَةٍ من سُوْرِ البناء. (...) ابن الأَعرابي: سُورَةُ كل شيء حَدُّهُ ابن الأَعرابي السُّورَةُ الرِّفْعَةُ وبها سميت السورة من القرآن أَي رفعة وخير. (...) ابن الأَعرابي: السُّورَةُ من القرآن معناها الرفعة لإِجلال القرآن، قال ذلك جماعة من أَهل اللغة. قال: ويقال للرجل سُرْسُرْ إِذا أَمرته بمعالي الأُمور. وسُوْرُ الإِبل: كرامها؛ حكاه ابن دريد؛ قال ابن سيده: وأَنشدوا فيه رجزاً لم أَسمعه، قال أَصحابنا؛ الواحدة سُورَةٌ، وقيل: هي الصلبة الشديدة منها. وبينهما سُورَةٌ أَي علامة؛ عن ابن الأَعرابي. والسِّوارُ والسُّوَارُ القُلْبُ: سِوَارُ المرأَة، والجمع أَسْوِرَةٌ وأَساوِرُ، (...)" اهـ

فنستخلص من اللسان أن السور يدل على علو وارتفاع وإحاطة وإحكام واتصال، ونجد ذلك المعنى جليا في السور والسوار[9]. وبهذا المعنى يستخدم القرآن المفردة، فإنه يستعملها بمعنى وحدة واحدة متصلة محكمة البناء، تعلو على غيرها من الكلام والأفهام، كما أنها تتميز ببنيتها عن إخوتها، فإن لم يكن لها إخوة فهي ليست بسورة.

والسورة هي وحدة بناء القرآن، فالقرآن يتكون من عدة سور، تُكون باجتماعها القرآن، كما كونت الآيات باجتماعها السورة، وكما كونت الكلمات باجتماعها الآية القرآنية.

والقرآن يقدم نفسه ووحدة بناءه (السورة) كآية ليس لها مثيل، لن يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، (ولم يقل هذا مع الآية) فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة

[9] تميزت "سورة" بانتهائها بالتاء المربوطة، فهي ليست سور وإنما سورة، فالسور يدل على العلو والإحاطة بشيء وهو غير هذا الشيء، أما السورة فهي شيء متعال عن غيره، إلا أنها المحيط والمحاط به في نفس الوقت، فهي بنفسها بناء متكامل.

الإسراء ,٨٨] وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣]

ونلاحظ أن التحدي بإتيان سورة مثل سور القرآن لم يأت في أول الوحي، وإنما أتى بعد نزول عدد من السور، يمكن انضمامها إلى بعضها، ويمكن بها إقامة الحجة على المحاج وإبطال شبهة المعاند وإجابة سؤال السائل.

فحجية السورة وآيتها هو في محتواها وفي وجودها داخل السورة الكبرى (القرآن)، كما أن الآية لم تكن آية إلا بوجودها داخل السورة، ولو أُفردت بالذكر لصارت كلاما بليغا، ولكن يمكن الإتيان بمثله.

وكذلك بوجود سورة مرتبطة مع سور غيرها فإنها تكون سورة ليس لها مثيل، تلزم غيرها بالإيمان وتحمله وزر الكفر! ولو كانت السورة بمفردها حجة كافية لما أنزل الله عزوجل إلا سورة واحدة، ولكان كافيا أن يقرأ الرسول على كل الناس سورة واحدة ليؤمنوا! ولكن لأن السورة تعالج موضوعا واحدا من زوايا شتى فإنها كافية لشفاء الصدر في هذه المسألة، ولكنها لا تكفي بحال لشفاء الصدر في المسائل الإيمانية التعاملاتية الحِكمية كلها.

لذلك فإننا نرى –والله أعلم– أنه لم تأت المطالبة (التحدي) بالإتيان بسورة مثل الموحى به إلا بعد نزول عدد من السور، تناولت المسائل الإيمانية والغيبية كلها[10]، وأجابت على الأسئلة التي قد تجول بذهن الإنسان، وكوّنت فيما بينها آية بينة على استحالة كون هذا كله من عند محمد، وحتمية كونه من عند الله.

ونناقش آيات المطالبة بالإتيان بسور، ليعرف القارئ إلى ما استندنا في قولنا، ونبدأ بأول آية، وهي قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣]

[10] ما نزل بعد ذلك من السور كان في التشريع وتفصيل الإيمانيات (ما يعرف باطلا ب: العقائد) وتعريف بالكون والتاريخ.

فالله تعالى يخاطب العالمين، إن كنتم في ريب من القرآن فأتوا بسورة من مثله. وهنا نتوقف: إلى ما يعود الضمير في "مثله"؟ تأتي الإجابة المنطقية البدهية أنه يعود إلى "ما نزلنا على عبدنا"، أي القرآن الذي أنزل على الرسول قبل نزول سورة البقرة، وهذا القرآن كان مجموعة من السور، فليست البقرة أول ما أنزل من القرآن(11)، فقد كان قبلها عددٌ من السور، وعندما يطالبهم القرآن بأن يأتوا بسورة من مثله، فإن ذلك يعني أن يأتوا بسورة تناقش موضوعا من الموضوعات التي ناقشتها وعرضتها السور السابقة، وتكون هذه السورة من ضمن مجموعة سور مماثلة، يُصدق بعضها بعضا!

ويجب أن نلاحظ أنه سبحانه لم يطلب في القرآن الإتيان ب: "سورة أو سُور مثل سوره"، ولو قال ذلك لعرفنا أنه يريد سورة أي نص أدبي محكم يتناول موضوعا ما، (ولنا تعقيب على هذا نذكره فيما بعد) وإنما قال: "مثله، أو: من مثله"، أي أن الحديث هنا عن المجموع، أي فأتوا بسورة من مثل الموحى إلى محمد.

وعندما عُرض هذا الطلب (التحدي) لأول مرة على الكافرين كان القرآن مجموعة من السور، (وهو الآن المجموع كله) بنَت بمجموعها سورة كافية شافية، وعلى الراغب في الإتيان أن يأتي بمجموعة من النصوص الموحى بها، يكون فيها سورة مثل سور القرآن(12).

---

(11) القرآن يصدق الروايات في أنه لم ينزل بهذا الترتيب في المصحف، فعلى سبيل المثال نجد في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة ,٣]، وهي آخر ما نزل من القرآن، وليست كذلك في المصحف! وكذلك سورة النصر من أوائل ما نزل من القرآن وتجدها في آخر المصحف، ونجد آية في سورة النساء تتحدث عن آية أخرى في الأنعام، والنساء تسبق الأنعام في ترتيب المصحف، ولكن الأنعام تسبقها في النزول، وهما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة النساء ,١٤٠]، فهذه الآية تتحدث عن قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأنعام ,٦٨].

(12) الحديث هنا عن الإتيان بسورة من كتاب مثل القرآن، والكتب التي ادعي لها ذلك هي الكتب الموحى بها من الإله، مثل: التوراة والإنجيل وما شابههما، فالله تعالى يطلب إلى الناس أن يأتوا بسورة من أي كتاب مقدس آخر–أو حتى غير مقدس–

إذا ف التحدي هنا عن الإتيان بواحد داخل مجموع، وليس مجرد الإتيان بواحد فقط.

فإذا انتقلنا إلى الآية المذكورة في سورة يونس وجدناه سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ [سورة يونس, ٣٧-٣٨] ففي هذه الآية يدور الحديث عن القرآن (والذي هو مجموع سور)، وأنه لا يمكن افتراءه من دون الله، وإن كان محمد افتراه فأتوا بسورة مثل القرآن!

فهنا نجد أن الله تعالى يعتبر القرآن كله (أو الجزء الذي كان قد أوحي إلى الرسول الكريم حتى نزول هذه السورة) سورة واحدة، ويطلب إلى المعاندين أن يأتوا بسورة مثله[13]، وأن يدعوا من يستطيعون لذلك.

وكما اعتبر الله تعالى القرآن كله في سورة يونس، سورة واحدة مرتبطة ببعضها ومتعالية عن غيرها من الكلام، نجده يعتبره كذلك في سورة هود، فيقول: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [سورة هود, ١٢-١٣]

فنلحظ هنا كذلك الحديث عن مجموع القرآن، فالضمير في "افتراه" و"مثله" عائد على المذكور في الآية السابقة، وهو ما وأحي إلى الرسول الكريم، والذي كان عدد من السور، فيقول الله تعالى: إذا كان هذا مفترى، فما أسهل الإتيان بالمفترى، فأتوا بعشر سور مثل الموحى إلى محمد.

ففتشوا *الكتب* كما يحلو لكم، –واكتبوا من الكتب ما يحلو لكم–، فلن تأتوا أبدا داخل أي كتاب من هذه الكتب بمثل سورة من سور القرآن.

(13) لا تصر على إضافة أفهام للنص غير مذكورة فيه، فالله تعالى قال: سورة *مثله*، أي مثل القرآن. ولم يقل: مثل سوره، فلا تصر على إضافة محذوف، ولا تجعل هذه بمعنى تلك!

إذا وكما رأينا من خلال آيات التحدي فلم يكن التحدي بسورة فقط، وإنما كان بالمجموع، فالسورة تسورت عندما وجد غيرها من كلام الله تعالى، فتمايز هذا عن ذاك، وأصبحت هذه سورة غير تلك، وأي عدد من السور هو سورة واحدة لعلوه وتمايزه عن كلام البشر، وكذلك القرآن كله سورة واحدة لعلوه على كلام البشر – وكذلك ما سبقه من الكتب– والعجيب أن السادة المفسرين غفلوا عن هذا المسألة، فالنص الأدبي لا يستحق أن يكون سورة إلا إذا وجد بين مجموعة أخرى من النصوص، يتمايز كل منها عن الآخر، وبهذا يكون سورة، أما لو أتى الأديب أو المفكر بنص وحيد ليس له مثيل في أي مجال فلن يكون بحال سورة، ولن يزيد عن كونه: حديث، خطبة، نص! أما السورة فلا تكون إلا مع وجود غيرها!

لذا فيجب علينا تعديل الصورة (التحدي) التي نطالب بها الآخرين أن يأتوا بسورة مثل سور القرآن، فليس المطلوب منهم أن يأتوا بنص فريد ليس له مثيل، وإنما عليهم أن يأتوا بنص داخل مجموعة من النصوص، الفريدة البناء والتي يصدق بعضها بعضا.

وبهذا نعرف التميز والتفرد في السور القصيرة مثل الكوثر والإخلاص وغيرها، فتميزها هو في بناءها وفي موضعها في المصحف، وفي تصديقها للسور الكبار وفي ارتباطها بالسور السابقة والتالية لها، فبهذا كله يمكننا الجزم أنه لن يستطيع إنسان أن يأتي بمثلها.

أما إذا نزعنا السورة من مكانها في المصحف وارتباطها بسابقها ولاحقها، وتصديقها لغيرها من السور، وتصديق باقي السور لها، وجعلناها نصا مجردا، وقلنا أنه لا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بمثلها فهذا من المكابرة!

فمن يأخذ سورة الكوثر مثلا: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر, ١-٣] كنص مجرد غير مرتبط بباقي القرآن، وغير مسقط على الواقع، ويدعي أن البشر لن يستطيعوا أن يأتوا بنص مثل هذا النص،

فهو من المكابرين، وليتفضل ويخبرنا ما هو العنصر المتوفر في هذا النص، والذي يستحيل إيجاده من البشر في نص مماثل[14]؟!

نخرج من هذا كله بأن السورة مجموع آيات، والقرآن مجموع سور، وهو في عين الوقت سورة، والسورة لا تكون سورة إلا مع وجود غيرها حتى تتسور، وبهذه السورة المجموعة تقام الحجة على العباد.

وبهذا القول يمكننا القضاء على إشكالية كبرى قابلتني، ولما لم أجد لها حلا تجاوزتها! وهي: هل السورة بمفردها حجة في الإيمان؟ نعم، السورة حجة في الموضوع الذي تناقشه، ولكن هل تكفي السورة الواحدة لكي يؤمن الإنسان؟ فهل إذا قرأت سورة واحدة على إنسان ولم يؤمن، يكون جاحدا؟ كنت فيما مضى أتحرج من الإجابة، لإيماني أن السورة بمفردها كافية، ولكن لما نظرت في آيات التحدي بالسور، عرفت دور السورة، فهي لبنة في بناء، ولكي أخاطب إنسان لا بد أن أقدم له بناءا، فلا تكفي اللبنة في إقامة الحجة، فأقدم له بناءا مكونا من عشر[15] من السور أو أكثر، فهي تكمل بعضها بعضا وتناقش مسائل وقضايا مختلفة، وترد على أسئلة متعددة، وتحمل أساليب بلاغية متنوعة، تجعل الزعم بأن هذا من عند محمد مستحيلا، وتلزم الإنسان بقراءة القرآن حتى يقرر بنفسه قرارا نهائيا.

---

[14] **لا يعني هذا أننا نقلل من شأن سورة الكوثر، فلقد عرضنا لها في كتابنا: قراءة لسور الطعن، ورددنا على من يطعن فيها، وبيّنا فيها عظيم النظم وأدلة على كونها من عند الله، وهي تعتمد بالدرجة الأولى على مقابلة أخبار السورة بالواقع والتاريخ، ولكن لا يعني هذا كله أن البشر كلهم لا يستطيعون أن يأتوا بنص مثلها!**

[15] **لا يهم هذا الرقم تحديدا، فالمطلوب وجود عدد من السور الكبيرة والصغيرة، التي تكون فيما بينها بناءا محكما.**

ترتيب سور القرآن

بعد أن بيّنا أن القرآن يقول أنه يتكون من سور متعددة، كما يعتبر نفسه في عين الوقت سورة (سوار، سُور) واحدة، لا بد أن نتوقف مع المسألة المترتبة على هذا، وهي ترتيب لبنات وأجزاء الوحدة المستعلية "القرآن"، لندلي بسجْلنا في الموضوع.

وبداهة لن نقدم جديدا في هذه المسألة، فلقد قيل فيها الاحتمالات الثلاثة الممكنة للمسألة: فترتيب سور القرآن إما من عند الله، وأبلغه جبريل للنبي الكريم، وهو ما يعرف بالتوقيفي، أو أنه اجتهاد من الصحابة الأخيار، رضوان الله عليهم، أو أن بعضه من الرسول[16] وبعضه من الصحابة!

ويستند أصحاب الرأي الأخير، والذي لم يلاقي شهرة كبيرة إلى الرواية المكذوبة على ابن عباس، والتي ذكرناها سابقا: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ..." فاستدلوا بها على أن الرسول الكريم رتب القرآن وترك هاتين السورتين فلم يخبر المسلمين أين يضعوهما!!!

وبغض النظر عن ضعف الحديث سندا، فإنه يحمل كثيرا من التناقضات في متنه تكفي للحكم ببطلانه، أولها أن السادة العلماء متفقون على أن ترتيب الآيات توقيفي! مأخوذ عن الرسول الكريم، وقول عثمان: "فظننا أنَّها منها" يدل على أن النبي لم يفصح بأمر براءة، فأضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادًا منه، وهذا يهدم قولهم بتوقيفية الآيات! ويفتح الباب للطعن في الكتاب كله، فلربما رتب الصحابة كذلك الآيات! وهكذا يصبح كتاب الله آيات متناثرات، رصها الصحابة رصا كما عنّ لهم!! فلقد كان الرسول الكريم يغفل عن إعلامهم بمواضعها في السور (هذا طبعا على قولهم بنزول آيات متقطعات، ونحن لا نقر لهم بهذا).

---

(16) تبعا لهذا القول فلن يكون ترتيب الرسول توقيفي، وإنما سيكون اجتهادا من الرسول الكريم! ومات قبل أن يتمه فاجتهد الصحابة في الباقي، ولو كان من عند الله لاستحال أن يبدأ أمرا ولا يتمه!!!

فإذا غضضنا الطرف عن هذا وجدنا أنه قد أثبت للأنفال وبراءة اسمين مختلفين، وكان من الأولى أن يقال: فظننا أن هذه الآيات التي سميناها التوبة! منها، فألحقناها بها! ولكنه يتحدث عن سورتين معروفتين بالاسم!

كما أن قول ابن عباس: "ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين ... فوضعتموهما في السّبعِ الطوالِ" يرد احتجاجهم بِهذا الحديث، فهو يعرف أن الأنفال من المثاني، وأن براءة من المئين، وقوله: "فوضعتموهما في السبع الطوال"، يشير إلى أن السبع الطوال كانت معلومة لهم! وكذلك المثاني، وكذلك المئون، فكيف فات الصحابة الكبار هذه المسألة، وانتبه إليها ابن عباس، الذي أخذ العلم عنهم؟!!

ويستند أصحاب الرأي الثاني، القائل بالاجتهاد، إلى أنه لو كان ترتيب السور توقيفي من الرسول، لانتشر هذا ولعم نقله بين الناس! وبما أنه لم ينقل فهذا دليل على عدم كونه!!

وهذا من عجيب الاستدلال، فإذا غضضنا الطرف عن أن عدم الدليل ليس بدليل، فإن هناك الكثير من الأمور البدهية التي لا يحتاج الإنسان إلى الحديث أو البحث عنها، لذا لا يكثر ذكر هذا! ولست أدري صراحة عن أي دليل يبحثون، وهل هناك دليل أكبر من وحدة المصحف، وإجماع المسلمين على هذا الترتيب!!

كما يستندون إلى اختلاف مصاحف الصحابة في ترتيب سور القرآن، فلقد روي أن مصحف علي كان مرتبًا على النزول، فأوله سورة العلق، ثم المدثر، ثم ق، ثم المزمل ثم تبت، ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني، وتقدمت النساء في مصحف أُبَيِّ بن كعب على آل عمران، ثم تلت آل عمران سورة الأنعام، ثم الأعراف ثم المائدة، كما قيل أن مصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف، ثم الأنعام ... الخ الاختلافات، ولو كان الترتيب توقيفيا لما حدث هذا الاختلاف!

وهذا الدليل مردود عليهم في قولهم ببدائية الوسائل التي كان يُكتب بها وفيها القرآن، فإذا كان هناك الإمكانية عند عدد من الصحابة أن يكون لهم مصاحف مجموعة، أفلم يقدر قائد الدولة الإسلامية على توفير بعض المواد الخام الصالحة لكتابة كتاب يكون مجموعا عنده، بدلا من أن يكون متناثرا عند هذا وذاك، ويجهد المسلمون في جمع النسخة الأصلية منه بعد موته! أم أنه لم يكن يخطط لجعله على هيئة كتاب؟! وإذا كان لم يؤمر بهذا، فلم كان يكتبه أصلا، ما دامت الكتابة ستظل وريقات متناثرات وسعف نخيل وألواح عظام متفرقات؟! هل هذه المواد هي المرجع الذي يُرجع إليه عند الاختلاف، فتقام به الحجة؟!

إن هذه المصاحف كانت مجهودا فرديا من الصحابة، الذين كانوا ينقلون من الصُحف الأم، التي كان يكتبها الرسول الكريم بيده بعد نزول الوحي، ومن ثم يأتي كتبة الوحي فينقلون ما كتبه الرسول الكريم في صحف لديهم[17]. ولقد رُتبت هذه الصحف في حياة الرسول الكريم على فترات متفاوتة، بالترتيب الذي أعلمه إياه جبريل عليه السلام، وهو الترتيب الذي عليه المصحف حاليا، ولذا أخذ هؤلاء ببعض هذا الترتيب وتركوا بعضه، سهوا أو غفلة أو أنهم احتفظوا بها من باب الممتلكات الشخصية لأنفسهم!

فإذا انتقلنا إلى الرأي الأول، وجدنا أنه كذلك يستند إلى روايات تؤيد موقفه، فيستندون إلى ما رواه الإمام أحمد عن أوس بن حذيفة الثقفي، أنه قال: "كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا من ثقيف من بني مالك، أنزلنا

---

(17) المشتهر أن الرسول الكريم كان غير قارئ ولا كاتب، ولكنا نرى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ وكتب عندما أمره الله تعالى بالقراءة، ونستند في قولنا هذا إلى القرآن الكريم، الذي صرح أنه قرأ وكتب، وإلى بعض الروايات التاريخية، التي ذكرت أن النبي الكريم كتب! ويمكن للقارئ الكريم متابعة ما كتبناه حول هذا الموضوع على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar
وهذا القول يحل كثير من الإشكاليات أهمها كتابة المصحف! فعلى الرغم من أن المخالفين يقولون أن الصحابة هم من كتب القرآن، وأن الرسول الكريم كان لا يعرف إذا كان ما كتبوه صحيحا أو خطأ لأنه *أمي*!!، إلا أنهم يجزمون بعدم وقوع أي خطأ أو سهو في كتابة المصحف، وهكذا جعلوا كُتاب الوحي عندنا ملهمين مثل كُتاب الإنجيل تماما، بل وإنهم يجزمون أن كتابته كتابة *إعجازية*، تحتوي العديد والعديد من الإشارات والفروق في المعاني!! ولست أدري كيف يتحقق هذا إذا لم يكن الرسول الكريم هو من خط المصحف بيده؟!

في قبة له فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا فلا يبرح يحدثنا ويشتكي قريشا ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: لا سواء كنا بمكة مستذلين أو مستضعفين فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا ولنا. فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال طرأ علي حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه. فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبحنا، قال قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة وحزب المفصل من ق حتى تختم" اهـ

وإلى ما رواه البخاري عن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ قال: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي "بَنِي إِسْرَائِيلَ" و"الْكَهْفِ" وَ"مَرْيَمَ" وَ"طَهَ" وَ"الأَنْبِيَاءِ": (إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي). فيقولون أن ابن مسعود ذكرها على الترتيب التي استقرت عليه.

كما يستدلون بما رواه البيهقي في دلائل النبوة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل[18]." اهـ

فيستدلون بهذا الحديث على أن تأليف القرآن كان معروفا في زمن النبي الكريم وأنه ظل على ما هو عليه. ويستدلون بغير ذلك من الأدلة[19].

فإذا توقفنا مع هذه الفرق الثلاثة لاحظنا أنهم كلهم لم يستدلوا بالقرآن في هذه المسألة، وذلك لظنهم أن القرآن لم يخض فيها أو يعرض لها، ولست أدري لم؟ فإذا كان هذا مما حدث في زمن الرسول –وهو ما كان بأمر الله– فلم لا يذكره القرآن؟!

(18) الحديث ضعيف سندا ومردود متنا، فهو يقابل أنواع مختلفة من الوحي بسور القرآن، والتي تحتوي موضوعات شتى، وهذه المقابلة قائمة فقط على ترتيب السور في المصحف!!!

(19) من ذلك ما ذكره الإمام السيوطي في الاتقان: "قلت: وما يدلّ على أنه توقيفي كون الحواميم رُتّبت ولاء وكذا الطواسين. ولم تُرتّب المسبحات ولاء. بل فُصل بين سورها. وفصل بين "طسم" الشعراء و"طسم" القصص بـ"طس" مع أنها أقصر منها. ولو كان الترتيب اجتهادياً لذُكرت المسبّحات ولاءً وأُخّرت "طس" عن القصص." اهـ

نرى والله أعلم أن ذلك ذُكر في القرآن إشارة وإن لم يذكر صراحة، فإذا كان الله تعالى يعتبر القرآن كله سورة (سوار، سور) فلا يُعقل أن يكون قد قدم الذهب بدون أن يحدد الشكل الذي سيكون عليه السوار ويقول أن هذا سوار!، أو أن يقدم اللبنات التي تشكل السور بدون أن يرصها، ثم يقول أن هذا سور ليس له شبيه!! تعالى الله عن ذلك، فإذا كان قد رتب الكون كله ونظمه، وجعله كله علائق مرتبطة ببعض، أفينزل كتابه الأخير ويتركه قطعا، يرصه المسلمون كما يحلو لهم؟ وتصور أن كاتبا يدعي أن كتابه ليس له مثيل، ثم يقدمه لك على هيئة فصول غير مترابطة، ويطلب إليك أن ترتبه أنت، وقبل أن ترتبه عليك أن تقر له بعظمة كتابه وتفرده!! والعجيب أن بعض العلماء!! قبلوا هذا وجادلوا فيه! من الممكن لظنهم أن الله تعالى لم يرد أن يكون كتابه على شكل كتاب، وأن هذا من فعل الصحابة بعد الرسول الكريم!!

فإذا تركنا دليل السورية وجدنا أن هناك أدلة كثرة أخر، انتبه إليها بعض العلماء، مثل ما ذكره الإمام الفخر عند تناوله لقوله تعالى: "فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ" في سورة البقرة، حيث قال في تفسيره مفاتيح الغيب: "المسألة الرابعة: قوله: {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سوراً هو على حد ما أنزله الله تعالى، بخلاف قول كثير من أهل الحديث: إنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان، فلذلك صح التحدي مرة بسورة ومرة بكل القرآن." اهـ

وننتقل إلى دليل آخر غفل عنه كثير من العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [سورة الفرقان, ٣٢]

المشتهر في فهم الترتيل أنه بمعنى تحسين وتجويد تلاوة القرآن! ولكن ليس هذا هو المعنى الأصيل للكلمة، كما أنه ليس مرادا في هذه الآية حتما! وننظر أولا في اللسان لنعرف المعنى المراد للكلمة.

إذا نظرنا في لسان العرب ألفيناه يقول: "الرَّتَلُ: حُسْن تَناسُق الشيء. وثَغْرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ: حَسَن التنضيد مُستوي النباتِ، وقيل المُفَلَّج، وقيل بين أَسنانه فُروج لا يركب بعضها بعضاً. (...) وكلامٌ رَتَل ورَتِلٌ أَي مُرَتَّلٌ حسَنٌ على تؤدة. ورَتَّلَ الكلامَ: أَحسن تأْليفه وأَبانَه وتمَهَّلَ فيه. والترتيلُ في القراءة: التَّرَسُّلُ فيها والتبيين من غير بَغْيٍ. ..." اهـ

فالترتيل ليس فقط تناسق الشيء وإنما تناسق حسن، واستعمل العرب القدماء هذا المعنى مع الأسنان المتراصة التي يتخللها فراغات منتظمة، واستعملناها نحن في العصر الحديث مع المتحركات المنتظمة، فقلنا: رتل عربات أو رتل دبابات، عندما تمشي الآليات وراء بعضها في نظام معين. وعندما أراد السادة العلماء إسقاط هذا المعنى أسقطوه على تجويد القرآة!! ولست أدري صراحة، أيهما أحق أن يُسقط عليه المعنى، الترتيب أم الترسل في القراءة والتبيين؟! إن أكبر مظهِر لحسن تناسق الشيء هو ترتيبه، وبدون الترتيب يصبح الأمر فوضى! فلا يكون مرتلا أبدا!

فإذا فهمنا الكلمة على هذا المعنى استقام فهم الآية، فالآية ترد على من يطالب بإنزال القرآن جملة واحدة، فتقول أن هذا لتثبيت فؤاد النبي، وأنه وإن نزل مفرقا إلا أننا من نرتبه وننظمه وسيخرج على أفضل شكل. وقارن بين فهمنا وبين الفهم الذي يقول: إن هذا التفريق لتثبيت قلب النبي كما أننا (الملائكة) نقرأه عليه بصوت حسن جميل!!

ولست أدري ما علاقة القرآة بالصوت الحسن المسترسل بتفريق القرآن أو جمعه؟!

وبهذا نفهم آية المزمل: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [سورة المـزّمّـل, ٤] فالله تعالى يعطي النبي الكريم خيارات متعددة في قيام الليل، إلا أنه لم يعطه هذه الخيارات في قراءة القرآن، فلقد أمره بقراءة القرآن بتناسب وتناسق، وليس هناك أفضل من ترتيب الله عزوجل.

فإذا تركنا الأدلة التي تستخرج من آيات وجدنا أن السادة القائلين بعدم توقيف ترتيب سور القرآن يستندون –لا واعين– إلى أن القرآن لم يكن كتابا في زمان الرسول

الكريم، ولو كان تركه كتابا لعلموا أنه رتبه. وبما أنه لم يتركه كتابا –كما يظنون!– فإنه لم يرتبه!

وهذا يُنشأ إشكالية كبرى، وهي خطاب الله تعالى للأجيال التالية بعد جيل التلقي الأول. فمما يسلم به كل مسلم أن القرآن أنزل لخطاب كل الأجيال إلى قيام الساعة، على الرغم من نزوله بعد مواقف ومناسبات حدثت في زمن الرسول الكريم، وذلك لأنه صيغ صياغة متشابه، تحمل في ثناياه عوامل الخلود والعلو على التاريخانية؛ فكما صلح للأولين فسيصلح لآخر المتأخرين.

فإذا كان الجيل الأول قد شهد نزول أجزاء القرآن حتى اكتماله، فإن كل الأجيال اللاحقة لم تقابل إلا كتابا، والسؤال هو: هل أراد الله عزوجل للأجيال اللاحقة أن تقابل كتابا، أم تقابل بعض موضوعات ومقالات؟!

لقد شاهد الجيل الأول تنزلات القرآن وإسقاطاتها، فكان نزول القرآن شفاء لداء ورأبا لصدع، فكانت السورة تنزل في أمر من الأمور فتعالجه تمام المعالجة. فماذا عن الأجيال التالية، والتي يفترض فيها أن تسقط هي القرآن على واقعها؟ هل يظل القرآن بالنسبة لها على نفس الترتيب، الذي أنزل به؟

يظهر جليا من القرآن أن الله تعالى لم يرد لها ذلك، وذلك لأن الجيل الأول نفسه أصبح جزءا من التجربة نفسه، فلقد دخل الجيل في الأحداث وتنزل فيه وبسببه قرآن، وكان يحتاج إلى معالجة مخصوصة مناسبة لحاله تبعا لظروفه، لذا كان لا بد أن تصاغ الرحلة والتجربة صياغة جديدة مناسبة لمن سيقرأها بعد ذلك على هيئة كتاب ولم يعش جزءا من التجربة.

ولقد قضى الله تعالى وأراد أن يخاطب البشر بكتاب، والكتاب لا بد أن يكون بناءه ككتاب، وأي كتاب يتكون من مقدمة ومحتوى وملخص وخاتمة، وهذا ما نراه جليا في الكتاب "القرآن"، فالقرآن يبدأ بمقدمة هي فاتحة الكتاب، ثم محتوى وهو القرآن

حتى الجزء التاسع والعشرين ثم ملخص في جزء عم، وخاتمة في الإخلاص والمعوذتين.

وكان من المنطقي أن يتفق ترتيب نزول السور مع ترتيبها في المصحف ويختلف، تبعا للمحتوى الذي تقدمه السورة. فلأن الفاتحة فاتحة، افتتح الله تعالى بها وحيه وناسب أن يفتتح بها كتابه[20]. وبعد الفاتحة تأتي سورة البقرة بادئة الكتاب بالتصريح بأنه كتاب حق لا ريب فيه، وأنه هدى للمتقين.

ولم يكن من الممكن أن يُبتدأ إنزال سور القرآن بهذه الجملة، لأن المتلقين لها لم يتلقوا القرآن جملة واحدة، حتى يستطيعوا الحكم عليه، استنادا إلى ما رأوا، وإنما انتظروا سنين وسنين حتى قرأوا وسمعوا ما يمكن تسميته بالكتاب، وعند تحقق هذه المرحلة نزلت هذه السورة مصرحة بما فيها.

---

[20] نظرت في كتاب الله تعالى بحثا عن السورة المناسبة لأن تكون بدءا للوحي، فملت إلى أن تكون الفاتحة، فلمّا بحثت لأتأكد هل قال بالرأي أحد، وجدت أنهم يقولون أن الفاتحة أول سورة نزلت كاملة! ووجدت أن الإمام محمد عبده قد قال بهذا القول، وقال به بعض العلماء قديما، استنادا إلى رواية –كنت قد قرأتها وغفلت عنها– وردت عند الإمام البيهقي في دلائل النبوة، تقول أن الفاتحة أول ما نزل، وتقول الرواية: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس بن بكير عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا» فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكرت خديجة حديثه له وقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربا في الأرض» فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين حتى بلغ: ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أبشر، ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك، فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني» يعني ورقة، فهذا منقطع، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ باسم ربك، ويا أيها المدثر، والله أعلم. ولهذا –والله أعلم– شرفت الفاتحة بأن نفتتح بها قراءتنا في الصلاة.

والحديث ضعيف ولكنه يشير إلى وجود هذا الرأي في الزمن الأول، وإلى وجود به من قال به غيرنا، وأنا أعلم أن هذا الرأي مخالف للمشتهر من كون *اقرأ* أول ما نزل من القرآن، ولكن ظهر لي بعد النظر والتفكر أن السورة لا تصلح أن تكون أول ما نزل من القرآن، لأنها تدور حول رد فعل الكافرين تجاه المسلمين، كما أن الرواية تقول أن ما نزل هو خمس آيات فقط، وهو ما يرفضه القرآن، الذي لا يصرح إلا بنزول سور.

بخلاف من يقرأ الكتاب بعد هذه المرحلة، فهو لا يحتاج إلا الانتظار والتريث، فإنه يجد الكتاب كله مجموعا في غلاف واحد، يستطيع أن يختمه كله في أيام قلائل، أو أن ينتقي منه مواضيع شتى، تؤكد له ما ورد في أول آية من الكتاب، من أنه لا ريب فيه.

سورة النصر من أوائل ما نزل من القرآن (ونفض يدك من الروايات التي تقول أنها نزلت بعد الفتح أو آخر ما نزل من القرآن)، نزلت كنبؤة وتثبيت رباني للنبي الكريم، أنه مهما لاقى فسينصره الله وسيدخل الناس في دين الله أفواجا، وعندما يحدث هذا فعليه أن يفعل كذا وكذا. ويتحقق هذا في آخر حياة النبي الكريم، قبيل وفاته، فيناسب أن توضع السورة في آخر المصحف في المكان المقابل لزمان وقوعها وقبل نهاية المصحف، إشارة إلى تحقق وعد الله القديم وإن تأخر. فنزلت السورة أول ما نزلت للتثبيت ونبؤة، ووضعت في آخر المصحف لانتهاء دورها المتقدم، ولمناسبة توسطها بين إعلان الحيادية مع الكافرين وإعلان هلاك كبار المعاندين.

وهكذا يلعب الترتيب الجديد دوره في توجيه حياة من لم يعش التنزل الأول، لأن التنزل كان حسب حالات، أما بعد ذلك فالمطالب تعديل الحياة وتسييرها لتكون تبعا للتنزيل، وأفضل ما يناسب ذلك هو الترتيب المذكور في القرآن. ومرة أخرى نطرح السؤال مجددا:هل تعتقد أن الله تعالى أراد أن يخاطب عباده بكتاب أم بمجموعة مقالات؟! وإذا كان أراد أن يخاطبهم بكتاب، فهل يُؤلف كتاب بلا ترتيب؟!

الدليل الأكبر

بعد أن عرضنا لك أخي القارئ الأقوال في ترتيب القرآن، ودللنا على قولنا بآيات من القرآن وبدليل جديد لم يعرض له أحد قبلنا -كما نعتقد والله أعلم- رأينا أن نفرد أكبر دليل على أن ترتيب سور القرآن من عند الله، وليست حتى اجتهادا من الرسول

الأعظم نفسه، فنخص هذا الدليل بحديث مستقل. فأكبر دليل على توقيفية الترتيب هو اتصال السور نفسها وارتباط موضوعاتها، وتصديق السورة التالية للسورة السابقة لها، بل وإكمالها أحيانا! وتناسب نهاية السورة مع السورة التالية لها. ومن المستحيل أن يتحقق هذا كله صدفة أو اجتهادا من بشر! فلا يحيط بهذا علما إلا من وسع كرسيه السموات والأرض.

وسنقدم للقارئ الكريم تفصيلا لهذه النقاط عند تناولنا لجزء عم، ولكننا سنقوم هنا بتقديم بعض الإشارات من خارج الجزء، حتى يكون القارئ الكريم على يقين من أن ما سنقدمه له في الجزء الأخير متحقق في القرآن الكريم كله. ولن نعتمد على العجائب الحسابية[21] بأي حال، وإنما سنقدم علاقات وتوافقات مباشرة، لا يجادل فيها مجادل.

الناظر في كتاب الله تعالى يجد أن سورة التوبة وُضعت بعد سورة الأنفال، ومن المعلوم أن سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر الكبرى، وهي أول معركة حقيقية بين المسلمين والكافرين، شارك فيها الرسول الأكرم، حيث كان المسلمون لا يزالون في بدايات تكوين المجتمع المدني الجديد. بينما نزلت سورة التوبة بعد آخر غزوة للرسول؛ غزوة تبوك، بعد أن قويت شوكة المجتمع، وأصبح المجتمع الأقوى في الجزيرة، –حتى أنه ظهرت في المجتمع طائفة جديدة "المنافقون"–، ذلك المجتمع المتأهب للخروج والانفتاح على العالم الخارجي.

(21) مثل القول أن نصف القرآن مساو لعشره. فكما هو معروف أن القرآن مكون من مائة وأربعة عشر سورة، ونجد أن نصف هذا العدد (سبع وخمسون) يأتي في سورة الحديد –عند نهاية الجزء السابع والعشرين– ويمثل النصف الآخر الأجزاء الثلاثة الأخيرة (عُشر القرآن). أو مثل القول بأن سورة النساء هي الرابعة في النصف الأول من القرآن، وبدأت بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ①﴾ [سورة النساء ,١]، وأن سورة الحج هي الرابعة في النصف الثاني من القرآن، وبدأت كذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ①﴾ [سورة النساء ,١].

وهكذا يقارن القارئ بين الحالين، حال المسلمين في أول البعثة وبين الحال في آخرها، وكيف تبدل الحال والمجتمع وتغير، وكيف كان الخطاب لهم في بدأ الأمر وكيف خوطبوا في آخره.

وبهذا يستطيع أن يلحظ تغير الأوامر والمراحل التي مر بها، فيستخرج من ذلك العديد من الحكم، والعظيم من فقه الواقع.

والتفصيل في تناسب الموضوعات بين سورتين من السور الطوال، يحتاج إلى بسط حديث، ونذكر هنا في عجالة ما ذكره الإمام السيوطي في كتابه: أسرار ترتيب سور القرآن، عند حديثه عن سورة آل عمران، حيث قال: "(...) وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين؛ كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها، ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود وآخرها في ذكر النصارى. (...) الوجه السادس: أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان وحمل الإصر ومالا طاقة لهم به تفصيلاً، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿... لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ... ﴿١٣٦﴾﴾] سورة البقرة ,١٣٦[، فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق. (...) وأقول: قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات؛ أحدها: مراعاة القاعدة التي قررتها من شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها، وذلك هنا في عدة مواضع منها: ما أشار إليه الإمام فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه. وقال في آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... ﴿٣﴾﴾] سورة آل عمران ,٣[وذاك بسط وإطناب لنفي الريب عنه. ومنها: أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملاً وقسمه هنا إلى آيات محكمات ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله. ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿... وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ... ﴿٢٤٧﴾﴾] سورة البقرة ,٢٤٧[وقال هنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن

تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾] سورة آل عمران ,٢٦[، فزاد إطناباً وتفصيلاً. ومنها: أنه حذر من الربا في البقرة ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً وزاد هنا قول: أضعافاً. ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ﴾ وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً وفصله هنا بقوله: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ ... ﴿٩٧﴾] سورة آل عمران ,٩٧[. وزاد: بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿... وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾] سورة آل عمران ,٩٧[. ومنها: أنه قال في البقرة في أهل الكتاب: ﴿... ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ ... ﴿٨٣﴾] سورة البقرة ,٨٣[، فأجمل القليل وفصله هنا بقوله: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾] سورة آل عمران ,١١٣[، ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾] سورة البقرة ,١٣٩[، فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً وكذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ... ﴿١٤٣﴾] سورة البقرة ,١٤٣[، في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام، وأتى في هذه بصريح البيان فقال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾] سورة آل عمران ,١١٠[فقوله: {كنتُم} أصرح في قدم ذلك من {جعلناكم} ثم وزاد وجه الخيرية بقوله: ﴿... تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ... ﴿١١٠﴾] سورة آل عمران ,١١٠[، ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ ... ﴿١٨٨﴾] سورة البقرة ,١٨٨[، وبسط الوعيد هنا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ... ﴿٧٧﴾] سورة آل عمران ,٧٧[، وصدره بقوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ... ﴿٧٥﴾] سورة آل عمران ,٧٥[. الوجه الثاني: أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحاداً

وتلاحماً متأكداً لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب: من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم وتكررت هنا آية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ... ١٣٦﴾] سورة البقرة ,١٣٦[بكمالها، ولذلك أيضاً ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك أو لازم في تلك أو لازم له، فذكر هناك خلق الناس وذكر هنا تصويرهم في الأرحام وذكر هناك مبدأ خلق آدم وكذا هنا مبدأ خلق أولاده. وألطف من ذلك: أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى عليه السلام، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور وآدم أول في الوجود وسابق ولأنها الأصل وهذه كالفرع والتتمة لها فمختصة بالإعراب والبيان، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم لتثبيت في أذهانهم فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها، ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم في قوله: ﴿كمثل آدم﴾ الآية. والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلوماً لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم. ومن وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: "أعدت للكافرين" ولم يقل في الجنة: (أعدت للمتقين) مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله: ﴿... وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾] سورة آل عمران ,١٣٣[، فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة." اهـ

وسيجد القارئ تفصيلا كبيرا في التناسب بين السور عند تناولنا لجزء عم.

فإذا تركنا التناسب بين موضوعات السور وتصديقها لبعضها، وجدنا التناسب بين نهايات السور وبدايات السور التالية لها جليا.

فإذا أخذنا سورة الإسراء وجدنا أنها تنتهي بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ١١١﴾ [سورة الإسراء, ١١١] فتأمر النبي بتحميد الله الذي لم يتخذ ولدا ولم ...

فإذا نظرنا في سورة الكهف وجدنا أنها تبدأ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ [سورة الكهف, ١-٤] فتبدأ السورة بحمد الله والتعريف أن دور الرسول هو البشارة، وإنذار من قال أن الله اتخذ ولدا.

فإذا نظرنا في سورة ص وجدناها تنتهي بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ٨٨﴾ [سورة ص, ٨٦-٨٨] فالسورة تنتهي بالحديث عن القرآن وأنه ذكر للعالمين، وأنه يحتوي من العلوم ما ستعلمه البشرية بعد حين.

ثم تبدأ الزمر بقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [سورة الزمر, ١-٢] فتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والكتاب منزل بالحق، لذا فالمترتب على ذلك أن تعبد الله مخلصا له الدين، وأن تقدم الدين على عقلك ومعرفتك.

فإذا نظرنا في سورة الأحقاف وجدنا أنها تنتهي بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [سورة الأحقاف, ٣٤-٣٥]

فإذا نظرنا في سورة محمد[22] وجدنا أنها تبدأ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾ [سورة محمّـد, ١-٣] فالقوم الفاسقون هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، والفارق أن المؤمنين آمنوا واتبعوا الحق، أما هؤلاء فكذبوا بالحق واتبعوا أهوائهم.

ونكتفي بهذا القدر، فما من سورة إلا وهناك علاقة بين آخرها وأول السورة التالية لها، والفارق أن العلاقة والاتصال قد يكونا ظاهرين[23]، فلا يحتاج الإنسان إلى إعمال فكر فيهما، وقد لا يكون الاتصال جليا فيحتاج الإنسان إلى إعمال فكر. وعن تجربة فإني أجزم بأن المتدبر والمتفكر سيصل إلى علاقات وإشارات بديعة في التواصل بين خواتيم وبدايات السور.

وأعتقد أن فيما قلنا الغناية والكفاء لمن يريد التأكد من توقيفية الترتيب، ونطلب إليه أن يقرأ العلائق والاتصالات بين سور جزء عم كله، ويخبرنا: هل من الممكن أن يكون كل هذا صدفة أو اجتهادا؟!!

[22] نلحظ كذلك ظهور تناسب بين موضوع السورة والسورة التالية، فسورة محمد سورة قتالية، وبعدها سورة الفتح، فكأن في هذا إشارة إلى أن قتال محمد وجهاده سينتهي بالفتح.

[23] مثل قوله تعالى في آخر سورة الطور: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [سورة الـطور, ٤٩]، وتبدأ سورة النجم بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [سورة الـنجـم,١]، وقوله تعالى في آخر سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾]سورة الواقعـة, ٩٦[، وقوله في أول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ [سورة الحـديد, ١].

الفصل الثاني: التناول الموضوعي

التفسير الموضوعي

يعتبر هذا النوع من التناول[24] طريقة حديثة في التعامل مع كتاب الله عزوجل، ويطلق هذا المصطلح على طريقتين من التناول:

الأول: تناول السورة الواحدة واستخراج الوحدة الموضوعية لها.

والثاني: يقوم على تتبع القضية الواحدة أو المعنى الواحد في القرآن كله، ويجمعها ويفهمها استنادا إلى بعضها.

وفي هذا يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى: الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات، فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام! أما الأول فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها. لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة، وإن كثرت قضاياها، وتأسيت فى ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة –وهى أطول سورة فى القرآن الكريم– فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه "النبأ العظيم" وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة، فيما أعتقد.. وعلماء القرآن أجهزة استقبال لما يؤتيهم الله من فهم فيه، فالفضل أولا وأخرا لمن أسدى تبارك اسمه!. وقد شعرت– على ضوء ما أحسست من نفسى– أن

---

[24] على الرغم من رفضنا التام لاستعمال مصطلح "تفسير" مع كتاب الله العزيز، فإننا مضطرون إلى استعماله بهذا الشكل، لأننا لا يمكننا أن نستعمل في عين الوقت مصطلح "التأويل الموضوعي"، لأن هذا العملية لن تعد كذلك تأويلا، ولن تزيد عن طريقة للتناول والتدبر. ونطلب إلى القارئ الكريم أن يرجع إلى كتابنا الأول: لماذا فسروا القرآن، والذي بيّنا فيه لم أنه لا يجوز أن يوصف أي كتاب بأنه تفسير لكتاب الله تعالى. ويمكن للقارئ الكريم أن يجده على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar

المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير! (...) إننى أختار من الآيات ما يبرز ملامح الصورة، وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه، وذلك حتى لا يطول العرض ويتشتت، والإيجاز مقصود لدى (...) وأنبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لا يغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة (...) وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له! وهو تتبع المعنى الواحد فى طول القرآن وعرضه وحشده فى سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس (...) وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابى "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" و"نظرات فى القرآن[25]" اهـ

ونحن إذ نعرض لطريقة التناول هذه فإننا نقصد النوع الأول، وهو النوع الذي يحاول استخراج وتقديم صورة واضحة المعالم للسورة القرآنية، لا ذلك الصنف الآخر الذي يعمل على تجميع الآيات المتعلقة بمسألة واحدة في القرآن كله[26].

والكتابة في هذه اللون بهذا الشكل تعتبر حديثة إلى حد ما، وهناك من علمائنا من كتب بعض الكتابات الممهدة لها منذ زمن طويل، وهي وإن لم تهتم بالمقاصد والموضوع الواحد للسورة، إلا أنها عنيت بالمناسبات بين الآيات، وسبب وقوع هذه الآية بعد تلك، ولكن لم يُكتب لهذه الكتب الشهرة والانتشار، اللذان تحققا لغيرها من الكتب والفنون.

وسنعرج قليلا قبل حديثنا عن هذا اللون بالحديث عن العلم الممهد له.

---

[25] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ص.5–6.

[26] تعتبر هذه الطريقة من الطرق الحديثة في التعامل مع كتاب الله تعالى، إلا أن الإمام مقاتل بن سليمان الأزدي، ت 150هـ، يعتبر الممهد الأول لهذه الطريقة، بتأليفه كتاب: "تفسير الخمسمائة آية في الأمر والنهي والحلال والحرام"، ورتبه ترتيبا فقهيا، فبدأ بتناول آيات الإيمان، ثم المتعلقة بالصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج، ثم المظالم، ثم المواريث، ثم الربا، ثم الخمر، ثم النكاح، ثم الطلاق، ثم الزنا، ثم بعض الآداب والمعاملات في دخول البيوت، ثم تناول الجهاد. ومقاتل وإن لم يستقص كل الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، إلا أنه يحمد له وضع لبنة الأساس، والتمهيد لمن جاء بعده.

علم المناسبات

يُعرف الإمام الزركشي بهذا التوجه في تناول سور القرآن، والذي عُرف بعلم المناسبات، فيقول في كتابه البرهان: "وقد أفرده بالتصنيف الأستاذ أبو جعفر بن الزبير شيخ الشيخ أبي حيان، وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك. واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول. (...) وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط. وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعا. وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه. وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر. (...) قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما

سئل وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر فإنه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾] سورة هود ,١[، قال: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. قلت: وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه: ﴿... وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾] سورة الزمر ,٧٥[، وكافتتاح سورة فاطر بـ {الحمد} أيضا فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ ... ٥٤﴾] سورة سبإ ,٥٤[، وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾] سورة الأنعام ,٤٥[وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به وكافتتاح البقرة بقوله: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ... ٢﴾] سورة البقرة ,١-٢[إشارة إلى {الصِّرَاطَ} في قوله: ﴿... ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾] سورة الفاتحة , ٦[كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة وهو يرد سؤال الزمخشري في ذلك. (...)[27]" اهـ

ويعترض الدكتور عبدالحميد محمود غانم على القول بأن أول من أظهر هذا العلم هو الإمام أبو بكر النيسابوري، فيقول: "والواقع أن في ذلك نظراً؛ فقد صرح (البقاعي) أيما تصريح بقدم علم المناسبات القرآنية، وانتشاره بين الصحابة والتابعين، واعتمادهم

[27] بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص.35-37.

إياه في فهم آي الكتاب الحكيم، فقال في كتابه (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور): «وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص هذا العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون. قال (أبو عبيد) في (كتاب الفضائل): حدثنا معاذ بن عوف عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه، قال: إذا حدثتَ عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله، وما بعده. وروى عبد الرزاق عن ابن عيينة عن الأعمش عن إبراهيم قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فلْيَسَلْه عما قبلها. يريد والله أعلم أن ما قبلها يدله على تحرير لفظها بما تدعو إليه المناسبة.[28]" اهـ

ويعتبر أشهر وأول من أفرد هذا اللون بالتصنيف التام الكامل الإمام البقاعي[29]، وذلك في عمله الكبير: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، قام فيه بذكر مقصد السورة، والتناسب بين الآيات وبين أواخر السور وما بعدها، والتناسب بين السور نفسها. إلا أن الواقع يقول أن أول من كتب في ذلك هو الإمام أبو الحسن الحرالي[30]، الذي نشر

[28] عبدالحميد محمود غانم، مقال من مجلة البيان العدد 202، يوليو/أغسطس 2004، بعنوان: علم المناسبات القرآنية: موضوعه –تطوره– مكانته.

[29] هو أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط –بضم الراء وتخفيف الباء– بن علي بن أبي بكر البقاعي، المولود سنة 809 من الهجرة في سهل البقاع في لبنان اليوم، وكانت البقاع من سورية يوم ولد بها رحمه الله. وقد سكن دمشق، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها عام 885هـ

[30] نعرف بهذا العالم الذي لم ينل نصيبا من الشهرة، على الرغم من عظمة فكره: هو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبي المراكشي، الأندلسي المرسي الحرالي (نسبة إلى حرالة قرية قرب مرسية). عاش في أيام الدولة الموحدية، وولد في مراكش، وبها نشأ ودرس على جماعة من العلماء. وكانت مراكش آنذاك العاصمة العلمية للغرب الإسلامي كله. لقي جملة من الفضلاء شرقا وغربا؛ إذ خرج إلى الأندلس وأخذ بها عن ابن خروف وابن القطان وابن الكتاني. وحج، فأخذ عن أبي عبد الله محمد بن عمر القرطبي، إمام الحرم الشريف قوانين فهم القرآن. ثم دخل مصر فأقام ببلبيس مدة، ثم سكن طرابلس، وانتهى به المطاف بمدينة حماة ببلاد الشام حيث وافته المنية عام 638 هـ/ 1241. وقد عرف الإمام الحرالي بالورع والزهد والصلاح، كان صوفيا له حزب من تأليفه يلازمه بعد صلاة الصبح، ولم يتخل عنه حتى أثناء مرضه الذي مات به. كان بارعا في الكلام والمنطق والطبيعيات والإلهيات وأصول الدين أصول الفقه وعلم التفسير، وأما علم العربية لغة وأدبا ونحوا فقد كان كما قال الغبريني: متقدما فيه. وكان –كما قيل– من العجائب في جودة الذهن واستخراج الحقائق. من مؤلفاته: أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، شرح الشفا للقاضي عياض، شرح الموطأ وغيره. ونشر له أخيرا الأستاذ محمادي بن عبد السلام الخياطي تراثه في التفسير، المتضمن لأربعة أعمال: أ. مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل، ب. عروة المفتاح، ج. التوشية والتوفية للمفتاح (وهي عبارة عن ثلاث رسائل في التنظير لفهم القرآن، لا تتجاوز جميعها مائة وعشرين صفحة)، د. نصوص من تفسير الحرالي

هذا في كتبه، وأهمها تفسيره: فتح الباب المقفل في فهم الكتاب المنزل، والذي يكثر الإمام البقاعي النقل عنه، فلقد نقل عنه الإمام البقاعي مئات المواضع في كتابه المذكور، وأحيانا ما كان ينقل عنه أكثر من مرة في الآية الواحدة.

واتهم بعض العلماء الإمام البقاعي بالتكلف في إيجاد المناسبات بين الآيات، إلا أن المشكلة الكبرى التي تقابلك وأنت تقرأ كتابه نظم الدرر هي الاستطراد الكبير، الذي قد ينسيك التواصل بين الآيات نفسها.

ونقدم للقارئ الكريم نموذجا مما كتبه عند تناوله بعض آيات في سورة الفاتحة: "فلما استجمع الأمر استحقاقاً وتحبيباً وترغيباً وترهيباً كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه وقصر الهمم عليه، فقال عادلاً عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب لهذا مقدماً للوسيلة على طلب الحاجة لأنه أجد بالإجابة (إياك) أي: يا من هذه الصفات صفاته (نعبد) كما قال الحالي: تبلغ الغاية في أنحاء التذلل، وأعقبه بقوله مكرراً للضمير حثاً على المبالغة في طلب العون (وإياك نستعين) إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته وإلى أن ملاك الهداية بيدة: فانظر كيف ابتدأ سبحانه بالذات، ثم دل عليه بالأفعال، ثم رقي إلى الصفات، ثم رجع إلى الذات إيماء إلى أنه أول وآخر المحيط، فلما حصل الوصول إلى شعبة من علم الفعال والصفات علم الاستحقاق للأفراد بالعبادة فعلم العجز عن الوفاء بالحق فطلب الإعانة، النسائي وهذا لفظة في التعوذ عن عائشة رضى الله عنها: (أعوذ بعفوك من عقوبتك، وبرضاك من سخطك، وبك منك) ثم أتبعه فيما زاد عن النسائي الاعتراف بالعجز في قوله: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وفي آخر سورة اقرأ شرح بديع لهذا الحديث. (!!) قال الحرالي: وهذه الآيات أى هذه وما بعدها مما جاء كلام الله فيه جارياً على لسان خلقه فإن القرآن كله كلام الله، لكن ما هو كلام الله عن نفسه ومنه ما هو كلام الله عما كان يجب أن ينطبق على اختلاف ألسنتهم وأحوالهم وترقي درجاتهم ورتب تفاضلهم مما لايمكن البلوغ

المفقود من الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٦٢﴾﴾ [سورة آل عمران ,٦٢]، وهي نصوص جمعها الأستاذ الخياطي من تفسير برهان الدين البقاعي "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".

إلى كنهه لقصورهم وعجزهم فتولى الله الوكيل على كل شيء الإنباء عنهم بما كان يجب عليهم مما لا يبلغ إليه وُخلقه وجعل تلاوتهم لما أنبأ به على ألسنتهم نازلاً لهم منزلة أن لو كان ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم في دينهم ودنياهم، ولذلك لا يستطيعوا شكر هذه النعمة إلا أن يتولى هو تعالى بما يلقنهم من كلامه، مما يكون أداء لحق فضله عليهم بذلك، وإذا كانوا لا يستطعون الإنباء عن أنفسهم بما يجب عليهم من حق ربهم فكيف بما يكون نبأ عن تحميد الله وتمجيده، فإذاً ليس لهم وصلة إلا تلاوة كلامه العلي بفهم كان أوبغير فهم، وتلك هي صلاتهم المقسمة التى عبر عنها فيما صح عنه علية الصلاة والسلام من قوله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين) ثم تلا هذه السورة؛ فجاءت الآيات الثلاث الأول بحمد الله تعالى نفسه، فإذا تلاها العبد قبل الله منه تلاوة عبده كلامه وجعاها منه حمداً وثناء وتمجيداَ، وجاءت هذه الآيات على لسان خلقه فكان ظاهرها التزام عُهَد العبادة وهو ما يرجع إلى العبد وعمادها طلب المعونة من الله سبحانه وهو ما يرجع الحق، فكانت بينه وبين عبده وتقدمت ببيّنته تعالى، لأن المعونة متقدمة على العبادة وواقعة بها وهو مجاب فيما طلب من المعونة، فمن كانت عليه مؤنة شيء فاستعان الله فيها لا على مقتضى هذه الآية جاءته المعونة على قدر مؤنته، فلا يقع لمن اعتمد مقتضى هذه الآية عجز عن مرام أبداً وإنما يقع العجز ببخس الحظ من الله تعالى والجهل بمقتضى ما أحكمته هذه الآية والغفلة عن النعمة بها، وفي قوله: (نعبد) بنون الاستتباع إشعار بأن الصلاة بنيت على الاجتماع. انتهى. وفي الآية ندب إلى اعتقاد العجز واستشعار الافتقار والاعتصام بحوله وقوته، فاقتضى ذلك توجيه الرغبات إليه بالسؤال، فقال: (اهدنا الصراط المستقيم) تلقيناً لأهل لطفه وتنبيهاً على محل السلوك الذي لا وصول بدونه، والهدى. قال الحرالي: مرجع الضال إلى ما ضل عنه، والصراط الطريق الخطر السلوك، والآية من كلام الله تعالى على لسان العُلّية من خلقه، وجاء مكملاً بكلمة (ال) لأنه الصراط الذي لا يضل بمهتديه لإحاطته ولشمول سريانه وفقاً لشمول معنى

الحمد في الوجود كله وهو الذي تشتت الآراء وتفرقت بالميل إلى واحد من جانبيه ...[31]." اهـ

وكما يرى القارئ الكريم فإن فيما كتبه الإمام كثير تطويل وتفريع ينسيك التناسب والاتصال، لخوضه في مسائل لا تتعلق بالمقام الأول بالمراد. والحديث عن تناسب لا يحتاج إلى هذا التطويل، فبالتطويل يستطيع الإنسان أن يقول ما يشاء ويربط أي جملتين ببعضهما، حتى ولو كانت الأولى شرقا والأخرى غربا!

لماذا أُهمل هذا اللون؟

على الرغم من أهمية هذا اللون إلا أننا نجد أن أكثر العلماء لم يعنو به بالقدر الكافي –ومن ثم كان من المنطقي ألا يُتجه إلى الخطوة التالية وهي التناول (التفسير) الموضوعي–، وذلك لظنهم أن هذا العلم هو من باب التكلفات أو الزيادات التي لا تُقدم أو تؤخر، فقد كان الأهم بالنسبة لهم هو تفسير الآيات، وتحديد معاني الكلمات.

ويعلل الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ سبب إهمال هذا اللون، فيقول: "ولعدم كثرة طرقه أسباب منها: أولا: فيه نوع من الجرأة على كتاب الله جل وعلا، ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلى أنّ السور ليس لها موضوعات، وإلى أنّ الآيات لا تناسب بينها، وهذا قال به قليلون وغُلطوا في ذلك، فموضوع السورة يحتاج إلى قراءة السورة عدة مرات وتدبر ذلك ومعرفة كلام العلماء في التفسير حتى نفهم هذه السورة، ما الموضوع الذي تدور عليه. السبب الثاني: أن كثيرين من أهل العلم لم يتناولوا التفسير إلا عبر مدرسة تفسير الآيات، ومدرسة تفسير الآيات منقسمة إلى مدرستين؛ مدرسة

---

[31] أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية: بيروت 1995، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي، المجلد الأول، ص16–18.

التفسير بالأثر ومدرسة التفسير بالاجتهاد، وكلها راجعة إلى تفسير الآية وتفسير الكلمات في الآيات، أما الربط بين الآيات فلم يكن من مدارس التفسير المعروفة، ما صار له ذكر ولا قوة عند أهل العلم بالتفسير. والسبب الثالث في عدم اشتهار هذا الموضوع: أن من تجرأ وكتب فيه من أهل العلم، وقال: إن للآيات تناسب وإن للسور موضوعات. رد عليه طائفة من العلماء وغلطوه بل ورموه بالقول على الله جل وعلا بلا علم، فهاب كثيرون أن يدخلوا هذا المضمار؛ لأجل براءة الذمة، ولأجل ألا يحملوا أنفسهم ما لا يطيقون، وهذا مقصد صائب. ولغير ذلك من الأسباب[32]." اهـ

وسبب الإهمال من أكثر العلماء هو ظنهم أنه ثمة سور للقرآن أنزلت مفرقة، ثم جمعت الآيات لاحقا ووضعت في سورة واحدة! لذا وجدنا أن هناك من يقول أنه لا تناسب بين الآيات، لأنها نزلت حسب الوقائع، ثم وضعت في المصحف حسب مراد الله، ولا يُشترط التناسب! وهذا قول متهافت مردود على صاحبه، فإذا كان لا يُشترط التناسب بين الآيات وليس لها دور بارز، فلماذا يحدد الله تعالى المكان التي توضع فيه؟ كان من المنطقي إذا أن يترك الأمر للرسول يرتب الآيات كما يرى! ولماذا تجمع في سورة واحدة؟!!

وكما قلنا في الآيات نقول في السور، فكما بيّنا سابقا أن القرآن كله سورة واحدة، وأن الله تعالى خاطب عباده بكتاب وليس بمقالات، يتضح أنه لا بد أن يكون هناك تناسب بين السور، فالسور لبعضها بعضا بمنزلة الآيات في السورة الواحدة، والسور داخل الكتاب بمنزلة الموضوعات المتصلات المرتبطة ببعضها.

أما القول بأن الله خاطب البشر بما اعتاد عليه العرب من أن يأتي كلامهم مقتضبا، غير متصل، أو أن كلام الله ليس مثل كلام البشر، فهذا كلام ترده العقول السليمة، فكلام الله يعلو على أي كلام وهو غاية في الكمال، وكيف يتصور الكمال والكلام غير متصل؟!

[32] من محاضرة مفرغة للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، بعنوان: مقاصد السور وأثر ذلك في فهم التفسير.

إن من أكبر المآخذ التي عيبت على الشعر أنه كلام منقطع، يقول الشاعر في البيت كلاما، ثم يأتي في البيت التالي له بكلام لا علاقة له به، وهكذا يتنقل في كل بيت من موضوع إلى آخر بلا رابط. ولو حمل البيت الواحد موضوعا مستقلا لكان الكلام في قمة البيان، ولكن يحمل البيت خبرا والتالي له فرعا، والمعقب لهما استدراكا، وهكذا بلا نظام محدد، اللهم إلا ما يطرأ على ذهن الشاعر سائرا على الوزن ملتزما القافية.

ونحن ننزه كلام الله عن أن يصير كلاما متناثرا، رصه الله تعالى رصا بدون حكمة، كما ننزه عن أن يكون قاصر العلم، ينزل آيات متقطعات، يعدل فيها إضافة وحذفا، تبعا لاعتراضات أفراد في جيل التلقي الأول.

التناول الموضوعي الشمولي

بعد أن بيّنا أن القرآن أنزل سورا، ورأينا أن القول بوجود التناسب بين الآيات هو حتمية لا فكاك عنها، فمن المتوقع أن يختلف شكل تناول السور، فإذا كان السادة المفسرون قد عزفوا عن النظر في موضوع السورة لقولهم بالنزول المتفرق لبعض السور —ولست أدري لم عزفوا عن باقي السور التي أنزلت كاملة!— فلزاما علينا نحن المؤمنين بوحدة النزول أن ننظر في الوحدة الموضوعية للسورة.

ونظرنا في الوحدة الموضوعية ليس من باب الترف الفكري أو من باب زيادة الإيمان أو التحصل على برد اليقين عند نظرنا في كتاب الله تعالى، وإنما هو للوصول إلى حل نهائي لأكبر مسألة تقابل المفسرين لكتاب الله تعالى، وهي تحديد معنى المفردة القرآنية.

فالناظر في كتب التفاسير يجد اختلافا كبيرا بين المفسرين في تحديد معنى المفردة الواحدة، فتجد كل واحد منهم يدلي بدلوه في المفردة، فيقول فيها المعنى الذي يعنّ

له ويرى أنه الأنسب! وهكذا تكثر الأقوال وتتراكم، ويحتار القارئ لكتب التفسير أي المعاني يختار، وأيها مراد الله عزوجل.

وطالما أننا نتعامل مع النص القرآني كجمل مستقلة لا رابط لها، أو حتى كجمل متصلة ولكنها تشكل في آخر المطاف لقطات لا رابط لها، فإننا لن نستطيع الجزم بمعنى محدد للمفردة القرآنية.

ونقدم للقارئ الكريم مثالا على ذلك، وهو تناول السادة المفسرين لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [سورة الفجر, ٣] في سورة الفجر، فنجد الإمام الفخر الرازي يقول عند تناوله له في تفسيره مفاتيح الغيب: "اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر وأكثروا فيه ..."، ثم يبدأ في عرض أقوالهم، –والتي اختصرنا بعضها!– فيقول: "أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، (...) والشفع هو يومان بعد يوم النحر، الوتر هو اليوم الثالث، (...) وثالثها: الوتر آدم شفع بزوجته، وفي رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر هو الله تعالى، ورابعها: الوتر ما كان وتراً من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعاً منها، (...) وخامسها: الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ... ۝٤٩﴾] سورة الذاريات, ٤٩[وقوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾]سورة النبإ, ٨[والوتر هو الله تعالى، (...) وسابعها: الشفع درجات الجنة وهي ثمانية، والوتر دركات النار وهي سبعة، وثامنها: الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم، حياة بلا موت، علم بلا جهل، قدرة بلا عجز، عز بلا ذل، وتاسعها: المراد بالشفع والوتر، نفس العدد فكأنه أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذي منّ الله به على العباد، (...)، وعاشرها: قال مقاتل: الشفع هو الأيام والليالي، والوتر هو اليوم الذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة، الحادي عشر: الشفع كل نبي له اسمان مثل محمد وأحمد والمسيح وعيسى ويونس وذي النون والوتر كل نبي له اسم واحد مثل آدم ونوح وإبراهيم. الثاني عشر: الشفع آدم وحواء والوتر مريم، الثالث عشر: الشفع العيون الإثنتا عشرة، التي فجرها الله تعالى لموسى

عليه السلام والوتر الآيات التسع التي أوتى موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ... ﴿١٠١﴾﴾] سورة الإسراء ,١٠١[، الرابع عشر: الشفع أيام عاد والوتر لياليهم لقوله تعالى: ﴿... سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ... ﴿٧﴾﴾] سورة الـحاقّـة ,٧[، الخامس عشر: الشفع البروج الإثنا عشر لقوله تعالى: ﴿... جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ... ﴿٦١﴾﴾] سورة الفرقان ,٦١[والوتر الكواكب السبعة، السادس عشر: الشفع الشهر الذي يتم ثلاثين يوماً، والوتر الشهر الذي يتم تسعة وعشرين يوماً، السابع عشر: الشفع الأعضاء والوتر القلب، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ... ﴿٤﴾﴾] سورة الأحزاب ,٤[، الثامن عشر: الشفع الشفتان والوتر اللسان قال تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾] سورة الـبلد ,٩[، التاسع عشر: الشفع السجدتان والوتر الركوع، العشرون: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة، واعلم أن الذي يدل عليه الظاهر أن الشفع والوتر أمران شريفان، أقسم الله تعالى بهما، وكل هذه الوجوه التي ذكرناها محتمل، والظاهر لا إشعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع من أهل التأويل حكم بأنه هو المراد، وإن لم يثبت فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع، ولقائل أن يقول أيضاً: إني أحمل الكلام على الكل، لأن الألف واللام في الشفع والوتر تفيد العموم" اهـ

فكما رأى القارئ فإن الإمام الفخر رحمه الله، على الرغم من دقة ترجيحاته، يتوقف في المعنى المراد ويقول أن كل قول محتمل، ولحيرته الشديدة يتقبل من يحمل الكلام على الكل، لأن الألف واللام تفيدان العموم!!

ونحن نرفض الأقوال العشرين التي ذكرها الإمام الفخر الرازي عن السادة المفسرين، ونحكم بخطأها كلها، ونطلب إلى القارئ الكريم أن يرجع لتناولنا لسورة الفجر لينظر ماذا قلنا في الآية والسورة. وسبب الاختلاف والحيرة في تحديد المراد في هذه الآية وشبيهاتها هو عدم النظر في موضوع السورة نظرة شمولية.

والشيخ الغزالي رحمه الله إن كان قد تكلم عن التقاط وتكوين "صورة شمسية" للسورة القرآنية، فإنه رحمه الله –كما رأينا من تناوله لسور القرآن في كتابه– كان يتكلم عن إيجاد ترابط وتناسق بين موضوعات السورة الواحدة!

وهذا التناول –مع احترامنا لمن قام به– لا يقدم أو يؤخر في المسألة التي نتناولها، وهي تحديد مدلول المفردة القرآنية، فإن المتناول لسور القرآن بتلك الطريقة لم يزد عن أن أوجد رباطا يربط بعض الآيات ببعضها تحت موضوع واحد، ينسجم مع باقي موضوعات السورة، وهذا لا يساهم في تحديد المدلول.

أما تناولنا نحن للسورة فهو تناول مختلف، فهو يؤمن بأن السورة تدور في فلك موضوع واحد أو على محور واحد، وعلى المتناول للسورة أن ينظر في السورة كلها، فيحدد العناصر المبثوثة في السورة، ثم يحدد الموضوع الجامع الذي يشتمل هذه العناصر، وهذا الموضوع هو الفلك الذي تدور فيه السورة، وقد يظهر هذا المحور للمتدبر المتفكر في آية من آيات السورة، أو مبثوثا كرباط جامع في السورة كلها. ونقرب للقارئ هيئة تناولنا للسورة، وكيف يؤدي هذا إلى الوصول إلى تحديد مدلول المفردة، فنقول: نفترض أن أمامنا صورة كبيرة جدا (القرآن)، تحمل رسما ما، وهذه الصورة مكونة من عدة صور صغيرة (السور)، وإذا دققنا النظر في كل صورة صغيرة وجدنا أنها كذلك مكونة من عدة رسومات صغيرة متصلة ببعضها (الآيات).

ونفترض أن صورة من هذه الصور الصغيرة انفصلت عن الصورة الأم الكبيرة، وسقطت على الأرض فتطاير منها بعض أجزائها واعوجت، ونحن نحاول أن نستنتج هذه المعوجات.

فأول ما سنفعله أن ننظر في هذه الصورة، أي رسم تقدم، فإذا لاحظنا أن الرسم الموجود في هذه الصورة هو عن منظر طبيعي في السماء (القمر والنجوم مثلا)، فمن المنتظر أن تكون باقي أجزاء الصورة متعلقة بالسماء أو ما يتناسب مع هذه الصورة. فإذا كان بعض الأجزاء المعوجة من أول الصورة، فمن المنطقي أن ننظر في نهاية

الصورة السابقة لها في الصورة الأم[33]، لأنهما كوّنا مع بعضهما مشهدا متصلاا في الصورة الأم، لأنه من المنطقي جدا أن يَكون هذا المشهد متناسبا مع المشهد السابق لها، وهذا ما يساعدنا كثيرا في تحديد شكل الأجزاء المعوجة (المفردات المختلف في مدلولاتها)، وإعادة رسمها على هذا الأساس، وإذا كان الجزء المعوج في آخر الصورة، فمن المنطقي أيضا أن أنظر في أول الصورة التالية حتى أحدد المشهد المعروض فيها.

وإذا كانت المعوجات في وسط الصورة فإنا ننظر في العنصر الذي اشتمل هذا الجزء المعوج، ونحدده تبعا للعنصر في داخل الموضوع.

وبنفس الطريقة نتعامل مع القرآن، فننظر في السورة مستخلصين موضوعا عاما لها، وهذا الاستخلاص قد يحتاج عميق نظر وتدبر من الناظر حتى يجد الرباط الجامع لمواضيع السورة، إذا كانت تحتوي عناصر عدة، قد لا يكون الجامع لها ظاهرا، وقد لا يحتاج لكون عناصر السورة المختلفة مما يسهل جمعهم في رباط واحد، ويساعد الناظر المتدبر النظر في موضوع السورة السابقة واللاحقة فإنه مما يساعد على إبراز موضوع السورة المعالجَة.

وأصعب ما في هذا التناول هو إنهاء أول سورة، فإذا استطاع المتناول الوصول إلى ذلك سهل عليه تناول ما بعدها، لوجود سابق لها، وهكذا كلما أنجز سورة سهلت ما بعدها، حتى يصل إلى إنهاء عدد من السور تقدم له تصورا عاما عن الجزء (بالمعنى المعروف، المكون من ثمانية أرباع) الذي يتناوله.

وكلما ازداد تناول الإنسان وضحت صورة الجزء أكثر، مما قد يساعد المتناول على تحديد المراد من كلمة كان قد احتار في مدلولها، ولم يسعفه موضوع السورة أو السورة السابقة في ترجيح معنى منهما[34].

(33) ساعدنا هذا الأسلوب على تحديد معاني المفردات في أول عدد من السور في جزء عم، مثل سورة النازعات، والتي اختلف فيها المفسرون اختلافا كبيرا، فبالنظر في السورة وفي السورة السابقة توصلنا بحمد الله وعونه إلى تصور مشهد يناسب باقي أجزاء السورة.

(34) سينحصر التأرجح بين مدلولين محتملين فقط، وليس كثير من المدلولات التي لا ضابط لإيرادها!

و"السياق" وإن كان من المرجحات للمعاني عند أكثر الأقدمين، فلسنا نحن أول من جعل "السياق" من المرجحات، إلا أننا ولله الحمد والمنة أول من وسّع معنى السياق، وجعله شاملا السورة كلها والسورة اللاحقة لها، والجزء الذي ذكرت فيه السورة.

ونذكر للقارئ الكريم في عجالة نموذجا لترجيح مدلول لكلمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [سورة النبإ, ٢]

الناظر في أقوال المفسرين يرى أنهم قد اختلفوا في المراد من النبأ العظيم على ثلاثة أقوال؛ فهو إما القرآن الكريم، وإما يوم الفصل، وإما نبوة الرسول الكريم.

وكنت أميل إلى ما رجحه كثير من المفسرين أن المراد منه القرآن الكريم، -لأسباب كثيرة، لا يتسع المقام لذكرها- ثم لما نظرت في السورة بأكملها وجدت أنها تدور في فلك يوم الفصل، وكذلك السورة السابقة لها (سورة المرسلات)، كما أن الدليل المذكور في السورة (دليل العناية) من أول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [سورة النبإ, ٦]، إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [سورة النبإ, ١٦]، هو أنسب بالدرجة الأولى للفصل من أي مدلول آخر.

وننبه فنقول: نحن وإن كنا نقول أن السورة القرآنية تناقش موضوعا واحدا، فإنا هذا لا يعني أن الموضوع يتكون من عنصر واحد، فلنتذكر عندما كنا مكتب مواضيع الإنشاء في المرحلة الإبتدائية، كان مدرسونا يطلبون إلينا تحديد عناصر للموضوع، ثم الكتابة تحت هذه العناصر، وأحيانا ما كانوا يقدمون لنا هذه العناصر، ويلزموننا بالكتابة تحتها.

وكذلك الحال في سور القرآن، فإنها تناقش موضوعا واحدا، مشتملا عدد من العناصر، وعندما يبدأ الحديث تحت عنصر جديد فلا يُتصور حدوث اتصال أو تناسب مباشر بين الآية والآية السابقة لها، المندرجة تحت عنصر آخر، -بخلاف الآيات التي تندرج تحت عنصر واحد، فيظهر الاتصال والترابط بينها-، وإنما يُتصور

وجود علاقة وتناسب بين الآية والآيات السابقة لها كلها والمكونة للعنصر السابق لها أو للعناصر السابقة لها.

لذلك فإنا نسلم نحن أيضا بأن من يبحث عن إيجاد علاقة مباشرة وتناسب واتصال ظاهرين بين كل آية وتاليتها منفصلة عن عنصرها وموضوعها –إذا كانت السورة مكونة من عناصر عدة وليست من عنصر واحد– هو إنسان متكلف، لأن المطلوب هو إيجاد التواصل بين العناصر في الموضوع الواحد، وليس بين أجزاء العناصر المختلفة.

ولقد تكلم الإمام الزركشي حول وجود أنواع للعلاقات بين الآيات، فقال: "أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض: عدنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أو لا: القسم الأول: أن تكون معطوفة ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ... ﴿٢﴾﴾] سورة سبإ ,٢[، وقوله: ﴿... وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾] سورة البقرة ,٢٤٥[، وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين. وقد تكون العلاقة بينهما المضادة وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي. (...) القسم الثاني: ألا تكون معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام وهى قرائن معنوية مؤذنة بالربط والأول مزج لفظي وهذا مزج معنوي تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني؛ وله أسباب: أحدها: التنظير فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ

بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٥﴾] سورة الأنفال ,٥[عقب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾] سورة الأنفال ,٤[فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون، وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوه، فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفل، فأنزل الله هذه الآية وأنفذ أمره بها، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما"[35] اهـ

وختاما نقول: إن الحديث عن وجود علاقات بين الآيات ليس من التقول على الله في شيء، وإنما هو اجتهاد من المتدبر، فإما أن يكون له أجران أو أجر! وليس هو من الخوض فيما لا نفع فيه، فهو الخوض في الضروريات اللازمة، حتى نستطيع أن نستخرج معان مقصودة لكلام الله تعالى، وبدونه سنظل ندور في دوائر مفرغة عند تناولنا لكثير من آي الذكر الحكيم، لأن كل كلمة تحتمل مدلولات عديدة، والمرجح لهذا السياق العام، وهم عنه معرضون، فكيف نتفق؟!

[35] بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة: لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص.40-47.

الباب الثاني

النموذج

لماذا جزء عمَّ؟

لماذا اخترنا جزء عم تحديدا، كنموذج مصدق لما نقول به؟ يرجع هذا الاختيار إلى أسباب عدة:

أولها: أن هذا الجزء مثّل تحديا شخصيا لي، وكنا قد أعلنا في كتابنا الأول: لماذا فسروا القرآن[36]، أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، وأنه كتاب مبين يحتاج إلى تدبر. فقلت لنفسي: إن جزء عم أكثر جزء أُشكل على السادة المفسرين، فرأينا فيه تخبطا شديدا وحيرة في تقديم الصور التي تقدمها السور. فبدأت بتناول السور التي استشكلت على المفسرين مثل العاديات والنازعات والانشقاق، على حذر وأمل أن يفتح الله عزوجل لنا فيها، ونتجاوز ما وقعوا فيه، ولله الحمد والمنة قدمنا فيها أقوالا جديدة، وهكذا واصلنا المسير في تناول هذه السور القصار المبنى، الهائلة المحتوى والعظيمة المعنى، فقدمنا –استنادا إلى التناول الشمولي– أوجها جديدة في فهم بعض هذه السور[37]، كما فتح الله عزوجل لنا أوجها عديدة في الترابط والتناسب بين هذه السور، نقدمها للقارئ الكريم.

ثانيها: أن جزء عم هو ملخص القرآن ويشتمل خاتمته –كما قلنا سابقا–، فإذا أثبتنا اتصال وتناسب الملخِص كان ذلك دليلا على اتصال الملخَص.

ثالثها: أن جزء عم هو أكبر أجزاء القرآن في جميع الجوانب، فهو أطول الأجزاء، كما أن سور هذا الجزء تكاد تقارب ثلث عدد سور القرآن، فجزء عم يتكون من سبع وثلاثين سورة، فإذا أثبتنا اتصال وتناسب هذا العدد نكون قد قدمنا نماذج على اتصال

---

[36] يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على كتابنا المذكور على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar وفي الكتاب نقد لمناهج المفسرين، وإثبات أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير.

[37] الحق يقال أني شعرت بالرعب الشديد عند تناولي لبعض الصور التي تقدمها سور هذا الجزء، وذلك عندما ظهر لي المراد من المشاهد المقدمة، وتذكرت ما كنا قد درسناه قديما من أن السور القصيرة عملت على تثبيت الإيمانيات والترغيب والترهيب، وكنت أقرأ السور فلا أجد فيها هذا التخويف الشديد، ولكن لما تدبرتها وجدتها تحتوي تهديدا عظيما جدا ليس بالهزل، تهديد بالاستئصال وتعريف بالصرامة، فالوعيد واقع عند تحقق شروطه.

ثلث السور وبقي الثلثان، بخلاف أي جزء آخر والذي لا يقارب هذا العدد أو هذه النسبة بحال.

رابعها: أن جزء عم يتخذ مطعنا لكثير من الطاعنين، وذلك لقصر سوره ولعدم وضوح تصورات بعضها واتصال آياتها لكثير من المتناولين، بخلاف السور الكبيرة التي يظهر فيها اتصال الآيات داخل مواضيع مختلفة، فيتساءل: أين الإعجاز في هذه السور، وما الدليل على كونها من عند الله، وما الذي يمنع أن آتي بمثلها؟ وقدم بعضهم بالفعل بعض النصوص التي تقلد بعض سور قصيرة! (ونطلب إلى القارئ أن يتذكر فهمنا لآيات المطالبة بالإتيان بسورة أو سور) فتناولنا هذه السور، وبيّنا الصور والمشاهد العظيمة والاستدلالات القويمة المذكورة فيها، والتي تخرس ألسنة المخالف، وتثبت استحالة كون هذا القرآن من عند محمد أو أي بشر آخر.

خامسها: أن هذا الجزء هو الجزء الأول الذي يبدأ به النشأ التعرف على الكتاب العزيز، ويقرأ الطفل ولا يفهم ماذا تعني هذه الآيات، فيعي (يحفظ) كثيرا منها كما هي، ومن ثم يترسخ عنده الاقتناع بأن هذا الكتاب كتاب عسير، فهو لا يفهم معاني الكلمات، وإذا قدمت له فهو لا يفهم ماذا تقول السورة، فإذا عملنا على غرس معاني هذا الجزء –الذي هو ملخص القرآن– في نفس الطفل منذ صغره، وعرفناه بالصور المقدمة فيه، فسيرسخ لديه عظمة القرآن وعلوه، كما سيؤثر ذلك في إيمانه تأثيرا عظيما، وسيجد أن كل ما سيقابله بعد ذلك، مقارنة بهذا الجزء، سهل يسير.

سادسها: البرهنة على بيان القرآن، لو فهمناه بالقرآن وتدبرناه حق التدبر، وجنبنا قليلا عقولنا وأفهامنا المغلوطة. وإذا كان الله عزوجل قد التزم نهجا معينا في جزء كامل من كتابه (يحتوي ثلث سور القرآن) فلزاما أن يكون هذا النهج في باقي الكتاب.

وندعو الله أن يطيل العمر ويفتح لنا من أبواب علمه وكرمه، حتى يتسنى لنا خدمة كتابه وإظهار ما فيه من التناسق والتناسب. كما ندعو الأخوة إلى النظر في سور القرآن من

أجل استكشاف موضوعها، والذي سيساعدهم على القضاء على كثير من مواطن الخلاف.

محاور الجزء

قبل أن نبدأ في تناول الجزء، نقدم للقارئ الكريم المحاور التي دارت عليها سور هذا الجزء، جملة واحدة، حتى يخبر بنفسه التناسب والتناسق بينها، لأن الاسترسال في قراءة التناول والترجيحات الدلالية والاتفاق بين البدايات والخواتيم، التي سنذكرها ربما يشغله عن الانتباه لهذا التناسب، فنعرضه هنا قبل البدء في تناول السور:

– تدور سورة النبأ في فلك مسألة واحدة وهي الرد على المختلفين حول وقوع الوعد والوعيد الرباني في يوم الفصل.

– تدور سورة النازعات في فلك عنصر واحد وهو الإنذار بإنزال العذاب.

– تدور سورة عبس في فلك المنذِر والمنذَر. فهي توضح دور المنذِر، وحال المنذَر العجيب قبالة هذا الإنذار.

– تدور سورة التكوير في فلك المنذَر والمنذِر (الرسول والكتاب)، فهي تعرف المنذَر بحاله في يوم الفصل، كما تعرف بالمنذِر ودوره (الرسول والكتاب).

– تدور سورة الانفطار في فلك انكشاف غفلة واغترار المنذَر في يوم الدين.

– تدور سورة المطففين في فلك نزول الجزاء الموعود في السور السابقة بالمنذَر.

– تدور سورة الانشقاق في فلك قدرة الله على إعادة الإنسان في اليوم الآخر لمجازاته.

– تدور سورة البروج في فلك انتصار الله عزوجل لدينه ولعباده في الدنيا والآخرة.

– تدور سورة الطارق في فلك حفظ الله التام للبشر، ولكل ما يصدر عنهم.

– تدور سورة الأعلى في فلك أهمية ذكر الله عزوجل وربط الإنسان قلبه به.

– تدور سورة الغاشية في فلك رفع الغشو بالتذكير!

– تدور سورة الفجر في فلك إثبات أنه سبحانه وتعالى لبالمرصاد.

– تدور سورة البلد في فلك حث الإنسان على التحصل على مصدر الفلاح والقوة الحقيقة للإنسان.

– تدور سورة الشمس في فلك فلاح من اتبع سبيل الفلاح وخسارة المخالف.

– تدور سورة الليل في فلك رضى الإنسان المتزكي المتبع لسبل الفلاح وخسارة المتدسي.

– تدور سورة الضحى في فلك فلاح ورضى الرسول، واستمرار ذلك عليه في ماضيه ومستقبله.

– تدور سورة الشرح في فلك استكمال ذكر نعم الله عزوجل على الرسول، والأمر بما يقابلها.

– تدور سورة العلق في فلك القراءة كباب لفتح نعم الله على الإنسان والاقتراب منه.

– تدور سورة القدر في فلك عظمة وقت إنزال أكبر نعمة على الإنسان وفتح باب القرب الأكبر (القرآن).

– تدور سورة البينة في فلك حجية الرسول (النبي والكتاب)، الذي قسم الناس إلى مؤمنين وكافرين.

– تدور سورة الزلزلة في فلك بينة اليوم الآخر: (كتب الأعمال).

– تدور سورة العاديات في فلك كفران الإنسان لنعم الله تعالى، على الرغم من إقامة البينة عليه.

– تدور سورة القارعة في فلك الصيحة المعلنة بدء الجزاء.

– تدور سورة التكاثر في فلك إلتهاء الإنسان بنعم الله، وكيف أن هذه الغشاوة سترفع وسيعلم اليقين عند مجازاته.

– تدور سورة العصر في فلك انغماس الإنسان في الخسران بسبب التهائه.

– تدور سورة الهمزة في فلك ذكر مثال لخسران الإنسان، بتوعد من يحطم بالتحطيم.

– تدور سورة الفيل في فلك ذكر نموذج للتحطيم المذكور في سورة الهمزة.

– تدور سورة قريش في فلك تعليل ما فعله الله في سورة الفيل.

– تدور سورة الماعون في فلك علامات المكذب بالدين وتوعده.

– تدور سورة الكوثر في فلك شكر نعمة الله تعالى على القرآن والنصرة.

– تدور سورة الكافرون في فلك إعلان الاختلاف عن الكافرين وتميز الأديان.

– تدور سورة النصر في فلك نبوءة –تحققت– بالنصر.

– تدور سورة المسد في فلك هلاك كبار الكافرين المعاندين.

– تدور سورة الإخلاص في فلك التعريف بالله وتميزه عن كل الآلهة المزعومة.

– تدور سورة الفلق في فلك الاستعاذة بالرب من الانقسام والشقاق ونتائجه.

– تدور سورة الناس في فلك الاستعاذة بالرب من شر الوسواس الخناس.

ونُذكر هنا مجددا أن هذه هي المحاور أو الموضوعات الرئيسة لكل سورة، وهناك بداهة عناصر مندرجة تحت هذه الموضوعات أو المحاور، وسيلحظ القارئ بنفسه التناسب والتناسق بين العناصر داخل السورة والسور التالية.

طريقة التناول

قبل أن نبدأ في تناولنا لهذه السور نُعرف القارئ الكريم بالمنهج الذي نتبعه في تناول هذه السور، فنقول:

ننطلق في تناولنا لكتاب الله تعالى عامة من قناعتنا التامة بدقة اختيار اللفظ القرآني، لاختياره من لدن حكيم عليم، ومن ثم فإن اللفظ الموجود في النص هو المراد وليس أي شيء آخر، فلا نجعل الفاعل مفعولا ولا المفعول فاعلا، ولا نحذف موجودا أو نقدر محذوفا، وإنما نلتزم النص قدر الإمكان.

ونحن نقول "قدر الإمكان" لا لأننا نتعمد الحياد عنه أحيانا، ولكن لأننا غالبا ما نقرأ النص القرآني بالفهم التراثي الذي لُقناه، وقد لا نلحظ أن النص مخالف لما في أذهاننا، ولهذا قد نحيد عنه أحيانا.

ونحن لا نسمي ما نقوم به تفسيرا، لأن كتاب الله لا يحتاج إلى تفسير، ولا نسميه تأويلا، لأن التأويل يكون بالتطبيق وبالمقابلة مع الواقع، وهذا ما لا نقوم به، وإن كل ما نقوم به هو تدبرات ونظرات وخواطر حول آي الذكر الحكيم، فإن أصابت هذه الخواطر كان هذا بفضل الله، وإن أخطأت فلا يعني هذا خطأ الكتاب، وإنما يعني قصر نظرنا وقلة تدبرنا.

ولأن تركيزنا في هذا الكتاب هو بالدرجة الأولى على اتصال الآيات والسور وارتباط الموضوعات، فإن هذا سيكون العنصر الرئيس للموضوعات، وهو ما سنبدأ به، فسنبدأ

أولا بعرض الفلك الذي تدور فيه السورة بمنظور عام للسورة، ثم اتصال السورة بسابقتها، ثم تناولنا للآيات.

ولأن أقوالنا في الآيات والمفردات قد تخالف ما يقول به عامة المفسرين، فلزام علينا أن نبيّن للقارئ الكريم إلى ما استندنا في قولنا هذا، ولماذا خالفنا القول المشهور.

ولأن هذه الترجيحات الدلالية تأخذ حيزا كبيرا، وستقضي لا محالة على اتصال الموضوع والآيات عند القارئ بغوصه في هذه الترجيحات، رأينا أن نضع ترجيحاتنا الدلالية، ونقدنا لأقوال المفسرين في هوامش الكتاب، حتى يتسنى للقارئ الكريم قراءة السورة كاملة، وأخذ تصور شامل عنه لا يداخله أي دخيل بشأن آخر(38).

ونحن نطلب إلى القارئ الكريم أن يقرأ السورة كاملة أولا ليعرف ما نقول فيها، ثم يلتفت بعد ذلك إلى الهوامش المتعلقة بالسورة، فيقرأها على تؤدة ويتفكر فيها، ويوازن بينها وبين ما قاله عامة المفسرين في هذا الشأن، ثم يرجح بعد ذلك أي القولين شاء.

ونبدأ بسم الله وعليه الاتكال.

(38) تناولنا عامة سور هذا الجزء على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar تناولا موسعا، أكبر من التناول الموجود بالكتاب، ولكن التناول هناك تناول متداخل، تتداخل فيه ترجيحات المعاني مع ترابط الآيات، كما أن فيه زيادات غير مذكورة في الكتاب، إلا أن خلاصة المذكور موجود في الكتاب، كما أن هنا تناول لبعض سور لم نتناولها في الموقع، والزائد هو زيادة تأكيد لما ذكرناه في الكتاب وبعض اللمسات البلاغية.

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة عم في فلك مسألة واحدة؛ وهي: وقوع الوعد والوعيد الرباني في يوم الفصل.

فتبدأ بالحديث عن تساءل غير المؤمنين عن اليوم الآخر، وكيف أنه باطل، ثم تقدم أدلة طبيعية على وقوعه، ثم تعرض بعض صور هذا اليوم، ثم تختم بالإنذار بوقوع العذاب.

واتصال سورة النبأ بالمرسلات واضح جلي، فسورة المرسلات تناولت يوم الفصل من باب الرد على المكذبين وتوعدهم، وتكمل سورة النبأ هذا التناول، فتعرض لهذا اليوم من من زاوية نقاش المختلفين في هذا اليوم، فكأن القرآن ناقش في المرسلات حجج المكذبين ثم انتقل إلى من هم أقل درجة، وهم المختلفون الشاكون، فيفند حججهم ويعلم الجميع أن يوم الفصل هو ميقات وقوع الموعود.

انتهت سورة المرسلات بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [سورة المرسلات, ٥٠]، والذي يقول لهم إن لم تؤمنوا بالقرآن فلن تؤمنوا بغيره، وتبدأ سورة النبأ بقوله تعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ[39] ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾

[39] اختلف السادة المفسرون في المراد من النبأ العظيم على ثلاثة أقوال، فقالوا يحتمل أن يكون اليوم الآخر، ويحتمل أن يكون القرآن العزيز ويحتمل أن يكون نبوة الرسول الكريم. وأن تكون نبوة محمد "نبأ" بالنسبة للمعاصرين له أمر غير ممكن، لأنه واقع مشاهد لهم، فهو ليس بنبأ بحال، فلا يبقى محتملا إلا القرآن واليوم الآخر، وعلى الرغم من أنه يعد أن يطلق على القرآن العظيم كاملا، بما يحتويه من أطياف مختلفة "نبأ"، فإن المحتم الأول لكون النبأ العظيم هو اليوم الآخر هو السياق، سياق السورة والسورة الماضية والسور اللاحقة، فسورة المرسلات كان محورها الرئيس يوم الفصل، وهو نفس محور النبأ ولكن من زوايا مغايرة، وهو المحور النهائي لسورة النازعات، ويتكرر الحديث عنه في باقي سور الجزء باطراد حتى سورة الشمس. فلا يعقل أن يبدأ الحديث عن أمر، ثم تسبح السورة كلها في فلك موضوع آخر.

فتبدأ بعرض تساؤل غير المسلمين عن النبأ العظيم، وهو يوم الفصل، واختلاف الناس في هذا النبأ عظيم ومعروف، فمن منكر لوقوعه إنكارا تاما، ومن ظان شاك، ومن قائل ببعث الأرواح دون الأبدان، وأن النعيم والعقاب روحيان، ومن قائل بوجود شفعاء دون الله، سيدخلونهم الجنة ويرفعون عنهم العذاب! فيرد الله عزوجل بقوله:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

موضحا أن هذا الخلاف مرفوع مردود، وسيعلم المختلفون حقيقة وصدق هذا النبأ، وسيتكرر هذا العلم مرة أخرى، فسيعلمون في الدنيا من خلال القرآن وبالأدلة الكثيرات المنصوبة على وقوع هذا اليوم، وسيعلمون في الآخرة علم المشاهدة. ويبدأ الله عزوجل بعرض أدلة كونية مشاهَدة على وقوع هذا اليوم:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا[40] ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

ويظهر في الآيات جلياً دليل العناية والغائية في الكون. فلم يخلق الله كل هذا الكون ويسخره للإنسان عبثا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [سورة ص, ٢٧]**، وإنما جعله مسرحا لاختبار الإنسان، فإما إلى الجزاء الحسن وإما إلى العذاب العدل! كما تعرض نماذج**

(40) جاء في لسان العرب لابن منظور: "الثَّجُّ: الصَّبُّ الكثيرُ، ... وسئل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الحج فقال: أَفضلُ الحجِّ العَجُّ والثَّجُّ. سَيَلانُ دماء الهَدْيِ والأَضاحي. وفي حديث أُمِّ مَعْبَدٍ: فحَلَب فيه ثَجّاً أَي لبناً سائلاً كثيراً. والثَّجُّ: السَّيَلانُ."،اهـ ثجاج: صيغة مبالغة على "فعّال"، فلا يقبل بحال أن يكون معناه *مفعولا* . فليس المراد منه أنه مصبوبا بكثرة أو بشدة،(كما قال عامة المفسرين) وإنما المراد منه أنه هو نفسه يدفع دفعات متتالية، –لاحظ تكرار الجيم في الكلمة–، فيكون المراد منه الماء الذي يؤثر في تربة الأرض تأثيرا شديدا، فلما نظرت في لسان العرب، وجدت ابن منظور يقول: "وقال الأَزهري عقيب ترجمة ثوج: أَبو عبيد الثَّجَّةُ الأُقْنَةُ، وهي حُفْرَةٌ يحتفرها ماء المطر؛ وأَنشد: فَوَرَدَتْ صادِيَةً حِرَارا، ثَجَّاتِ ماءٍ حُفِرَتْ أُوَارا، أَوْقاتَ أُقْنٍ، تَعْتَلي الغِمارا وقال شمر: الثَّجَّةُ، بفتح الثاء وتشديد الجيم، الروضة التي حَفَرَت الحياضَ، وجمعُها ثَجَّاتٌ؛ سميت بذلك لثَجِّها الماءَ فيها."، فعلمت أن الفهم الذي أقول به موجود في اللسان العربي وليس بدعا من الفهم.

لعملية الإحياء والإماتة (نوم الإنسان واستيقاظه مرة أخرى، وإخراج الحي من الميت في النبات)، يراها الإنسان بعينه، رادا على من يشك في البعث.

أفلا يدل هذا النظام المعد مسبقا على غاية منه، أم أن الأمر كله عبث في عبث؟! فإذا أصر الإنسان على رفض الغائية والتمسك بموقفه القائل بعبثية الكون، فسيأتيه العلم الأخير الذي لا ينفع معه أي جدال، وهو علم المشاهدة، عندما يشاهد ذلك في اليوم الآخر.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ... يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

ففي هذا اليوم يقع ما وُعده الناس في المرسلات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة المرسلات ,٧]، وفي النبأ، فانتظروا أيها الناس وقت حلوله! فسيكون هذا يوم ينفخ في الصور. ففي هذا اليوم العظيم، –الذي فُتحت قبله السماء فكانت أبوابا[41]، فلم تعد السماء السبع الشداد كما نراها في دنيانا، وسيرت كذلك الجبال الأوتاد فكانت سرابا– يحدث الفصل بين المؤمنين والمختلفين في النبأ العظيم.

ثم يبدأ الله عزوجل بعرض بعض مشاهد من اليوم الآخر –مقابلة للمشاهد الطبيعية التي استدل بها في أول السورة–، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

فهي موضع رصد لكل من في ذلك اليوم، فكما كانت الشمس السراج الوهاج في الدنيا أمام المؤمن والكافر، ويحاول كل منهم أن يتقي حرها وشرها، باحثا عن الظل والبرد، فكذلك ستكون جهنم يوم القيامة، يحاول الجميع أن يبتعد عنها، ويتمنون ألا

(41) ليس المراد من هذه الآية انشقاق السماء، –كما قال بعض المفسرين– فهما حدثان مختلفان، يحدث كل منهما في زمن مخصوص.

يدخلونها. –وتعتبر الشمس أكبر رد على من يشك أو يشكك في جهنم، فكما خلق الله الشمس سيخلق جهنم، فلا غرابة ولا عجب!– فهي في هذا اليوم مرجع للطاغين، فلن ينقلبوا إلا إليها، فهم مقيمون محبوسون فيها[42]، وإذا كان الناس يسبتون بالنوم في الدنيا من تعب الدنيا وطلب المعايش، فلا سبت في جهنم، وسيلبثون فيها مستيقظين يذوقون العذاب.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾

فهناك يلاقون العذاب الشديد. وبعد أن كان الماء نعمة للإنسان في الدنيا، ينزل فيخرج الزرع، أصبح في الآخرة عذاب فهو شديد الحرارة، ويُصب على الطاغين أنفسهم، بدلا من أن يصب على الأرض. وليس هذا ظلم من الله وإنما هو:

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ[43] حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا[44] ﴿٢٨﴾﴾

---

[42] اختلف المفسرون في المراد من الحقب، فقيل أن المراد منه ثمانون سنة، وقيل سنة وقيل ليس المراد منه فترة زمنية معينة وإنما المراد منه الفترة الطويلة أو الدوام. والمعنى الذي نأخذ به، هو أنه يدل على نطاق محيط بداخل فيه، ولذلك قال ابن فارس في المقاييس عن الحقب: "أصل واحد وهو يدل على الحبس ... ومن الباب الحقيبة، وهي معروفة.." اهـ،

ولذلك استُعمل مع الزمن، باعتباره محيط بالإنسان.

[43] نلاحظ أن الله عزوجل استعمل "الرجاء" مع هذا الصنف، والذي لم يكن من المكذبين كلية باليوم الآخر وإنما كان في شك منه وحيرة، ولأنه لم يرجح عنده رأي، كان لا يرجو حسابا!

[44] ليس "كِذابا" بمعنى "تكذيب"، كما زعم بعض المفسرين: "أي تكذيباً مفرطاً وفعال بمعنى تفعيل في مصدر فعل مطرد شائع في كلام فصحاء العرب *وعن الفراء أنه لغة يمانية فصيحة*(!!)" اهـ

فهذا الوزن "فِعّال" "وفُعّال" –كما في "كُبارا" في سورة نوح– من الأوزان غير المشتهرة عند العرب، لذا احتار المفسرون في فهمها، ثم فهموها –كعادتهم مع كل غير مألوف– على غير ما تقول. والله أعلم بمراده من الكلمة، ولكنا نجتهد في فهمها، فنقول: بما أن الله تعالى لم يقل: كذبوا بآياتنا تكذيبا –كما قال: فدمرناها تدميرا–، وإنما قال: "كذبوا كذابا" نفهم أن *الكذاب* ليس المراد منه تقوية المعنى الوارد في الفعل "كذّب"، وإنما هو تبيين لهيئة الكذب، وذلك كما تقول: "قتلته غرقا أو إغراقا"، وبما أن الكذب قد يأتي بمعنى الشيء غير المطابق لحقيقته، كما في قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ... ﴿١٨﴾﴾ [سورة يوسف ,١٨]، والتكذيب هو بمعنى اعتبار الآخر غير صادق، أفهم من الكلمة –وهذه احتمالية للفهم ليس أكثر– أن المراد أنهم كذبوا بآيات الله بالأقوال غير الصحيحة وبالشبهات وبالخداع والتلبيس على الأتباع، وليس أنهم فقط كذبوا تكذيبا شديدا، والله أعلم.

فهذا جزاء موافق لأعمالهم، لأنهم كانوا لا يرجون حسابا، ورضوا بالدنيا ولذا كذبوا بالآيات، على الرغم من عدم وجود أي مستند لهم في تكذيبهم إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى!

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾

فالأعمال تُحصى وتسجل في كتب، فلا تظلم نفس شيئا، فذوقوا العذاب على أعمالكم. وبعد أن عرض الله تعالى منقلب ومرجع الطاغين يعرض الصورة المقابلة، فيذكر مآل ومآب المتقين، فيقول:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾

فإذا كانت الأرض مهادا للمؤمنين وغيرهم، فإن محل الفوز في الآخرة لا يكون إلا للمتقين، فلهم المنظر الحسن والطعام المستلذ والرفيق المطهَر المستوي العمر، والشراب الفوار ذو الرغوة[45].

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ[46] فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾

---

[45] المشتهر في تفسير "دهاق" أنه بمعنى الممتلئ! ولكن هذا يعني أنه مفعول! وهي في الجملة فاعل! فإذا نحن نظرنا في اللسان، وجدنا ابن منظور يقول: "الدَّهْقُ: شدّة الضَّغْط. والدهْق أيضاً: مُتابعة الشدّ. ودَهَق الماءَ وأدْهَقه: أفْرَغه إفراغاً شديداً. ... فهو إذاً من الأَضداد. وأدهق الكأسَ: شدَّ ملأَها. وكأسٌ دِهاق: مُتْرعة ممتلئة ... والدَّهْدَقة: دَوَرانُ البِضَعِ الكثير في القِدر إذا غلت تراها تَعلُو مرَّة وتَسْفُل أخرى؛ ..." اهـ

فكما نرى فابن منظور يجعلها مرة بمعنى الافراغ ومرة بمعنى الملو، ثم قال أنها من الأضداد، أي أنها تأتي بالمعنيين، لذا قلنا أنها بمعنى الفوران، فهو كأس يفور ما فيه ويتحرك حتى ينزل من على حواف الكأس، وهذا ما لا يكون إلا مع ضغط.

[46] كانت مسألة *سماع* أهل الجنة من المسائل التي تشغلني! فكيف يكون لهم كل هذه اللذائذ ولا يكون هناك أي حديث عن *السماع* في القرآن؟! فمن المعلوم أن الأذن تشتهي سماع الصوت الجميل الملحن، فهل ليس له وجود في الجنة؟! إلى أن توقفت أثناء تناولي لهذه السورة مع قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥﴾ [سورة النبإ, ٣٥]، فلاحظت أن الله تعالى لم يقل في هذه الآية –ولا في كل آيات نفي السماع المشابهة–: لا *يقولون* لغوا ولا كذابا ولا تأثيما ...، وإنما يقول دوما: "لا يسمعون ..."، وإذا نُسب الفعل إلى كل أهل الجنة دل على أنهم كلهم في هذه الحالة سامعون، فهم في هذه الحالة لا يتكلمون أو يتساءلون –كما جاء في بعض الآيات– فيحدث رد الفعل البدهي وهو السماع، وإنما هم فقط: يسمعون! فإذا كان

فمآل المتقين غير منقلب الكافرين، فهؤلاء في جنات وعيون ونعيم مقيم، وهذا جزاء من الله وعطاء، وليس وفاقا، كما حدث مع الطاغين، وإنما هو عطاء من الله، ذلك الإله العظيم الذي أعد الكون كله وسخره للإنسان، ليؤدي رسالته.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ٣٨﴾

ففي ذلك اليوم لا يتكلم أحد ولا يشفع إلا بإذن الله "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه"، فالأمر كله في هذا اليوم لله! وإذا كانت الملائكة لا تتكلم إلا بالإذن فما بالنا بالبشر! لذا فعلى الإنسان أن يتخذ العدة لهذا اليوم الحق، الذي دلت عليه الأدلة الكثيرات، ويتخذ الموقف المناسب منه، حتى يجد المآب الحسن عند الله، ولا يتكل على الشفاعة، فلا تهاون في هذا اليوم، فهو يوم الحسرة والندامة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ٤٠﴾

فعلى الإنسان اتخاذ المآب حتى يكون من الفائزين، الذين عادوا إلى ربهم، بعد رحلة الدنيا الطويلة. ففي ذلك اليوم يرى كلٌ منا أعماله، ويتمنى الكافر أن لو كان ترابا فلم يُكلف ومن ثم فلا يُحاسب.

الله تعالى ينفي أنهم يسمعون صنوفا معينة من الكلام، فيفُهم منه أن هناك صنوفا أخرى تُسمع! وهذا الصنوف ليست مثل أشعارنا أو أغانينا في الدنيا، لذلك قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥﴾ [سورة الـنبإ ,٣٥]ومن المعلوم بداهة أن الجنة لن يوجد بها مكذبون! وحتى على فرض أن بعض سكان الجنة سيكْذِبون!!!!! كيف سيعرف المستمع أن محدثه كاذب؟! فإذا أراد الله سبحانه أن ينفي وجود الكذب في الجنة لقال مثلا—سبحانه له الخلق والأمر—: "ليس فيها كذبا!" ولكنا نجد أنه سبحانه يتحدث عن نفي سماع اللغو والكذاب! والإنسان يعرف اللغو عندما يسمعه، فكيف يعرف أن ما يقال له كِذّاب؟

نقول: إذا فهمنا الكِذاب —كما فهمناه سابقا— على أنه الأقوال غير الصحيحة، نستطيع بسهولة فهم المراد هنا من الكذب الذي يعرفه الإنسان. فالناظر يجد أن الكذب الذي يسمعه الناس ويعرفون أنه كذب هو الأغاني والأشعار والأقاصيص —تذكر ذم الشعراء في القرآن—، وعلى الرغم من ذلك يستمعون ويطربون، وذلك لأن هذا السماع يثير فيهم التخيل والحنين إلى ما يفتقدون! وهذا ما لن يكون في الجنة، فليس شيئا مفقودا أو ناقصا، فكل ما تشتهيه الأنفس موجود متاح، لذا سيسمع أهل الجنة ولكن لن يكون مسموعهم كِذابا وإنما حق، والله أعلم.

وكما رأينا فلقد عرضت سورة المرسلات ليوم الفصل، وذكرت بعض ما يحدث فيه، والخطاب الموجه إلى الكافرين، وجاءت سورة النبأ فعرضت الاختلاف حوله، ودللت على بطلان هذا الاختلاف. ثم قامت بعرض المستقر النهائي للفريقين، فأكملت صورة الموقف الذي عرضته المرسلات، فعرضت الموقف النهائي، كما فندت دعاوى بخصوص هيئة هذا اليوم، لم تعرض لها المرسلات، فنفت الشفاعة إلا بإذن الله، وردت على الروحانيين مبينة أن النعيم والعقاب ماديين، وختمت بالإنذار بالعذاب!

وكما خُتمت هذه السورة بالإنذار بالعذاب، تبدأ السورة التالية بمشهد نزول العذاب بالمكذبين في الدنيا، وهذا ما سنبينه بإذن الله مع السورة القادمة!

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة النازعات في فلك عنصر واحد وهو الإنذار بإنزال العذاب. فتبدأ بعرض مشهد إنزال العذاب بالمكذبين وحالهم عند نزوله، ثم تذكر سببه ونموذجا لوقوعه في الدنيا بفرعون، ثم توضح أن الإنسان مهما عظمت قوته هو أضعف من السماء والأرض، والتي هي وسيلة إهلاكه! ثم يكون الفصل في اليوم الآخر إما إلى عذاب أو نعيم، وهذا العذاب لا يعلم ميعاده إلا الله تعالى، فليس لأي أحد آخر به علم حتى ولو كان الرسول، فهو فقط منذر.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾

انتهت سورة النبأ بالإنذار بعذاب قريب، يقع في يوم الفصل، وتبدأ سورة النازعات بذكر عذاب آخر، كعادة القرآن بذكر الدليل الدنيوي المشاهد كتدليل على وقوع الغيب، فتبدأ سورة النازعات بعرض مشهد الملائكة عند إنزال العذاب بالأقوام

المكذبين، وهذا العذاب التي تنزله الملائكة ليس عذابا غير طبيعي، وإنما هو من الأرض، فالعذاب إما يكون بالماء الفائض أو بالريح العاصف أو بالصاعقة المدمرة، أو بالزلزلة والخسف، ولا تظهر الملائكة فيه، (بخلاف يوم الفصل الذي سنرى فيه الملائكة) وإنما يوقع كله بالطبيعة المحيطة[47].

فيعرض الله تعالى لنا مشهد نزع الأنفس وإنزال العذاب والاجتثاث عن طريق الملائكة النازعات، وصورة الملائكة الناشطات التي تنشط وتتحرك وتخرج لتنفذ، وكيف أن هناك ملائكة سابحات في الجو تُسبح الله وتطيعه وهي تسبق سبقا في تنفيذ الأمر الآتي لها من الله (هنا مثلا الإهلاك و قبض الأنفس بشكل من الأشكال يريده الرب القدير) فإذا أتته دبرته كما أراد الله تعالى! ويحدث كل هذا في:

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ[48] ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾

فقبض الأنفس ونزول العذاب يكون يوم ترجف الأرض أو الجبال أو الأشجار وكذلك النفس الكافرة العاصية، وتتبعها في الرجف الرادفة؛ أي الموجة الثانية والتالية من

---

(47) فصلنا في غير هذا الموضع على موقعنا الشخصي على الشبكة المعلوماتية، كيف قلنا –من خلال تحليلنا لمفردات مطلع السورة– أن هذا المشهد هو في إنزال العذاب بالأقوام المكذبين، فمن أراد التوسع فليرجع إليه:www.amrallah.com/ar

(48) الناظر في أقوال المفسرين بدأ من هذه الآية يجد أنهم قد *نزعوا*! هذه الآية عن سابقتها من الآيات فجعلوا هذه في واد وتلك في آخر! وذلك لظنهم أن يوم رجف الراجفة هو في اليوم الآخر، حيث أن الراجفة عندهم هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية التي تكون في الصور، فهل هذا ما تقوله الآيات؟

إذا قبلنا بقولهم هذا من أن المراد من الراجفة والرادفة هو النفخة الأولى و الثانية لا يستقيم للكلام أي معنى، لأنه يفترض على قولهم أن المشركين والكافرين يقولون في الآخرة: أئنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة ... إلخ، فهل يعقل أن يقول الكافرون أو العصاة هذا الكلام في اليوم الآخر؟ وعلى الاحتمالية الأخرى للكلام أن يقطعوا الكلام عن بعضه، فيصبح الكلام قد انتهى قبل ذلك ثم حدث استئناف جديد بدون أي عود للضمير المذكور، فيأتي الكلام هكذا عن غائب بدون أي ذكر مسبق له! أما نحن فنربط الكلام ببعضه فنقول أن الملائكة تفعل هذا الفعل يوم ترجف الراجفة.

والرجف يأتي مع البشر والشجر والأرض ويأتي بمعنى الزلزلة، وكل اضطراب هو رجف، وهنا لم يحدد الله تعالى الراجف وإنما قال: ترجف الراجفة، وهنا نسأل القارئ اللبيب: ما هو الذي يرجف ساعة نزول العذاب، فالسورة من أولها حتى الآن تدور حول هذه اللحظات؟ هل الأرض أم الريح أم الشجر أم البشر؟ بداهة الذي يرجف في هذه اللحظة هو كل ما ذكر، فعند نزول العذاب بالبشر والذي يظهر في شكل زلازل أو صيحة أو *براكين* أو ريح، تضطرب الأرض ويضطرب كل ما حول الإنسان بل إن النفوس عينها تضطرب اضطرابا عظيما وتبدأ في الرجف!

العذاب، والتي تقضي على من ينزل بهم العذاب! فيرتجف هؤلاء العصاة خوفا من الموت ومن الرحيل عن الدنيا ويحصل لهم اضطراب عظيم، ففي هذا اليوم:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ[49] ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾

ففي ذلك اليوم يكون القلب مضطربا خافقا خفقانا شديدا! وفي هذا الوقت تخشع أبصار القلوب ويذهب كِبرها، فلا يعد هناك أي مجال للمجادلات وللتنطعات الفكرية التي يصدع بها الملاحدة والمشركون أدمغتنا، بل يقرون بالحق إقرارا ويبدأون في التفكر في اليوم الآخر وهل هناك حساب وهل ما جاء به الأنبياء صحيح أم أنه بالموت سينقضي الأمر؟

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ[50] ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾

(49) هنا في هذه الآية تقابلنا أول كلمة يغيب معناها عن القارئ متوسط الثقافة وهي الوجف، فما هو الوجف؟ الوجف كما جاء في اللسان: "الوَجْفُ: سُرْعة السير. وجَفَ البعيرُ والفرس يَجِف وجْفاً ووجِيفاً: أَسْرعَ. والوجِيف: دون التقريب من السير. (...) وفي الحديث: ليس البِرُّ بالإيجاف. وفي حديث عليّ، كرم اللّه وجهه: وأَوجَفَ الذِّكْرَ بلسانه أَي حرَّكه، وأَوجفَه راكبُه. وحديث علي، عليه السلام: أَهونُ سيرِها فيه الوَجِيف؛ هو ضرب من السير سريع . و ناقة مِيجاف: كثيرة الوجيف. وراكب البعير يُوضِع وراكب الفرس يُوجِف. قال الأَزهري: الوجيف يصلح للبعير والفرس. ووَجَف الشيءُ إذا اضطرب. ووجَف القلب وجِيفاً: خَفَق، وقلب واجِف. وفي التنزيل العزيز: قلوبٌ يومئذ واجفة؛ قال الزجاج: شديدة الاضطراب؛ قال قتادة: وجفَت عما عاينت، وقال ابن الكلبي: خائفة." اهـ

(50) الحافرة اسم فاعل من الحفر، وهو في السورة متعلق بالرد، وهو شيء يشك فيه الكافر، وهو شيء يستعمل معه حرف الجر "في" فما هو هذا الشيء؟ لا يمكن أن يكون الأرض لأنها ليست حافرة وليست الدنيا لأنها ليست حافرة وليست حياتهم الأولى لأنها ليست حافرة. ومن قال من المفسرين أن المراد من الحافرة هي الحياة، استند إلى قول العرب: رجع على حافرته، أي الطريق الذي جاء منه. ولكن المقصود أنه اقتفى أثره، فلقد حفر وأثر في الأرض في أثناء قدومه، وفي عوده مشى على أثره، ومن هذا تسميتهم حافر الفرس لأنه يحفر الأرض. ونحن نرى والله أعلم أنه وصف لموقف في اليوم الآخر! فإذا كان من بعض أسماء أيام اليوم الآخر يوم القيامة والفصل والحشر ... إلخ الأسماء، فهنا أيضا سمي باسم هام من أسمائه وهو الحافرة، حيث تحفر الأرض فيخرج الناس: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [سورة القمر ,٧]، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [سورة المعارج ,٤٣]، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [سورة ق ,٤٤]، ففي اليوم الآخر تُحفر الأرض وتقلب ويخرج الناس، وأعتقد أن هذا الفهم أولى ممن قالوا أنه اسم من أسماء النار! وما يؤيد هذا الفهم حديث وجدته في لسان العرب عن سراقة وفيه: "قال: يا رسول الله، أرأيتَ أعمالنا التي نَعْمَلُ؟ أَمُؤَاخَذُونَ بها *عند الحافِرَةِ* خَيْرٌ فَخَيْرٌ أَو شَرٌّ فَشَرٌّ أَو شيء سبقت به المقادير وجَفَّت به الأَقلام؟"

ففي هذه اللحظة تكون المصراحة مع النفس، فيسألون: "أئنا لمردودون في الحافرة"، فأبصار الكافرين خاشعة يقولون: أئنا لمردودون في الحافرة؟ فهم يتساءلون ويفكرون فيما جاءت به الأديان كلها، فهل من الممكن فعلا أن نعود إلى الحياة مرة أخرى بعد موتتنا هذا، وبهذا يكون ما يقوله الأنبياء صواب وهناك ثواب وعقاب، أم أن الحياة تنتهي بالموت ولا شيء بعد ذلك؟! فإذا حدث هذا فإنها حتما كرة خاسرة، ليس بالنسبة لهم فقط وإنما بالنسبة لله تعالى، فكأنهم يتساءلون كما يفعل بعض ملاحدة هذه الأيام: ما الذي سيستفيده الله عندما يبعثنا ويحاسبنا، ولم يمتحننا أصلا؟ فكأن هذا البعث والإخراج من القبور مسألة إعادة خاسرة بالنسبة لله تعالى، فيرد الله عليهم بأن الأمر لن يكلف شيئا إلا زجرة من الملائكة:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[51]

[51] الساهرة مشتقة من السهر، والسادة اللغويون لم ينجحوا في إعطاء معنى دقيقا للسهر، لذا نجد ابن فارس يقول في المقاييس: "السين والهاء والراء معظم بابه الأرَق، وهو ذَهاب النوم. يقال سَهَرَ يَسْهَرُ سَهَراً. ويقال للأرض: السّاهرة، سمِّيت بذلك لأن عملها في النَّبت دائماً ليلاً ونهاراً. ولذلك يقال: "خَير المالِ عينٌ خَرّارة، في أرض خوَّارة، تَسْهَرُ إذا نِمتَ، وتشهَد إذا غِبْتَ". ..." اهـ

فإذا نحن نظرنا في باقي المعاجم مثل اللسان أو غيرها لا نجدها تخرج عن هذا المعنى، ولكنا نعود فنجدهم يوردون تحت هذا الأصل معان أخرى لا علاقة لها بالأرق، لذا فإنا نرى أنه من الأولى ومن الأدق أن يقال أن السهر هو بمعنى الدوام والسفلية والمطاوعة! قد يعجب القارئ ويسأل: من أين أتينا بهذا المعنى؟ فنقول: استخرجنا هذا المعنى من خلال النظر في المعنى الجامع للمدلولات المشتركة تحتها، وكذلك من خلال تقليبات الكلمة المحتملة، *فمن المعلوم أنه إذا استعصى تحديد معنى كلمة تقلب كل التقليبات الممكنة فيخرج معناها* من خلال هذه التقليبات. فإذا نحن قلبنا كلمة "سهر" وجدناها "رهس"، وهي كما جاءت في المقاييس: "الراء والهاء والسين أصلان: أحدهما الامتلاء والكثرة، والآخَر الوطء. فالأول قولهم: ارتهَسَ الوادي: امتلأ. وارتهَسَ الجرادُ: ركِب بعضُه بعضاً. والأصل الآخر: الرَّهْس: الوطء." اهـ

إذا فالرهس يدل على الوطء والوطء الشديد المكثف، وعكس الرهس مبنى ومعنى هو السهر! فالسهر هو الذي يوطىء! فإذا نحن قلبنا الكلمة من النصف أصبحت "هرس" وهي معروفة المعنى، وهي كما جاءت في المقاييس: "الهاء والراء والسين: أصلٌ صحيح يدلُّ على دَقٍّ وهَرْمٍ في الشَّيء. وهَرَسْت الشّيءَ: دقَقْتُه." اهـ

فالهرس يدل على الدق والكسر في الشيء إلى قطع صغيرة. فنخرج من تجميع هذه المعاني أن المراد من الساهرة فعلا هو الأرض اللينة أو الأرض عامة، وبهذا يكون ما قاله المفسرون في هذا المعنى صحيحا على الرغم من حيرتهم الشديدة في العلاقة بين الساهرة والأرض وظنهم ألا علاقة بينهما! وأن الأمر من باب التوقيف، لذلك وجدنا بعضهم يجعلها أرضا مخصوصة أو أرض يوم القيامة إلخ تلك الأقوال التي لم تعرف وتحدد العلاقة بين السهر والأرض.

فعندما تُزجر الزجرة الواحدة يُعاد تكوين الناس مرة أخرى بالساهرة، فيُخلق الناس من التراب ومن الماء، أي أن الناس يعاد تشكيلهم وإخراجهم مرة أخرى من الأرض كما خرجوا أول مرة، فإذا مروا بالمراحل المألوفة المعروفة واكتمل خلقهم يخرجون من الأرض مكتملين ناضجين كما خرجوا أول مرة عند خلقهم على كوكب الأرض: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [سورة ق, ٤٤]، فكما حدث في المرة الأولى يحدث في المرة الآخرة مصداقا للقانون الرباني الرحماني: ﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [سورة الأنبياء, ١٠٤] أي كل ما هنالك صيحة واحدة فيكوّن الناس من الأرض مرة أخرى ولا يحتاج الأمر أكثر من ذلك! ثم تبدأ السورة بعد ذلك في ذكر نموذج لإنزال العذاب بالمكذبين، وهو فرعون المتجبر، وسبب نزول العذاب به:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

ولم تذكر قصة سيدنا موسى في هذا السياق بهذا الشكل عبسا بل هي نموذج مختصر جامع للمراد منه، وهو: بمن وكيف ولماذا ينزل العذاب؟ فالناظر في السرد العام السريع للقصة يجد أنها مجرد ذكر عام للأحداث الرئيسة، فمبرر الإرسال ومن ثم نزول العذاب هو الطغيان: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾، ثم هي توضح أن العذاب لا ينزل إلا بعد وجود البينات: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾، وكيف أن الإنسان بإعراضه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢﴾ وباغتراره بنفسه وبقوته وبإفساده: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾ يستحق العذاب الذي لا راد له ولا عاصم منه. ثم يعود الله تعالى للرد على المتجبرين المتكبرين المنكرين للبعث وللعقاب الرباني، والذين يرون أن ما ينزل بهم هو من

الطبيعة وأنه ما هي إلا حياتهم الدنيا يموتون ويحيون وما يهلكهم إلا الدهر، فيوضح لهم مقدارهم بقوله:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا[52] فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ[53] لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

ثم توضح السورة حال الناس عند مجيء الطامة الكبرى، فهناك يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، فيتمنى العودة ولكن ما من مرجع، فالسوق إما إلى الجحيم أو إلى النعيم:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ[54] ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

وكما بدأت سورة النبأ بالحديث عن التساؤل، تختم سورة النازعات بذكر سؤال المكذبين للرسول وبالرد عليهم، وكما ختمت سورة النبأ بالإنذار "إنا أنذرناكم"، تختم سورة النازعات بتبيين دور الرسول وأنه منذر، وكما ختمت النبأ بنفي الشفاعة عن

---

[52] جاء في المقاييس لابن فارس: "السين والميم والكاف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على العُلُوّ. يقال سَمَك، إذا ارتفَعَ. والمسموكات: السماوات. ويقال سَمَكَ في الدَّرَج. واسمُكْ، أي اعْلُ. وسَنَامٌ سامك، أي عالٍ. والمِسْمَاك: ما سَمَكْتَ به البيتَ. قال ذو الرّمة:

كأنَّ رِجلَيْهِ مِسماكانِ مِنْ عشرٍ   سَقْبَانِ لم يتقشَّرْ عنهما النَّجَبُ

والسِّماك نجم. ومما شذَّ عن الباب وباين الأصل: السَّمَك." اهـ

وقد يستعمل السمك بمعنى الثخن، ونحن نستعمله بهذا المعنى، فنقول: سمك الشيء كذا، والمراد هنا في الآية العلو لا الثخانة.

[53] المشتهر في معنى الإغطاش أنه بمعنى الإظلام، ولكن على هذا يكون المعنى: وأظلم الليل! والليل لا يكون إلا مظلما! والغطش يكون بمعنى التغافل وعدم الاهتداء! (غطش قريبة من غطس!، والغطس بمعنى الغمس في الشيء) أي جعل ليلها مغط للأشياء غير مظهر لها، ففي الظلام لا تظهر الأشياء لأنه غطشها فغسطت فيه!

[54] الطامة معروفة فهي بمعنى الكارثة والداهية العظيمة والتي لا يستطيع أحد أن يدفعها أو يردها، *ولم يقل لنا أحد من المفسرين لم وصف الله تعالى يوم القيامة هنا بقوله: "الطامة الكبرى"* واكتفوا بالقول أن هذا من أسماء اليوم الآخر، أما على فهمنا نحن للسورة من أولها إلى آخرها فإن هذا هو المناسب للذكر، فالله تعالى من أول السورة يتحدث عن العذاب الذي ينزل بالكافرين ثم ذكر لنا نموذجا على ذلك وهو ما حدث لفرعون، وهذا العذاب الذي ينزل بالكافرين والعصاة المفسدين هو بداهة من الطوام، ولكن كل عذاب لا يقارن بالآخرة، فهي الطامة الكبرى! فإذا جاءت الطامة الكبرى فيومها يتذكر الإنسان ما سعى.

الملائكة إلا بإذن الله، تختم السورة هنا بنفي معرفة الرسول بميعاد مرسى الساعة. وكما ختمت سورة النبأ بذكر موقف الناس عند الفصل "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ..."، كذلك تختم السورة هنا بعرض حال المكذبين، وأنهم عندما يرون الطامة الكبرى لم يمكثوا في الدنيا إلا أقل القليل، فلم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، فلا خير في طغيان أو متعة قصر وقته إلى هذه الدرجة:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة عبس في فلك المنذِر والمنذَر. فهي توضح دور المنذِر، وحال المنذَر العجيب قبالة هذا الإنذار، وكيف أن نتيجته في يوم الفصل تكون تبعا لاستجابة الإنسان للإنذار، فلن ينفع أحد ولن ينفعه أحد.

فتبدأ بعرض تصرف خاطئ لأحد الدعاة، فتصححه له، وتذكر بدور القرآن ومكانته، ورد فعل الإنسان العجيب تجاه الإيمان وتدعوه إلى النظر فيما حوله لكي لا يعرض عن الإيمان، ثم تعرفه بأن إعراضه هذا سيكون سببا لإعراضه في الآخرة!

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن
جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

انتهت سورة النازعات بتوضيح دور الرسول وهو أنه منذر من يخشى الساعة، وتبدأ سورة عبس بذكر حال داعٍ من الدعاة إلى الله[55]، عبس وتولى أن جاءه الأعمى! وهذا السلوك لا يُقبل من الدعاة المنذرين! فيتضايق الرسول الكريم منه، فتأتي الآيات لتوضح له أن الداعية المنذر يجب أن يتقبل أخطاء أتباعه، فلربما كان فيهم خير ولربما يستجيبون لدعوته، خاصة إذا كان يخشى –الساعة المذكورة في آخر السورة السابقة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾–، فلا يعرض عنهم لغلطهم ويتصدر لمن استغنى عنه:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ[56] ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾

ثم توضح الآيات أن الساعة هي تذكرة، ونقطة فاصلة في سلوك وتصرف الإنسان، فمن شاء ذكر هذا "النبأ العظيم" الذي جاء ذكره في سورة النبأ والنازعات واستكمل هنا في عبس! في صحف مكرمة.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ[57] ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾

ثم تحتج الآيات على كفر الإنسان، فليس له أي مبرر لكفره هذا، ولإعراضه عن المنذر، فلقد أنشأه الله من نطفة وأعد له العدة للحياة، من أجل اختبار أُمد فيه بسبل

[55] ليس العابس هو الرسول الكريم، والسياق يدل على ذلك، فلقد خوطب الرسول الكريم في آخر سورة النازعات بضميري المخاطب الكاف و"أنت"، ثم قال له في سورتنا: "وما يدريك ... فأنت ... جاءك ... فأنت"، فكيف يكون العابس في أول السورة هو الرسول الكريم؟ ودعك من التمحكات، أشباه: هذا التفات، وهو أسلوب بلاغي...! فالجلي أن هناك ثلاث شخصيات في مطلع السورة: داع عابس وأعمى والرسول الكريم، ولقد تضايق الرسول الكريم من فعل العابس هذه، فنبهته الآيات ألا يصده، فلقد صدر منه ما يقارب فعل هذا العابس. ولمزيد من التوضيح حول الآيات يرجى مراجعة المقال على موقعنا: www.amrallah.com/ar

[56] الآية اعتراضية بين آية "كلا إنها تذكرة" وآية "في صحف مكرمة".

[57] ليس المراد من النشر مجرد الإحياء، وإنما كذلك الإشارة إلى عملية تكوين الإنسان مرة أخرى وخروجه من الأرض.

النجاح، وستنتهي حياته فيموت ويقبر ثم إذا شاء الله أنشره. ويظهر السؤال التقليدي: متى؟ فتأتي الإجابة: لما يقض الله تعالى هذا الأمر. ويكفر الإنسان ويعرض رغبة في عدم مخالفة الأهل والقوم والآباء وحرصا على مودة بينهم!

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا[58] ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

وكما دفعت سورة النازعات الإنسان إلى النظر فيما حوله، تأمر سورة عبس الإنسان بالنظر إلى أول ما يقيم به حياته، وهو الطعام، ويسأل نفسه: كيف أعد وكيف تيسر بهذه الطرق المناسبة له وللأنعام أيضا؟ وهنا يتكرر الاستدلال بدليل العناية، ولكن البشر معرضون! فمن صب له الماء؟ ومن شق الأرض ليخرج النبات؟ ومن جعل له تلك الحدائق الكثيفة الملتفة المتكاثفة الأغصان؟

وكما انتقل في سورة النازعات بعد الحديث عن خلق السماوات والأرض إلى الحديث عن الطامة، انتقل هنا بعد الأمر بالنظر إلى الطعام إلى الحديث عن الصاخة[59]، والصاخة صوت شديد يقرع الأسماع، ولأن الحديث في مطلع النازعات كان عن عذاب مصغر ناسب الحديث عن طامة كبرى، ولأن الحديث في عبس عن منذر وآيات وإعراض من الإنسان، ناسب الحديث عن صاخة لا يمكن الإعراض عنها، وإنما الإعراض عن الآخرين من الأهل والأقارب، حيث ينشغل كل بحاله:

---

[58] الغلب كما جاء في المقاييس: "الغين واللام والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ وقَهرٍ وشدَّة." اهـ
وجاء في لسان العرب: "... واغْلَولَبَ النَّبْتُ: بَلَغَ كلَّ مَبْلَغٍ والتفَّ، وخَصَّ اللحيانيُّ به العُشْبَ. واغْلَوْلَبَ العُشْبُ، واغْلَولَبَتِ الأَرضُ إِذا التَفَّ عُشْبُها. واغْلَولَبَ القومُ إِذا كَثُرُوا، من اغْلِيلابِ العُشْبِ. وحَديقَةٌ مُغْلَوْلِبَة: ملْتفَّة. الأَخفش: في قوله عز وجل: وحدائقَ غُلْباً؛ قال: شجرة غَلْباءُ إِذا كانت غليظة؛ ..." اهـ

[59] جاء في لسان العرب: "الصخُّ: الضرب بالحديد على الحديد، والعصا الصلبة على شيءٍ مُصمتٍ. وَصَخُّ الصخرة وَصَخِيخُها: صوتُها إِذا ضربتها بحجر أَو غيره. وكلُّ صوت من وقع صخرة على صخرة ونحوه: صَخٌّ وصَخيخٌ، وقد صَخَّت تصخُّ؛ تقول: ضربت الصخرة بحجر فسمعت لها صَخَّةً. (...) وتقول: صخَّ الصوتُ الأُذُنَ يَصُخُّها صخّاً." اهـ، والأصح أنها لكل صوت ناتج عن ارتطام صلبين ببعضهما، ونحن في العامية المصرية نستعمل كلمة قريبة عندما نريد التعبير عن الارتطام، فنقول: "طخ".

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

فهؤلاء الذين كانوا شغله الشاغل في الدنيا، والذين كانوا من أهم الدوافع في إعراضه عن الدين لتعلقه بهم، يفر منهم فلا ينفعونه ولا يغنيهم!

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ[60] ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

وفي هذا اليوم ينقسم الناس إلى فريقين، الفريق الذي استجاب والفريق الذي أعرض عن سماع كلمة الله، ويظهر آثار ذلك على وجوههم، فتكون وجوه المستجيبين بيضاء منيرة، ووجوه الآخرين عليها غبرة وكدرة، ويغشاها الضيق والكرب.

وكما خُتمت سورة النازعات بالحديث عن حال الناس يوم يرون الساعة، تختم سورة عبس بذكر الموقف التالي لهذا الموقف، وهو فرار الناس من أهليهم وتلون وجوه كلٍ حسب عمله.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة التكوير في فلك المنذَر والمنذِر (الرسول والكتاب)، فهي تعرف المنذَر بحاله في يوم الفصل، كما تعرف بالمنذِر ودوره (الرسول

[60] جاء في مقاييس اللغة: "الراء والهاء والقاف أصلان متقاربان: فأحدهما غِشيان الشّيء الشيءَ، ..." اه
القاف والتاء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ. من ذلك القُتْرة: بيت الصَّائد؛ وسمِّي قُترةً لضيقِهِ وتجمُّع الصَّائد فيه؛ والجمع قُتَر. والإقْتار التَّضييق. يقال: قَتَرَ الرجلُ على أهله يَقتُر، وأقْتَر وقَتَّر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان ,٦٧].ومن الباب: القَتَر: ما يَغْشى الوجهَ من كَرْب. قال الله تعالى: ﴿... وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ ... ﴿٢٦﴾﴾ [سورة يونس ,٢٦]اه

والكتاب)، فليس الكتاب من عند محمد ولا من عند الشياطين، وإنما هو قول رسول كريم، ودوره هو الذكر.

انتهت سورة عبس بالحديث عن الصاخة وعن حال الناس فيها، وتبدأ سورة التكوير بنفس المشهد، فالمشهد المذكور في أول السورة هو تفصيل الصاخة، فإذا جاءت الصاخة ... إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ[61] ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ[62] ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ[63] ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ[64] ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ[65] مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤

(61) الملاحظ أن كل المذكورات –*الاثني* عشر– في سورة التكوير أتت مبنية لما لم يسم فاعله، إلا "وإذا النجوم انكدرت"، فإنها أتت على وزن "انفعل"، فهل هذا لأن انكدار النجوم مترتب على تكوير الشمس؟! والانكدار معروف، وهو كما جاء في المقاييس: "الكاف والدال والراء أصلٌ يدلُّ على خلاف الصَّفو، (ومنه كدر الماء، وكدر الحياة) والآخَر يدلُّ على حركة ... وأمَّا الأصل الآخر فيقال: انكدَرَ، إذا أسْرَع، قال الله تعالى: وإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ " اهـ (لاحظ أنه جعل الأصل الثاني استنادا إلى فهمه للآية، وهو ما لا يصح، فكيف يكون *انفعل* بمعنى *فعل* أو *أفعل*؟!! وبغض النظر عن هذا، فأين ستسقط النجوم، على الأرض؟!!) والصحيح أن انكدر بمعنى أن النجوم وضوئها يصيبها شيء فيتغير ضوئها، لميلها إلى السواد، الناتج عن قرب انطفائها.

(62) في النفس أشياء من قول السادة المفسرين أن المراد من العشار هي النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر أو النوق عامة! وأن المراد من تعطيلها تركها بلا راعي، أو أنها لا تُركب! فلماذا تخص العشار بالذكر؟ قالوا لأنها أنفس أموال العرب! كأن الساعة لن تقوم إلا على العرب في عصر الجاهلية! ويبدوا أنهم نسوا أن الإنسان سيفر من أهله وأقاربه، فهل يُنتظر أن ينشغل بهذه الأشياء؟!! إن الصورة المقدمة في مطلع السورة كلها تدور أحداثها في اليوم الآخر، وليس للإنسان أي دور فيها! والقائلون بهذا القول جعلوها في الحيوة الدنيا! كأن الجبال ستسير في الدنيا وكذلك باقي المظاهر! ومن لاحظ أنها في الآخرة انتبه إلى بطلان القول فقال: "وقيل إن هذا التعطيل يوم القيامة فقال القرطبي الكلام على *التمثيل* إذ لا عشار حينئذٍ والمعنى أنه *لو كانت عشارا* لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم وقيل على الحقيقة أي إذا قاموا من القبور وشاهدوا الوحوش والأنعام والدواب محشورة ورأوا عشارهم التي كانت كرائم أموالهم فيها لم يعبؤا بها لشغلهم بأنفسهم وهو كما ترى" اهـ

وقيل أنها السحاب وقيل أنها الديار وقيل أنها الأرض التي تعشر زرعها، وأميل إلى أنه قد يكون المراد من العشار النباتات والأشجار (لاحظ أن ابن فارس قال عند تناوله للكلمة: العين والشين والراء أصلانِ صحيحان: أحدهما في عددٍ معلوم ثم يحمل عليه غيرُه، والآخَر يدلُّ على مداخَلةٍ ومُخالَطة." اهـ

وهل هناك تداخل ومخالطة أكثر من الواقع بين النبات والأرض؟!) لأن هذا هو العنصر الوحيد الناقص في مشاهد التبدل في اليوم الآخر، فلقد عرض القرآن –كما نرى– لكل المظاهر الطبيعية والكونية إلا للنباتات، فهل تكون العشار هي النباتات والأشجار؟ الله أعلم.

(63) الكشط معروف ونحن نستعمله في حياتنا اليومية بمعناه، وقريب من معناه ومبناه "القشط"، وإن كان القشط أقوى من الكشط، لوجود القاف، والتي هي أقوى وأعمق مخرجا من الكاف.

فإذا حدث المذكورات الإثنى عشر من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار وحشر الوحوش وتسجير البحار وتزويج النفوس وسؤل الموءودة ونشر الصحف وكشط السماء وتسعير الجحيم[66] وإزلاف الجنة، هناك علمت نفس ما أحضرت.

وبعد أن عرضت السورة حال المظاهر الكونية وتغيرها في يوم الفصل، تعود وتستخدم بعض هذه المظاهر كتدليل على وجود هذا الغيب، فتقول:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ[67] ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ[68] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾

---

[64] الإزلاف هو تقريب على مراحل ودرجات، وليس مجرد اقتراب.

[65] ليس المراد من نفس نفسا واحدة، وإنما المقصود منها جنس النفوس، كما في قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة هود, ١٠٥]. واستعمل التنكير المفرد ليفيد أن أي نفس مهما كانت صغيرة أو حقيرة ستعلم، وأن هذا العلم سيحدث لكل واحد منهم بمفرده، وذلك كما في قوله جل وعلى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٤٧].

[66] لاحظ الشبه بين سجر وسعر مبنى ومعنى، فإذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "السين والجيم والراء أصولٌ ثلاثة: المَلء، والمخالطة، والإيقاد.فأمّا الملء، فمنه البحر المسجور، أي المملوء. ويقال للموضع الذي يأتي عليه السّيلُ فيملؤه: ساجر. (...) وأمَّا الإيقاد فقولهم: سجرت التَّنُّور، إذا أوقدتَه. اهـ

"السين والعين والراء أصل واحدٌ يدل على اشتعال [الشيء] واتّقاده وارتفاعه. من ذلك السعير سعير النار. واستعارها: توقُّدها. المِسْعر الذي يُسْعر به. والسُّعار: حَرّ النار" اهـ

[67] جاء في لسان العرب: "الخُنُوس: الانقباضُ والاستخفاء. خَنَسَ من بين أَصحابه يَخْنِسُ ويَخْنُسُ، بالضم، خُنُوساً وخِناساً وانْخَنَس: انقبض وتأَخر، وقيل: رجع (...) وخَنَسَ الرجل إذا توارى وغاب. وأَخنسته أَنا أَي خَلَّفْتُه؛ (...) والكواكبُ الخُنَّسُ: الدَّراري الخمسةُ تَخْنُسُ في مَجْراها وترجع وتَكْنِسُ كما تَكْنِسُ الظباء، وهي: زُحَلٌ والمُشْتَرِي والمِرِّيخ والزُّهَرَة وعُطارِدُ لأَنها تَخْنِس أَحياناً في مَجْراها حتى تخفى تحت ضوء الشمس وتَكْنِسُ أَي تستتر كما تَكْنِسُ الظِّباء في المَغارِ، وهي الكِناسُ، وخُنُوسها استخفاؤها بالنهار، بينا نراها في آخر البرج كَرَّتْ راجعةً إِلى أَوّله؛ ويقال: سميت خُنَّساً لتأَخرها لأَنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم؛ ويقال: هي الكواكب كلها لأَنها تَخْنِسُ في المَغِيب أَو لأَنها تخفى نهاراً؛ ويقال: هي الكواكب السَّيَّارة منها دون الثابتة. الزجاج في قوله تعالى: فلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ؛ قال: أَكثر أَهل التفسير في الخُنَّسِ أَنها النجوم وخُنُوسُها أَنها تغيب وتَكْنِسُ تغيب أَيضاً كما يدخل الظبي في كناسِهِ. قال: والخُنَّسُ جمع خانس." اهـ

[68] ليس المراد منها الثقوب السوداء، كما يدعي بعض أنصار "*الإعجاز* العلمي"، ولقد ناقشنا هذه المسألة باستفاضة على موقعنا وبين تهافت هذا القول، فليراجع هناك: www.amrallah.com/ar

فتُقدم الدليل على الغيب وعلى وقوع النبؤات المذكورة في السورة من خلال النجوم التي تظهر وتختفي، ولا يعني اختفائها أنها غير موجودة، وكذلك بالليل عندما يتحرك في خفة فيتخلل الأشياء بظلامه، وبالصبح إذا انتشر وعم[69]، فإذا كان التغير في الكون واقع جزءا فما المانع من وقوعه كلاًّ؟!

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾

فالقرآن الكريم قول جبريل عليه السلام ولكنه ليس كلامه، فهو كلام الله! وجبريل عليه السلام، الذي يأتي بالوحي له قوة ومكانة عند ذي العرش، كما أنه له مكانة ومرتبة بين الملائكة، فهو مطاع وأمين على الوحي.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن النبي الكريم، مستقبِل هذا الوحي، فما هو بمجنون ولا مدع لما لم يره، وإنما يبلغ ما رآه حقا:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ[70] ٢٣﴾

فلقد رأي جبريل عليه السلام حقا، فليس الأمر بالخيالات أو التوهمات. ثم تعود الآيات للحديث عن القرآن نفسه، والذي بدأته بقولها: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾، فتقول:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ[71] ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥﴾

---

(69) *النفس* يدل على خروج من أصل وانتشار، ومن معاني "نفس" في لسان العرب: "ويقال: اللهم نَفِّس عني أَي فَرِّج عني ووسِّع عليَّ، ونَفَّسْتُ عنه تَنْفِيساً أَي رَفَّهْتُ. يقال: نَفَّس اللَّه عنه كُرْبته أَي فرَّجها (...) وهذا الثوب أَنْفَسُ من هذا أَي أَعرض وأَطول وأَمثل. وهذا المكان أَنْفَسُ من هذا أَي أَبعد وأَوسع. وفي الحديث: ثم يمشي أَنْفَسَ منه أَي أَفسح وأَبعد قليلاً . (...) ويقال: لك في هذا الأَمر نُفْسَةٌ أَي مُهْلَةٌ. وتَنَفَّسَ الصبحُ أَي تَبَلَّج وامتدَّ حتى يصير نهاراً بيّناً. وتَنَفَّس النهار وغيره: امتدَّ وطال. ويقال للنهار إِذا زاد: تَنَفَّسَ، وكذلك الموج إِذا نَضحَ الماءَ. وقال اللحياني: تَنَفَّس النهار انتصف، وتنَفَّس الماء. وقال اللحياني: تَنَفَّس النهار انتصف، وتنَفَّس أَيضاً بَعُدَ، (...) قال الفراء في قوله تعالى: والصبح إِذا تَنَفَّسَ، قال: إِذا ارتفع النهار حتى يصير نهاراً بيّناً فهو تَنَفُّسُ الصبح." اهـ

(70) تدل هذه الآية على محدودية المرات التي رأى فيها الرسول الكريم جبريل عليه السلام على هيئته الأصيلة.

فعطاء القرآن مستمر، فكما أعطاكم سيغني من بعدكم، فعِلم القرآن علم رباني وليس رجما بالغيب من أقوال الشياطين. لذا فليس لكم أيها الناس مفر أو حجة في ترك آياته، فالكون محيط بكم.

ولقد أخبركم القرآن بما سيؤول إليه حالكم. ولكن هذا كله لمن لم يغلق قلبه:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

فلا تغتروا بأنفسكم وتظنوا أنها ستهديكم وترشدكم وتنفعكم، فالأمر كله لله.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الانفطار في فلك انكشاف غفلة واغترار المنذَر في يوم الدين، فتبين له كيف أن هذه الغفلة ليس لها ما يبررها، فعليه أن يتذكر أن الله محيط به، وأنها سترفع يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وعمل قويم.

---

(71) المشتهر أن الضمير عائد على الرسول الكريم، ولكنا نرى أنه عائد على القرآن، فالآية التالية معطوفة على الآية وأتت بنفس الشكل، لاحظ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾، لذا فنحن نرى أن "هو" في الآيتين عائد على القرآن، أضف إلى ذلك المعنى الذي سنقول به حالا والذي يحتم أن يكون كما نقول. والآية على تفسيرهم تقول أن الرسول محمد لا يبخل بالغيب، أي أنه يبلغ ما يوحى إليه فلا يكتم منه شيئا! ونحن نرفض هذا الفهم لمخالفته لمنطوق الآية، ونقول: الفعل "ضن" يتعدى بالباء وقد يتعدى ب "على" حسب المعمول، ونوضح بمثال جامع لحرفي الجار؛ نقول: ضننت بمالي على أخي، فأخي هو من أضن عليه والمال هو ما أضن به. ولما لم يعرف المفسرون كيف يُضن على الغيب، قالوا أن المراد أنه يُضن به، فجعلوه هو المضنون به! فجعلوا معنى الآية "وما هو بالغيب بضنين عليكم!!"، وهو ما لا تقوله الآية بحال. ونحن نأخذ الآية كما هي فنقول والله أعلم أن القرآن قول رسول كريم، وليس عطاءه وكرمه مقصورا على جيل محمد ومن معه فقط، وإنما سيعطي ويغدق على من وما يأتي بعده بما يحتاجونه، وبما يغنيهم من المعارف والنظم. وبذلك نكون قد فهمنا "الغيب" بمفهوم قريب من "المستقبل" بتعبيراتنا المعاصرة.

انتهت سورة التكوير بالحديث عن إحاطة الله عزوجل بالبشر، وكيف أن كتابه لم يترك لهم أي حجة، ولكنه نافع فقط لمن يشاء الاستقامة، وكل إنسان بالخيار في عمله بعد ذلك في الدنيا فإما يستقيم وإما لا، أما في الآخرة فليس هناك خيار. ثم تبدأ سورة الانفطار بالحديث عن مظاهر لليوم الآخر، -ويمكن القول أن هذه السورة كسابقتها تفصيل لقوله تعالى: "فإذا جاءت الصاخة" المذكور في سورة عبس! وأنها تعرض لموقف آخر غير المذكور في التكوير-، فهنا يعرف الإنسان ما قدم وما أخر، اغترارا بنفسه وبعلمه!

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ[72] ① وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤﴾

(72) عامة المفسرين على أن المراد من الانفطار هو الانشقاق، وأنه مثل الوارد في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ①﴾ [سورة الانشقاق ,١]"، وليس هذا مثل ذاك بداهة، فهذا معنى وذاك آخر. ويعكر على قولهم هذا قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ⑨⓪﴾ [سورة مريم ,٩٠]، ولو كان الاثنان بمعنى واحد لما فرق الله بينهما في الآية! وينسون كذلك أن السماء والأرض تُفطر دوما في الدنيا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [سورة فاطر ,١]، فالله فاطر السماوات والأرض، وهن "مفطورات" أبدا في الدنيا، أما في الآخرة فهي "منفطرة": ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ⑱﴾ [سورة المزّمّل ,١٨].

والناظر في المقاييس يجد ابن فارس يقول: "الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْح شيء وإبرازِهِ"، وبقريب من هذا نقول، فنحن نرى أن الفطر هو تمدد أو انبعاج الشيء بسبب دفع أو ضغط، فإذا زاد الضغط والدفع فُتق الشيء -لاحظ الشبه بين *فتق* و*فطر* مبنى ومعنى، وانتهاء الفتق والشق والفسق بالقاف-، ولا يمكن أن يكون الفطر بمعنى الشق أو الفتق أبدا لأنه مما انتهى بالراء، وهي تفيد التكرار لا القطع، بخلاف القاف التي تفيد القطع. ويبرهن على فهمنا هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③﴾ [سورة الملك ,٣]، فالحديث في الآية عن تفاوت، وسؤال عن عدم انتظام أو اعوجاج في خلق الله، والعجيب أن السادة المفسرين جعلوها بمعنى "الفروج والشقوق!".

وإذا فهمنا الفطر على هذا المعنى أمكننا أن نفهم الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑤①﴾ [سورة هود ,٥١]"، فهل المقصود أن الإنسان شُق في خلقه أم أن الخلية تتمدد وتتحور إلى أن تصل إلى شكل الإنسان؟ ونفهم قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ... ③⓪﴾ [سورة الروم ,٣٠]، أي الشكل الذي شكل الله الناس عليه. فنفهم من هذا أن السماء والأرض مشكلة بهذا الشكل بقدرة الله وهو الذي يبقيها على هذه الحالة، وفي اليوم الآخر يتغير شكل السماء فما تبقى بالشكل المألوف الذي نعرفه، والله أعلى وأعلم.

فإذا انفطرت السماء وانتثرت الكواكب وفُجرت[73] البحار وبعثرت القبور يعلم الإنسان ما قدم وأخّر، فهل قدم الدين والآخرة أما هواه والدنيا العاجلة؟!

ثم تخاطب السورة ذلك الإنسان الذي غُر بالرب الكريم[74]، فتبين له أنه محاط بالعجز والقصور في كل جوانب حياته:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

فالرب الكريم هو الذي خلقه وأتم خلقته وجعلها متناسبة، وعدله فاستقام ظهره، بعد أن كان يمشي على أربع، فلم يظل كالحيوانات في هذه المرحلة طويلا، وركبه في صورة ولا أجمل ولا أكمل، ولم يقتصر الأمر على الخلقة وإنما أعد له كل ما يحتاج، فما سبب الغرور، الذي يؤدي به إلى أن لا يشاء الاستقامة وأن يكون الدين مؤخرا مهملا في حياته؟!

ثم تبين السورة المبرر الرئيس لعدم استقامة الناس، فليست المسألة اغترارً بالله بالدرجة الأولى، وإنما هي تكذيبٌ لأصلي الدين: الوحي والدينونة، فيعتمد الإنسان على نفسه ناسيا الحفظة الموجودين الذين يسجلون! فالناس يظنون أنهم لا يبعثون مرة أخرى، ليحاسبوا على أعمالهم، ويظنون أنها أيام تنقضي وتمر، وتنتهي الحياة بذلك. فيبين الله عزوجل أنه سبحانه محيط بهم، فهناك كرام كاتبون يسجلون أفعالهم في الدنيا، فلا يخفى عليه من عملهم شيء:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

---

[73] الفجر كما جاء في المقاييس: "الفاء والجيم والراء أصلٌ واحدٌ، وهو التفتح في الشَّيء. من ذلك الفَجْر: انفِجار الظُّلمة عن الصُّبح. ومنه: انفجَرَ الماء انفجاراً: تفتَّحَ. والفُجْرَة: موضع تفتُّح الماء. ثمَّ كثُر هذا حتَّى صار الانبعاثُ والتفتُّح في المعاصي فُجوراً. ولذلك سمِّي الكَذِب فجوراً. ثم كثُر هذا حتَّى سمِّي كلُّ مائلٍ عن الحقِّ فاجراً." اهـ

[74] لاحظ أن القرآن قول رسول كريم، والإنسان غُر بربه الكريم.

وليس هذا التسجيل عبثا وإنما لحكمة مذكورة في أول السورة، وهي أن يعلم الإنسان بنفسه في ذلك اليوم ما قدم وأخر، وبذلك يصبح على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، وبناءً على العمل المسجل عليه -وليس شيئا آخر- يكون حال الإنسان في ذلك اليوم، فالأبرار في نعيم دائم والفجار في جحيم غير منقطع:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ[75] لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾

وفي الآيات إشارة إلى أن الفجار في جحيم في الدنيا، ثم يذوقون الجحيم الحقيق في يوم الدين! وهذا اليوم ليس يوما هينا ولا كأيام الدنيا، وتخيل كما شئت فهو أعلى من كل خيالاتك وأعظم:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ[76] شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

وفي هذا اليوم العظيم يكون الأمر كله لله، فلا تملك نفس لنفس —وبداهة لنفسها من باب أولى—شيئا.

وكما انتهت سورة التكوير بالحديث عن عجز الإنسان وإحاطة الرحمن: ﴿... فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦﴾ [سورة التكوير, ٢٦]، تنتهي سورة الانفطار بنفس المعنى؛ وهو أن الإنسان الذي قد ينفع ويضر في الدنيا —داخلا في دائرة مشيئة الله وليس مستقلا عنها— يصبح عاجزا تماما في ذلك اليوم، فلا يملك لنفسه أو لغيره في الآخرة شيئا والأمر كله يومئذ لله!

---

[75] يبدء في هذه السورة تقسيم الناس إلى أبرار وفجرة، وهذا ما سنتابعه ونلاحظه في سور قادمة!

[76] ولا يقتصر الأمر على نفع البشر للبشر وإنما يتعداه إلى أي نفس، فحتى الملائكة والروح لا تنفع في هذا اليوم —إلا بإذن الله—: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ۝٣٨﴾ [سورة النبإ, ٣٨]. ونلاحظ انتهاء السورتين "النبأ والانفطار" بنفس المشهد.

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة المطففين في فلك نزول الجزاء الموعود في السور السابقة بالمنذَر المكذب الغافل وكذلك بالمؤمن.

انتهت سورة الانفطار بالحديث عن نفي تملك البشر للنفع في اليوم الآخر، وتفرد الله عزوجل به، ثم تبدأ هذه السورة بالحديث عن حال نموذج للمكذبين في ذلك اليوم، وهم المطففون، مؤكدة على وقوعه من مالك الأمر كله:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ[77] ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣﴾

فتتوعد هؤلاء المطففين، الذين يطلبون أن يأخذوا حقوقهم كاملة عندما يتعاملون مع غيرهم، فإذا أعطوا هم ووزنوا أو كالوا أنقصوا.

وتعجب من فعل هؤلاء، الذين يظنون أنهم لا يبعثون! أو يظن بعضهم أنه يبعث وعلى الرغم من ذلك يفعل ما يفعله من غش الناس وتفضيل ذاته عليهم!

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦﴾

وهذه النقطة هي التي توضح لم خُص المطففون بالذكر في مطلع هذه السورة، دوناً عن غيرهم من أصناف العصاة، وذلك لأن المطفف يعطي لنفسه مزايا وحقوق لا يراها لغيره، لذلك فهو يستوفي لنفسه ويُنقص غيره بدون أي سند عقلي إلا عجبه وغروره، وكذلك الإنسان المكذب بالبعث لا مستند له في فعله هذا إلا إعجابه بتبريرات عقله! وظنه أنه حتى لو بُعث فسيكون استثناءا لما له من منزلة عند الله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾ [سورة الكهف, ٣٦] كما أنه

[77] يقول ابن فارس في المقاييس: "الطاء والفاء يدلُّ على قِلّةِ الشيء. يقال: هذا شيءٌ طفيف. ويقال: إِناءٌ طَفَّانُ، أي ملآن. والتَّطْفِيف: نقص المكيال والميزان. قال بعض أهل العلم: إِنّما سمِّي بذلك لأنَّ الذي ينقصه منه يكون طفيفاً." اهـ

على النقيض تماما من الشفيع، الذي قد يملك لإخوانه شيء في الدنيا، والمنفي تماما في اليوم الآخر، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ [سورة الانفطار,١٩] فالشفيع يتحرك من أجل الآخرين ويوصل لهم أكثر مما يستحقون، أما المطفف فهو ينقص الآخرين ويستوفي لنفسه!

ثم تبين السورة أن ظن هؤلاء باطل، فسيبعثون ويقومون لرب العالمين فيُسألون. وكتاب هؤلاء، الذي كتبه الحافظون الكرام الكاتبون (تذكر سورة الانفطار) مآله إلى الضيق والسجن وأي سجن!، وهو كتاب صادق ناطق بما قالوا وفعلوا فلا يزيد ولا ينقص:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ[78] لَفِي سِجِّينٍ ٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ[79] ٩﴾

ثم تنتقل السورة بعد الحديث عن هذا الصنف الخاص إلى الحديث عن المكذبين عامة والرافضين للدين:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ[80] عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤﴾

(78) نلحظ هنا استمرار التقسيم: "فجار وأبرار" والذي بدأ في السورة الماضية!

(79) لا ترتاح النفس إلى ما أورده المفسرون في تفسيرهم للرقم بأنه الكتابة أو الإعجام، وقد أورد ابن منظور في معانيه في لسان العرب: "الرَّقْمُ والتَّرقيمُ: تَعْجيمُ الكتاب. ورَقَمَ الكتاب يَرْقُمُهُ رَقْماً: أَعجمه وبيَّنه. وكتاب مَرْقُوم أي قد بُيِّنَتْ حروفه بعلاماتها من التنقيط. وقوله عز وجل: كتاب مَرْقُومٌ؛ كتاب مكتوب؛ وأنشد: سأَرْقُم في الماء القَراحِ إليكُم، عل بُعْدِكُمْ، إن كان للماء راقِمُ أَي سأَكتب."اهـ

وقيل أنه بمعنى مختوم! ولكن يعكر على هذا القول أنه سبحانه استعمل نفس الكلمة في السورة مع الرحيق، فيدل هذا على اختلافهما. وتميل النفس أكثر إلى من قال أن الرقم بمعنى التعليم، أي أن يجعل فيه علامة، وإن كنا نرى أن هذا المعنى كذلك ناقص، ولكنه أفضل من سابقه. وعامة المفسرين على أن الآية السابقة اعتراضية، أي أن المراد "كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وهو كتاب مرقوم"! فلقد استغربوا أن يكون السجين كتاب مرقوم. ولكن لا يوجد ما يوجب الحمل على هذا، فيمكننا أن نفهم الآيات كما هي، فسجينٌ هو كتاب مرقوم، وفي هذا يقول الإمام الفخر الرازي رحمه الله: "وأي استبعاد في كون أحد الكتابين في الآخر، إما بأن يوضع كتاب الفجار في الكتاب الذي هو الأصل المرجوع إليه في تفصيل أحوال الأشقياء، أو بأن ينقل ما في كتاب الفجار إلى ذلك الكتاب المسمى بالسجين، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون المراد من الكتاب، الكتابة فيكون في المعنى: كتابة الفجار في سجين، أي كتابة أعمالهم في سجين، ثم وصف السجين بأنه {كتاب مَّرْقُومٌ} فيه جميع أعمال الفجار." اهـ

فتتوعد هؤلاء المكذبين عامة كما توعدت المطففين خاصة. وكانت سورة الانفطار قد ذكرت سبب اغترار الإنسان بربه الكريم، وهو: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [سورة الانفطار, ٩]، وهنا تفصل من هو المكذب، فهو المعتدي الأثيم، وتذكر نموذجا لتكذيبه بما لا برهان له في رده، وذلك بوصفه آيات الله البينات بأنها أساطير[81] الأولين! وليست آيات الله البينات أساطير الأولين أو مشابهة لها، حتى يقولوا هذا القول، وإنما هي أعمالهم التي اكتسبوها فغطت قلوبهم وأصبته بالصدأ، فما عادوا يرون إلا إياها ولا يتحركون إلا لها، وما عاد النور يصل إلى هذه القلوب!

لذلك فهم يستحقون لعماهم في الدنيا أن يُحجبوا عن الله في اليوم الآخر، فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم! ثم يصلوا الجحيم:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

فيذوقون النار ويعانون حرها وحرارتها، ولا يقتصر العذاب على الصلو فقط، وإنما يتعداه إلى التبكيت، فيقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون. وكان الله تعالى قد توعدهم في سورة الانفطار، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ [سورة الانفطار, ١٤-١٥]، فبين هنا أنهم صالوها وسيبكتون جراء تكذيبهم به!

وكعادة القرآن انتقل للحديث عن الصنف المقابل، وهو الأبرار، فيبين أولا اختلاف حال كتابهم، المحتوي على الخير عن حال كتاب الفجار، فقال:

---

(80) جاء في المقاييس: "الراء والياء والنون أصلٌ يدلُّ على غِطاء وسَتْر. فالرَّيْن: الغِطاء على الشيء. وقد رِينَ عليه، كأنّه غُشِي عليه." اهـ

وأورد ابن منظور في اللسان: "الرَّيْنُ: الطَّبَعُ والدَّنَسُ. والرَّيْن: الصَّدأُ الذي يعلو السيفَ والمِرآة. ورَانَ الثوبُ رَيْناً: تَطَبَّعَ. والرَّيْنُ: كالصَّدَإِ يَغْشى القلب. ورَانَ الذَّنْبُ على قلبه يَرِينُ رَيْناً ورُيُوناً: غلب عليه وغطاه. وقيل: كل غلبة رَيْنٌ؛ ..." اهـ

(81) ليس المراد من *الأساطير* المعنى المستعمل في زماننا هذا "الخرافات والقصص الوهمية"، وإنما المراد منها المسطور، أي ما سطره الأولون، أي أن محمد ينقل من كتب الأقدمين، كما يدعي البعض أنه أخذ القرآن من التوراة والإنجيل! أو من أي كتاب قديم.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾

فإذا كان كتاب الفجار في سجين، فإن كتاب هؤلاء في عليين، وإذا كان سجين غاية في الضيق والسفلية، فإن هذا على النقيض تماما، يضاف إلى ذلك سمة لم تذكر مع الصنف السابق، وهي أن المقربين يشهدون العليون، فهم ليسوا عنها بغائبين، فيا له من كرم وحظ أن يكون هؤلاء شاهدين لكتبهم. وكان الله تعالى قد قال في سورة الانفطار: "إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣] سورة الانفطار, ١٣[، ولم يزد عن هذا، ففصل في هذه السورة ذاكرا بعض مظاهر هذا النعيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ[82] مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ[83] ۝٢٨﴾

فإذا كان أولئك عن ربهم محجوبون فإن فهؤلاء منعمون، على الأرائك ينظرون إلى ما يشاء الله من متع النظر، فحولهم الأشجار والأنهار، والناظر إليهم يعرف في وجوههم نضرة النعيم. وإذا كان أولئك صالوا الجحيم فإن هؤلاء يسقون من شراب مركز صافٍ، ويجدون عند شرابهم إياه رائحة المسك.

ثم تُختم السورة بالتذكير بانقلاب حال الأبرار والفجار في الآخرة، فبعد أن كان الفجار يضحكون منهم ويستهزءون بهم ويرمونهم بالضلال لإيمانهم بالله وباليوم الآخر، أصبح الأبرار في رخاء واستقرار، وهم الذين يضحكون من الكفار، فلم ينفع الكافرين فعلهم وإنما عاد عليهم بالضر والهوان!

[82] أورد الإمام الزبيدي في تاج العروس: "الرَّحِيق: من أَسْماءَ الخَمْر مَعْرُوفٌ قال أَبو عُبَيْد: من أَسْماءِ الخَمرِ الرَّحِيقُ والرّاحُ أَو: أَطْيَبُها وهو صَفْوَةُ الخَمْرِ أَو: أَعْتَقُها وأَفْضَلُها قالَهُ ابنُ سِيدَه أَو: الخالِصُ وقالَ الزَّجّاجُ: هو الشَّرابُ الذي لا غِش فيهِ وقالَ غيرُه: هو السَّهْلُ من الخَمْرِ أَو الصافي قالَ ابنُ دُرَيْدٍ: الرَّحْقُ: أَصْلُ بناءَ الرَّحِيقِ قالوا: هو الصافي." اهـ

[83] ليس "المقربون" في هذه الآية هم "المقربون" في الآية الحادية والعشرين، فأولئك والله أعلم من الملائكة، أما هؤلاء فهم السابقون السابقون، كما جاء في الواقعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ
أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾

فأصبح المؤمنون هم من يضحكون من الكفار وينظرون إليهم وإلى حالهم، التي أوصلوا أنفسهم إليها بعنادهم. وإذا كان أولئك قيل لهم: ﴿... هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ [سورة المطففين, ١٧]، فقد قيل للمؤمنين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ [سورة المطففين, ٣٦]، فهل جوزوا الجزاء الحسن على ما فعلوا؟ نعم، فما هم فيه هو ما يستحقون.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الانشقاق في فلك قدرة الله على إعادة الإنسان في اليوم الآخر لمجازاته.

انتهت سورة المطففين بقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾، ثم تكمل سورة الانشقاق المشهد، فتقول:

﴿إِذَا[84] ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[85] ٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا
فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥﴾

[84] الناظر في كتب التفسير قاطبة يجد أنها تجمع على أن "إذا" في الآية هي إذا الشرطية، وبما أنها شرطية فلا بد لها من جواب. *والناظر في السورة لا يجد أي جواب لها*. ولقد احتار المفسرون في إيجاد هذا الجواب، فقيل أنه محذوف للتهويل! وقيل أنه متروك لأن المعنى معروف! وقيل أن الجواب هو قوله: "فملاقيه" وقيل أن المعنى محمول على التقديم والتأخير، وقيل أقوال أخرى. والقول بالحذف في القرآن مرفوض مردود بداهة وفيه تقول على الله عزوجل بلا علم ولا مستند إلا الخرص. فإذا نحن رفضنا القول بحذف الجواب ونظرنا في السورة فلن نجد أي جواب مناسب بأي حال، فأين جواب "إذا" إذن؟ نحن لا نقول

أي هل جوزي الكفار في ذلك اليوم، إذا السماء انشقت وأذنت وحُقت ... عندما يقع التغيير الكوني الكبير، الذي سيكون في ذلك اليوم؟ وتكمل السورة وتعطينا الإجابة، وكيف أن حالهم ينقلب، كما تغير الكون كله.

والآيات المذكورة هي أول إشارة إلى قدرة الله تعالى على بعث الإنسان المكذب بيوم الدين، فالله يتحدث عن انشقاق السماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها، ثم عودتهما إلى ما كانا عليه بأمر الله، فإذا كان هذا سيحدث مع هذه الأجرام العظيمة، أفلا يقدر الله تعالى على تركيب الإنسان مرة أخرى وبعثه؟!

ثم تبدأ السورة في مخاطبة الإنسان الذي غُر بربه الكريم، فتوضح له حاله في الدنيا ومآله في الأخرة، فالدنيا كدح لا محالة، فلزاما كدحك وستجد كدحك هذا في اليوم

أن "إذا" هذه شرطية، وإنما هي مرتبطة بالآيات الأخيرات الواردات في سورة المطففين، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ ثم تبدأ السورة التالية بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ...١﴾ فنلاحظ أن الله تعالى قال في آخر سورة المطففين "فاليوم الذين ... هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون " هذا اليوم مفهوم بداهة أنه اليوم الآخر، فتأتي سورة الانشقاق وتقدم مشهدا جديدا يكمل الصورة، فتقول: "هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون إذا السماء انشقت ..." أي هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون إذا حدث كذا وكذا وكذا؟

(85) المشتهر في تفسير هذه الآية أنها بمعنى أنها "سمعت لربها وحق لها أن تسمع وتطيع"، ولا خلاف في معنى الأذن فهو معروف، ولكن هل معنى "حُق" هو "حق له"؟ بداهة هذا غير ذاك كلية! فما معنى "حُق" إذن، وكيف تُحق السماء والأرض؟

إذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الحاء والقاف أصلٌ واحد، وهو يدل على *إحكام الشيء وصحّته*. فالحقُّ نقيضُ الباطل، ثم يرجع كلُّ فرعٍ إليه بجَودة الاستخراج *وحُسْن التّلفيق* ويقال حَقَّ الشيءُ وجَبَ. (...) وفي حديث عليّ عليه السلام: "إذا بلغَ النِّساء نَصَّ الحقَاقِ فالعَصَبَةُ أوْلى".قال أبو عبيدٍ: يريدُ الإدراكَ وبُلوغَ العقل. (...) ويقال ثوبٌ مُحَقَّقٌ، إذا كان محكم النّسج. (....) والحِقَّةُ من أولاد الإبل: ما استحقَّ أن يُحمَل عليه، (...) والحُقُّ: مُلتقَى كلِّ عظمَين إلا الظهرَ؛ ولا يكون ذلك إلا صُلباً قوياً.ومن هذا الحُقّ من الخشب، كأنه ملتقى الشيء وطَبَقُه. (...) ويقال أحَقَّت الناقة من الرّبيع، أي سَمِنَت" اهـ

الحق معروف كمعنى مجرد بالنسبة لكل الناس، ولكنه يأتي كذلك لأشياء مادية، فوجدناه يأتي كوصف للثوب المحكم وللإبل البالغة التي يُحمل عليها وللنساء إذا بلغن وعقلن. فكيف نسقط هذه الأوصاف على السماء؟

إن إسقاط هذه الأوصاف على السماء والأرض هو مفتاح فك شفرة ارتباط هذه الآيات بما يليها، فالله تعالى يقول للإنسان: إذا السماء انشقت وخضعت لربها وسمعت لقوله وحُقت أي أحكمت مرة أخرى وصارت على شكلها المحكم المتصل بلا شقوق ولا فروج. وكذلك : "وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت"، فبعد أن مدت الأرض وألقت ما فيها وتخلت تأذن لربها فتسمع وتطيع وتستجيب، وحقت أي وعادت محكمة بلا شقوق ولا عوج ولا خلل.

الآخر، ففي أي صنف من صنوف الكادحين أنت؟ هل من المؤمنين أم المكذبين؟ فلكل صنف جزاء مخصوص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ[86] إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا[87] فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾

ونلحظ أن هذه الآيات تكمل المشهد المذكور في آخر سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾ فالكفار كانوا يضحكون من المؤمنين، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين[88]، وفي الآخرة فإن المؤمن هو من ينقلب إلى أهله مسرورا، أما هم فسيدعون ثبورا ويصلون سعيرا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ[89] ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥﴾

---

[86] نلاحظ أن هذه التركيبة: "يا أيها الإنسان"، لم ترد في القرآن كله إلا في سورة الانفطار وهنا في سورة الانشقاق.

[87] الكدح معروف وهو كما جاء في اللسان: "الكَدْح: العمل والسعيُ والكسبُ والخَدْشُ ... ومنه قوله تعالى: إنك كادِحٌ إلى ربك كَدْحاً أَي ناصِبٌ إلى ربك نَصْباً؛ والكَدْحُ بالسنّ: دون الكَدْم بالأَسنان، والفعل كالفعل؛ وقيل: الكَدْحُ قَشْرُ الجلد يكون بالحجر والحافر... وكلُّ أَثَرٍ من خَدْشٍ أَو عَضٍّ فهو كَدْح" اهـ

(ليلاحظ القارئ الشبه بين الكدح والقدح في المبنى والمعنى، وكذلك بين الكدح والكدم)

[88] الفكه أقل بكثير من السرور، فقد أرى وأنا في شدة الحزن والأسى موقفا غريبا، فيفكهني فأضحك ولكنه لا يجعلني مسرورا، إذ سرعان ما أعود إلى ما أنا فيه من الغم والهم.

[89] التحور معروف، ونحن نستعمله في لغتنا المعاصرة، فنستعمله مثلا عندما نريد الحديث عن انتقال كائن حي من حالة إلى أخرى، كما نرى في الديدان التي تتحول إلى فراشات! وهو كما جاء في اللسان: "الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإِلى الشيء (...) *وكل شيء تغير من حال إلى حال*، فقد حارَ يَحُور حَوْراً؛ قال لبيد: وما المَرْءُ إِلاَّ كالشِّهابِ وضَوْئِهِ، يِحُورُ رَماداً بعد إِذْ هو ساطِعُ (...) والحَوْرُ النقصان بعد الزيادة لأَنه رجوع من حال إِلى حال. وفي الحديث: نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ؛ معناه من النقصان بعد الزيادة، (...) والمَحارُ: المرجع؛ (...) والمَحارة: المكان الذي يَحُور أَو يُحارُ فيه. وأَصل الحَوْرِ: الرجوع إِلى النقص . (...) قال الزجاج: قال بعضهم قيل له مِحْوَرٌ للدَّوَرَانِ لأَنه يرجع إِلى المكان الذي زال عنه ..." اهـ

فتبين الآيات سببا رئيسا للتكذيب بيوم الدين، وهو رضى الإنسان بدنياه وسروره بها وعدم رغبته في التفكر فيما بعد ذلك! وكذلك ظنه أنه لن يحور أي أن لن يعود إنسانا بعدما صار ترابا!، ثم ترد على هذا الوهم بقولها أن ربه كان به بصيرا، فهو محاط به في الدنيا والآخرة، فكيف لا يقدر الله على بعثه مرة أخرى، وإذا كانت السماوات والأرض ستشق وتمد ثم تُحق أفلا يحور الإنسان؟!

ثم تبدأ السورة في عرض بعض مشاهد التغيير، التي يراها الإنسان في حياته، وكيف أنها تختفي ثم تعود إلى ما كانت عليه، كدليل على نبوءة ستقع في مقتبل الزمان وهو أننا سنركب السماء، –وهو ما حدث في زماننا، فطرنا في سماء الأرض، ثم صعدنا في الفضاء، ثم ارتدنا الكواكب وهكذا–:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ[90] بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ[91] ١٩﴾

---

(90) "لا أقسم" تعني لا أقسم وليس أنها تفيد القسم، فالأمر أوضح وأجلى من أن يقسم عليه.

(91) سببت هذه الآية إشكالا كبيرا للمفسرين لذا وجدناهم يحتجون فيما يقولون بالأقوال الواردة في الأثر، فوجدناهم يقولون أن المراد من ذلك لتركبن حالا بعد حال وأمرا بعد أمر في الدنيا، وقيل أن المراد من ذلك في الآخرة أي أن الناس تختلف أحوالهم من مرفوع في الدنيا إلى مخفوض في الآخرة والعكس. ولنتناول هذه الآية لنخبر ما تقول: تبدأ الآية بقوله تعالى: "لتركبن" والركوب الوارد في القرآن كله بمعنى الركوب المعروف، فلم تأت آية بمعنى مخالف، لذا فإن الأرجح كون الركوب هنا بمعنى الركوب لا بمعنى معايشة الأحداث! ولأن للركوب معنى معروف وهو الركوب وجدنا بعض الروايات التي تقول أن المقصود من ذلك هو ركوب السماء سماءا بعد سماء، والآية تقول للبشر: لتركبن طبقا عن طبق، والطبق كما ورد في اللسان: "الطَّبَقُ غطاء كل شيء، والجمع أَطْباق (...) وطابَقَ بين قميصين. لَبِسَ أَحدهما على الآخر. والسمواتُ الطِّباقُ: سميت بذلك لمُطابَقة بعضها بعضاً أي بعضها فوق بعض، وقيل: لأَن بعضها مُطْبَق على بعض، وقيل: الطِّباقُ مصدر طوبقَتْ طِباقاً. وفي التنزيل. أَلم تَرَوْا كيف خلق الله سَبْعَ سَمَواتٍ طِباقاً؛ قال الزجاج: معنى طِباقاً مُطْبَقٌ بعضها على بعض، (...) وطَبَّقَ السَّحابُ الجَوَّ: غَشّاه، وسَحابةٌ مُطَبِّقةٌ. وطَبَّقَ الماءُ وَجْهَ الأَرض: غطّاه. وأَصبحت الأَرض طَبَقاً واحداً إِذا تغشّى وجهُها بالماء. والماء طَبَقٌ للأَرض أَي غِشاء؛ ..."اهـ

إذا فالله تعالى يخبر البشرية ويعلمهم أنهم سيركبون السماوات سماءا سماءا (الجو والفضاء) تدريجيا من واحد إلى الآخر، وهذا بالفعل ما حدث فلقد طار الإنسان أولا في غلاف الأرض الجوي – بالطائرات بداهة– ثم صعد بعد ذلك إلى الفضاء ثم ارتاد الكواكب بعد ذلك. ونظرا لأن هذا هو المعنى المتبادر إلى الذهن من استعمال الركوب والطبق، وجدنا أن هذا ورد عن بعض السلف كما أورد الإمام ابن جرير في تفسيره، ولكنا وجدنا بعضهم قال أن هذا سيكون في يوم القيامة حيث سنركب سماءا بعد سماء.

فيقدم الله عزوجل لنا صورة جلية وهي الشفق وهو الضوء الأحمر الباقي من الشمس بعد الغروب والليل وما وسق وهو الجمع والضم والحمل والقمر إذا اتسق أي اكتمل واستوى واجتمع وتم واستدار "لتركبن طبقا عن طبق".

فإذا وصل التغير إلى أن الإنسان سيطير في السماء ويرتاد الفضاء، وهو ما كان يعده من ضروب المستحيلات في الماضي، فما له لا يؤمن؟ وإذا كان القرآن قد أخبر بهذا مسبقا، فما له لا يسجد ويخضع؟!

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١﴾

ثم تبين الآيات أن المسألة مسألة تكذيب لا يستند إلى دليل، وإنما رفض للمعروض في القرآن، على الرغم من آية القرآن البينة! والله أعلم بما في صدور المكذبين، فليس الحساب اليسير أو العسير مستندا إلى الظاهر من أفعال الإنسان، وإنما إلى الظاهر والباطن:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾

ولقد انتهت سورة المطففين بالسؤال: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ وتنتهي هذه السورة بأمر النبي والمؤمنين بالإجابة عن هذا السؤال، بتبشيرهم بالعذاب الأليم، إلا من آمن منهم وعمل صالحا:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ۝٢٥﴾

ولأن الكفار كانوا يضحكون من المؤمنين ويتغامزون بهم، فرد الله لهم الصاع وأمر النبي بأن يبشرهم بعذاب أليم!

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة البروج في فلك انتصار الله عزوجل لدينه ولعباده في الدنيا والآخرة.

انتهت سورة الانشقاق بتبشير الكفار بالعذاب الأليم، وتبدأ سورة البروج بالحديث عن عذاب طائفة من هؤلاء الكافرين، وهم الذين عذبوا المؤمنين لإيمانهم، ثم تفصل العذاب الأليم الذي سينزل بهم، فتبين أنه عذاب جهنم وعذاب الحريق!

ونلحظ أن سورة البروج بدأت بالقسم بالسماء ذات البروج –كما بدأت السورة الماضية بالحديث عن السماء كذلك–، والسماء هي محل الاستدلالات في السورة الماضية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾، فكل هذه المشاهد في السماء.

تبدأ سورة البروج بقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ[92] ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ[93] ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

فالله يلعن ويتوعد أصحاب الأخدود بالهلاك، الذين ألقوا المؤمنين في الأخدود، وأخذوا يتسلون ويشاهدونهم وهم يُحرقون. فيقسم الله بالسماء واليوم الموعود الذي سيلاقي كل إنسان فيه كدحه، إما خيرا وإما شرا. وبشاهد من الملائكة ومشهود من

[92] كان من الممكن أن يفهم اليوم الموعود أفهاما عدة، منها على سبيل المثال أنه اليوم الذي حدثت فيه فتنه المؤمنين، عندما ألقوا في الأخدود، ولكن السياق في السورة السابقة وفي هذه السورة يحتم أن يكون المراد منه اليوم الآخر.

[93] نلاحظ مشابهة فعل أهل مكة لأفعال أصحاب الأخدود في تعذيب المؤمنين واضطهادهم، والسورة تثبيت لكل مؤمن يعاني من أجل دينه.

الناس، أو بشاهد من المؤمنين ومشهود من الكافرين! أن أصحاب الأخدود، الذين حاولوا رد الناس عن دينهم، هلكوا ولُعنوا[94]، لأنهم عذبوا المؤمنين وفتنوهم لإيمانهم بالله، الذي له ملك السماوات والأرض، وإذا كانوا هم شهودا على ما يفعلون بالمؤمنين، فإن الله على كل شيء شهيد.

ونلحظ أن سورة المطففين بدأت بالحديث عن صنف ينقص الناس حقوقهم المادية ويستوفي لنفسه، وهنا السورة تتحدث عن صنف يمنع الناس حقوقهم العقلية والفكرية، فيجبرهم على الردة وترك الإيمان!

ثم تبين السورة حال المعذِبين الكافرين الفاجرين، وحال المؤمنين الصالحين في اليوم الموعود، فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ[95] ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

فقد انقلب الحال، فأصبح هؤلاء في النار وهؤلاء في جنات تجري من تحتها الأنهار! ولكن الفرصة لا تزال مفتوحة، فلو تابوا على الرغم مما فعلوه، فسيغفر الله عزوجل لهم، أما إذا لم يفعلوا فيستحقون عذاب الحريق.

ثم تصل السورة إلى محورها الرئيس، فتقول:

﴿إِنَّ بَطْشَ[96] رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾

---

[94] يقول ابن فارس في المقاييس: "القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ. (...) ومن ذلك: قتلتُ الشيءَ خُبراً وعِلْماً" اهـ

[95] نلحظ أن الله ذكر عذاب الحريق بعد عذاب جهنم، والناظر في القرآن يجد أن عذاب الحريق مختص بمن يضل ويصد عن سبيل الله، وهؤلاء اقترفوا هذا بفتنتهم المؤمنين لردهم عن دينهم كرها، فاستحقوا عذاب الحريق. والآية عامة في كل من فعل هذا ويفعله بالمؤمنين في كل زمان ومكان، فمآله إلى جهنم وعذاب الحريق والمؤمنون في جنات النعيم.

فتبين أن الله ينتصر لعباده ولدينه فيبطش بالكافرين المناوئين، وإن لم يكن في الدنيا فهو في الآخرة، فهو يبدئ ويعيد (ردا على الإنسان الذي ظن أنه لن يحور!)، فمن يبدئ يعيد! وعلى الرغم من بطشه فهو غفور ودود لمن تاب وأناب، لا يرده شيء عما يريد، فله ملك السماوات والأرض، ولقد بطش الله بمن طغى وتجبر فيما مضى كما فعل بفرعون ذي الأوتاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وبطشوا بالعباد!

ونلاحظ أن الله تعالى قال قبل أن تنتهي سورة الانشقاق بآيتين: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾-، وقال هنا كذلك قبل النهاية بآيتين:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾

فلما تحدث في الانشقاق عن فعل التكذيب، قال أنه أعلم بما يوعون في صدورهم، فلا يخفى عليه شيء، أما هنا فقال أنهم هم أنفسهم في تكذيب، فهم في غمرة، وهو من ورائهم محيط فلا يمتنعون هم أنفسهم منه، فمتى أراد البطش بهم كان ذلك!

ثم يقول الله تعالى ردا على من يكذب بالقرآن وبأخباره، وبمن لا يؤمن به وإذا قُرأ عليه لا يسجد، وبمن يعذب المؤمنين ويضطهدهم، أن الكتاب مجيد محفوظ، لا يمسه الأذى أو الإهانة ولو نزلت بالمؤمنين، فهو ظاهر بإذن الله على الدين كله:

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾

فمهما فعلتم يا أهل مكة بالمؤمنين فلن يُضير هذا الدين شيئا، فالقرآن مجيد في لوح محفوظ، وسيكون له النصر والظهور بإذن العزيز الغفور، فكما أن السماء محمية بالبروج فكذلك القرآن محفوظ.

(96) البطش معروف وهو التناول بشدة عند الصَّوْلة والأَخذُ الشديدُ في كل شيء.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الطارق في فلك حفظ الله التام للبشر، ولكل ما يصدر عنهم.

تبدأ سورة الطارق بقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ[97] ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ[98] ٤﴾

ولقد انتهت السورة الماضية بالحديث عن اللوح المحفوظ، وتبدأ هذه السورة بالحديث عن السقف المحفوظ وهو السماء[99]، وبأظهر نجم في السماء وهو الشعرى –كما نرى والله أعلم–، كدليل على وجود حافظ على كل نفس، يحفظها ويحفظ عليها أعمالها.

والله عزوجل يقدم لنا السماء والطارق كنموذج مشابه للإنسان والحافظ، فالملاك الحافظ للإنسان محيط به ومطلع عليه، وأينما ذهب وولى فالملاك عليه حافظ، وكذلك الطارق في السماء فمهما شرق أو غرب أو تحرك فالسماء محيطة به شاهدة

---

(97) الطارق ليس اسما مثل السماء، فلا يوجد شيء معين اسمه الطارق وإنما هو وصف لمدلولات متعددة، و"طرق" من المفردات التي يصعب تحديد معنى جامع شامل لها، حتى إننا نجد ابن فارس يقول عند تناوله لها: "الطاء والراء والقاف أربعة أصول: أحدها الإتيان مَسَاءً، والثاني الضَّرْب، والثالث جنسٌ من استرخاء الشيء، والرابع خَصْف شيء على شيء." اهـ

وعلى الرغم من التباين الشديد في المداليل التي ذكرها ابن فارس إلا أن المرء يستطيع أن يخرج بتصور عام للمراد من الطرق، فالطرق يدل على حركة مباغتة معاكسة.

(98) الآية وإن كانت عامة يدخل فيها كل الأنفس، إلا أن المقصود الأعظم بها هو النفس البشرية، ويؤيد هذا التخصيص السياق وباقي الآيات في السورة، *ونحن نرى أن في هذه الآية إشارة* –استقيناها واستخرجناها من السورة والسورة الماضية– إلى ثبوت حفظ نفس مخصوصة وهي نفس الرسول الأعظم والنبي الأكرم، فلا يمسه سوء أو ضر أو كيد من الكافرين!

(99) إذا بحثنا في القرآن نجد أن كلمة "محفوظ" لم ترد في القرآن الكريم كله إلا مرتين فقط، إحداهما في الآية الأخيرة من السورة الماضية ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [سورة البروج, ٢٢]، والأخرى في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [سورة الأنبياء, ٣٢] إذن فالسماء سقف محفوظ واللوح محفوظ وكلاهما محفوظ بقدرة الله تعالى وعونه، واللوح المحفوظ وعاء القرآن المجيد وحافظ له، والسماء المحفوظة هي وعاء الإنسان المكرم وحافظة له!

عليه، وهو تابع لها وخاضع في عين الوقت، وكما أن الطارق طارق، قد يظهر ويختفي عن عيوننا –ولكنه يبقى في السماء– فكذلك الإنسان طارق على الملاك الحافظ، فالملاك موجود قبل الإنسان ومعه وعليه، فإذا غاب الإنسان –مات– يظل الملاك كما هو، حافظا لكل ما صدر عن الإنسان، وكما أن الطارق هو النجم الثاقب أظهر نجم في السماء فكذلك الإنسان هو أظهر المخلوقات على وجه الأرض!

ثم يدعو الله عزوجل الإنسان إلى النظر في مظاهر الحفظ المحيطة به، منذ بدء تكوينه وطيلة حياته، فهو محاط بالعجز والاحتياج إلى الغير:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ[100] ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

فلولا الحفظ المستمر لكان احتمالية ولادة الإنسان حيا واستمراره في الحياة ضعيفة جدا.

ثم يبين له أن الملاك الحافظ عليه قادر على إحضار أعماله في موقف الحساب، وهناك لا قوة له ولا ناصر يعين:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ[101] لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

---

[100] في هذه الآية إشارة علمية عظيمة على دقة التوصيف القرآني، ولكن المفسرين أضاعوا هذه الإشارة وغفلوا عنها، عندما جعلوا اسم الفاعل: دافق، اسم مفعول، بمعنى "مدفوق"! وغفر الله للمفسرين، فما كانوا يتصورون أن السمة الكبرى للمني أنه دافق ويتصورونه مدفوقا، فلقد مرت الأيام والقرون وأثبت العلم الحديث أن الحيوانات المنوية تتحرك حركة ذاتية إلى الإمام، فهي تتدفق في رحم المرأة، وحركة الحيوانات المنوية أكثر أهمية من عددها، *ولو لم تكن الحيوانات المنوية دافقة لما حدث أبدا حمل ولا خلق للإنسان!*

[101] يرى السادة المفسرون أن عود الضمير في الآية هو على الله (الذي لم يُذكر في السورة) وأن المراد من الرجع هو إعادة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى في اليوم الآخر! والعجيب أن العود واضح ولكن القارئ يغفل عنه، فما المانع من أن يعاد الضمير إلى "حافظ" المذكور في قوله تعالى "إن كل نفس لما عليها حافظ"؟! أي أن الحافظ قادر على رجع الإنسان يوم القيامة! وقد يعترض بعض القراء ويقول: كيف ننسب فعل إعادة الإنسان إلى الملك، فالمفترض أن يُنسب إلى الله تعالى؟ وهنا يأتي اختلافنا الثاني مع السادة المفسرين فليس المراد من "رجع" في الآية الكريمة إعادة الإنسان في اليوم الآخر وبعثه، وإنما المراد منها شيئا آخر سنذكره بعد سطور قلائل. وننظر أولا في لسان العرب، آخذين بعض ما ذكره ابن منظور في هذه الكلمة، كتوجيه ومستند لنا فيما استنتجناه: "رَجَع يَرْجِع رَجْعاً ورُجُوعاً ورُجْعَى ورُجْعاناً ومَرْجِعاً ومَرْجِعةً: انصرف. وفي التنزيل: إن إلى

ربك الرُّجْعى، أَي الرُّجوعَ والمَرجِعَ، مصدر على فُعْلى؛ وفيه: إِلى الله مَرْجِعُكم جميعاً، أَي رُجُوعكم؛ حكاه سيبويه فيما جاء من المصادر التي من فَعَلَ يَفْعِل على مَفْعِل، بالكسر، (...) *والرَّجْع: رَدّ الدابة يديها في السير ونَحْوُه خطوها. والرَّجْع الخطو.* (...) *ورَجْعُ الجَوابِ ورَجْع الرَّشْقِ في الرَّمْي: ما يَرُدُّ عليه.* والرَّواجِعُ: الرِّياح المُخْتلِفَةُ لمَجِيئها وذَهابها. والرَّجْعُ والرُّجْعَى والرُّجْعان والمَرْجُوعَةُ والمَرْجُوعُ: جواب الرسالة؛ قال يصف الدار: سأَلْتُها عن ذاك فاسْتَعْجَمَتْ، لم تَدْرِ ما مَرْجُوعةُ السَّائلِ ورُجْعان الكتاب: جَوابه." اهـ

وكما لاحظ القارئ الكريم فلقد وضع ابن منظور كل المصادر في سلة واحدة، وبداهة هناك اختلاف بين الرجوع والرجعى والمرجع والرجعان، فإذا قلنا أن الرجع بمعنى الرجوع فهذا مخالفة للمنطوق، وعلينا أن نفهم الرجع بمعنى الرجع! ونطلب إلى القارئ أن يرجع إلى اللسان فيتتبع كلمة "الرجع" ويسأل نفسه: لماذا وضعت العرب كلمة "الرجع" كمائز لهذه المداليل وليس لغيرها؟ وهل من الممكن أن نضع مكانها كلمة *الرجوع*؟ فالرجع يأتي –على سبيل المثال لا الحصر– بمعنى الخطو، فهل من الممكن أن نضع مكانه "الرجوع" ويكون بمعنى الخطو؟! إذا نحن تتبعنا الرجع في القرآن وجدناه في ثلاثة مواطن فقط، موطنان في السورة، وهما الآية التي نتناولها وقوله تعالى: "وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ" وموطن في سورة ق وهو قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [سورة ق ,٣]، وبما أن الله تعالى قال "رجع" فعلينا أن نفهمها ك "رجع" وليس كرجوع أو رجعى أو أي كلمة أخرى! *ولو أخذنا بقول المفسرين وقلنا أن الرجع بمعنى الرجوع أو الإرجاع فسيسبب لنا إشكالية كبرى فسيكون* معنى الآيات أن الله قادر على إعادة الإنسان في يوم ابتلاء السرائر، وهنا سيظهر التعارض فالإنسان قد أُحيي وبُعث وبدأ حسابه، فكيف يقول الله أنه قادر على إحيائه في هذا الموقف؟!!! ولا يقولن قائل: أن قوله تعالى "يوم تبلى السرائر" إشارة إلى اليوم الآخر كله! فلقد أثبتنا فيما مضى أن اليوم الآخر هو الاسم الجامع لكل المواقف التي ستكون في هذا اليوم، ولا توجد مسميات أخرى له، أما إذا قيل يوم القيامة أو يوم الخروج أو يوم الفصل أو يوم الدين أو ... فهذه أسماء لمواقف مخصوصة في اليوم الآخر ولا يمكن أن تتعدى فتشمل اليوم كله، وإنما يراد بها الموقف الذي يراد وصفه! والذين قالوا بهذا القول هم الذين مكنوا غير المسلمين من القول بوجود تناقض في القرآن، بقولهم إن القرآن ينفي الشيء ويثبته في عين الوقت، ويستدلون على قولهم بآيات واردة في اليوم الآخر، ولكن لا تعارض فهي في مواقف مختلفة، ولكن السادة جعلوها كلها يوما واحدا تاما، ثم حاولوا أن يلغوا التعارض الذي أوجدوه هم! فعلى قولهم: فإن الله قادر على بعث الإنسان وارجاعه في الوقت الذي يحاسبه فيه ويخبره بما اقترفت يداه! وهذا مخالف لكثير من آيات القرآن والتي تقول أن الرجوع سيكون أولا ثم بعد ذلك يكون ابتلاء السرائر والإنباء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾ [سورة الأنعام ,٦٠]، وهنا على القارئ أن يتوقف ليسأل نفسه: *وما هو رجع الإنسان والذي هو ليس بمعنى إحيائه؟* نقول: اسمح لي عزيزي القارئ أن أعرض لك كيف فهم المفسرون "الرجع" في آية "والسماء ذات الرجع"، من خلال تفسير الإمام الفخر الرازي، والذي قال فيه: "أما قوله: {والسماء ذَاتِ الرجع} فنقول: قال الزجاج الرجع المطر لأنه يجيء ويتكرر. واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر بل سمي رجعاً على سبيل المجاز، ولحسن هذا المجاز وجوه أحدها: قال القفال: كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته ووصل الحروف به، فكذا المطر لكونه عائداً مرة بعد أخرى سمي رجعاً. *وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض*، وثالثها: أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً ليرجع، ورابعها: أن المطر يرجع في كل عام، إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين أقوال: أحدها: قال ابن عباس: {والسماء ذَاتِ الرجع} أي ذات المطر يرجع لمطر بعد مطر، وثانيها: رجع السماء إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعاً، أي تعطيه مرة بعد مرة وثالثها: قال ابن زيد: هو أنها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما، والقول هو الأول" اهـ

فكما رأينا فلقد فهم المفسرون الرجع على أنه المطر –وهو شيء يصدر عن السماء، لا أن السماء نفسها هي التي ترجع– وكذلك قالوه في الصوت وهو شيء ينفصل عن الإنسان ثم يعود إليه إذا كان هناك حائل (صدى الصوت). ومن خلال هذا استطعنا أن نحدد المراد من رجع الإنسان هو ما يصدر عنه من أفعال وأعمال والتي يسجلها الملك الحافظ كما هي في كتابه.

ففي هذا اليوم تُظهر أعماله[102] التي اقترفها في الدنيا، كشاهد عدل لا راد له، لا يستطيع الإنسان أن يجادل معه.

وبهذا يكون المراد من الآية أن الحافظ على الإنسان قادر على وحافظ لكل ما صدر عن الإنسان في حياته، وسيبرزها ويعرضها في يوم تبلى السرائر! وبهذا الفهم يظهر لنا وجه شبه جديد بين السماء والطارق وبين الإنسان والحافظ، فكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال مسجل ومجموع ومكتوب لدى الحافظ "كراما كاتبين" وإن كان يبدو للعيان أنه قد انقضى وولى ونُسي، وكذلك كل ما يصدر عن النجم من ضوء، فإنه وإن كان ظاهرا للعيان أنه قد تشتت وضاع فإنه لن يخرج ويذهب أبدا بعيد عن نطاق السماء وإنما سيظل محصورا ومجموعا فيها!

وآية سورة ق مؤيدة لنا فيما نقول، ففيها يقول الله تعالى ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [سورة ق ,٣]، فالكافرون لما جاءهم المنذر –بالبعث والعذاب بعد الموت بداهة– قالوا وتساءلوا: هل سيحدث هذا بعد الموت وبعد كوننا تراب؟! إن هذا لرد –على أفعالنا– أو لنتيجة بعيدة الوقوع، فيرد الله عليهم بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ [سورة ق ,٤]"، ليس بعيد الوقوع فهو واقع واقع فعلمنا تام وعندنا كتاب حفيظ.

إذا فالرجع هنا في الطارق وهناك في ق يدور في فلك العلم والكتابة والحفظ، *وهذا دليل على أن الرجع بمعنى ما يصدر عن الشيء لا أنه بمعنى عودة الشيء مرة أخرى!* فيكون المعنى أن الحافظ قادر على رجع الإنسان –ما صدر عنه من الأقوال والأفعال (لاحظ أن الرجع يستعمل أساسا مع الأصوات)–، وهذه الآية وغيرها من الآيات تؤكد أن الإنسان سيرى أعماله حاضرة يوم القيامة، فالله تعالى يقول: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [سورة الكهف ,٤٩]، فما عمله الإنسان "رجعه" يجده حاضرا! ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ [سورة آل عمران ,٣٠]، فهنا يذكره الله تعالى بصيغة المفعول "محضر"، وصاحب السوء يود الابتعاد عنه! وتأتي آية البقرة فتقضي على كل خلاف ونزاع فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [سورة البقرة ,١٦٧]، فالله سيريهم أعمالهم –الحاضرة أو المحضرة– حسرات عليهم! ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [سورة الفرقان ,٢٣]، فهذا العمل الذي سيُجعل هباءا منثورا يوم يرون الملائكة هو ما نقصده بالرجع، والذي الحافظ عليه قادر يوم تبلى السرائر! فهو يعرضه ويظهره فلا يتفلت منه شيء أو يُنسى أو يجعله هباءا منثورا، كل بأمر الله وبقدرته!

ولا يتعجب القارئ من تسمية الله عزوجل لما يصدر عن الإنسان "رجع"، فهذا هو التوصيف المثالي له، وستمر السنون ويكتشف الإنسان كم كان هذا الوصف دقيقا! ولا ينسى القارئ أن الله عزوجل *سمى عمل الإنسان "طائر"* وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [سورة الإسراء ,١٣] (ولاحظ هنا ارتباط الطائر بالكتاب وكذلك ارتباط الرجع بالكرام الكاتبين الحافظين). إذا فالمراد هو التأكيد أن ذلك الحافظ، والذي سيأتي مع الإنسان –﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [سورة ق ,٢١]– قادر على أعمال الإنسان، "يوم تبلى السرائر".

[102] كيف تُبلى السرائر؟ اختلف المفسرون في الإجابة على هذا السؤال، وقدموا إجابات مختلفة لتبرير كيفية بلو السرائر، ونحن نرى أن البلو هو بمعناه الرئيس وهو الإخلاق! كما نقول: ثوب بال! أي أنه قد استهلك وصار قديما مهلهلا. ولقد قلنا أن الرجع هو أعمال الإنسان التي صدرت عنه ثم ترجع يوم الحساب فتُعرض كما وقعت، فلما عُرضت أعمال الإنسان بليت سرائره فلم تعد

ثم يقسم الله عزوجل بالسماء ذات المطر والأرض ذات الصدع أن مسألة الحفظ التامة قول فصل وليست بالهزل، فالإنسان سيرى أعماله كاملة في ذلك الموقف كما اقترفها في الدنيا:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ(103) ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ(104) ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ(105) لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾

سريره وإنما صارت مكشوفة معروضة وصار هو نفسه مفضوحا! ويكون بلو السرائر بعد أن يجادل الإنسان ويحلف كذبا ويحاول أن يتبرأ من أفعاله، فيأتيه الرجع وعرض الأعمال فيصمت!

(103) ذكرنا سابقا للقارئ مدلول الرجع وقلنا أنه بمعنى المطر كما ورد عن ابن عباس، وهناك بعض أنصار التفسير العلمي للقرآن يميلون إلى التوسع في مدلول "رجع السماء" فيقولون أن للسماء أنواع عديدة من الرجع، مثل رجع الشهب والنيازك والإشعاعات القاتلة! ونحن نرفض هذا التوسع، لأننا نرى أنه مخالف لمدلول "الرجع"، فليس رد السماء للنيازك والشهب من باب الرجع بحال!

(104) يرى بعض المفسرين على أن المراد من الصدع: النبات، وبعض دعاة الإعجاز العلمي يذهبون بالصدع مذاهب بعيدة ويقولون أنه صدع واحد يطوق الأرض! ولست أدري ما علاقة هذا الصدع بالسياق أو بالآيات! أما نحن فنأخذ برأي ابن عباس ونقول أنه تصدع الأرض عن النبات والأشجار، استجابة لرجع السماء، لأننا نفهم الصدع أنه شق ظاهر ناتج عن استجابة لمؤثر، وذلك كما يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحج, ٥] –وهنا تظهر يد العناية والحفظ الربانية، فلولا اهتزاز الأرض وربوها لما خرج النبات من الأرض، فكما يقول علماء النبات: لو اصطدم النبات في تلك المرحلة وهو يخرج من التربة بالأرض لانحنى وما خرج أبدا، فانظر إلى الحفظ والإعداد من الله العلي!

(105) الضمير في "إنه" يعود بداهة إلى المذكور سابقا، و لكن العجيب أن بعض السادة المفسرين –مثل الإمام الألوسي– جعلوا الضمير في "إنه" عائدا على القرآن، على الرغم من أنه لم يسبق له ذكر في السورة كلها! كما فعلوا في الضمير "إنه" في قوله تعالى "إنه على رجعه لقادر" حيث أعادوه على "الله" على الرغم من أنه لم يسبق له ذكر كذلك في السورة!

ولقد حاول الإمام الفخر الرازي أن يتفادى هذه الإشكالية، فوقع في مأزق آخر، ولننظر ماذا قال الإمام الفخر: "{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} وفيه مسائل: المسألة الأولى: في هذا الضمير قولان: الأول: ما قال القفال وهو: أن المعنى أن ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم في اليوم الذي تبلى فيه سرائركم قول فصل وحق. والثاني: أنه عائد إلى القرآن أي القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان، والأول أولى لأن عود الضمير إلى المذكور السالف أولى. {قَوْلَ فَصْلٌ} أي حكم ينفصل به الحق عن الباطل، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم، ويقال: هذا فصل أي قاطع للمراء والنزاع، وقال بعض المفسرين: معناه أنه جد حق لقوله: {وَمَا هوَ بالهزل} أي باللعب، والمعنى أن القرآن أنزل بالجد، ولم ينزل باللعب، ثم قال: {وَمَا هوَ بالهزل} والمعنى أن البيان الفصل قد يذكر على سبيل الجدا!" اهـ

فكما رأينا فلقد اختار الإمام القول القائل بعود الضمير إلى المذكور سالفا، ولكنه عاد بعد ذلك بسطور قلائل فجعل الضمير عائدا على القرآن! ولست أدري كيف يكون عائدا مرة إلى قول وفي الآخرى إلى الآخر!!

وليس هذا القول هزلا وإنما واقع سيراه الإنسان.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ[106] كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾

ثم يبين الله عزوجل أنه يكيد كيدا مقابل لكيد الكافرين لإبطال الدين، -والذي رأينا نموذجا منه في السورة الماضية بتحريق المؤمنين وفتنتهم عن دينهم، وكما فعل أهل مكة مع الرسول الكريم ويفعلون من أجل قتله وإبطال دعوته، وكما يفعل أرباب الكفر في كل زمان ومكان-.

وقد يذهب الذهن مذاهب عدة في فهم كيد الكافرين، إلا أننا نميل إلى اختيار قول واحد مناسب لسير السورة -يظهر العلاقة بين الآيتين والآيات السابقة- وهو أنهم يكيدون كيدا بقصدهم قتل النبي الكريم وإيذاءه وإبطال دعوته، واخترنا هذا بناءا على تأكيد الله تعالى على أن على كل نفس حافظ واستنادا إلى خطابه للنبي الكريم في آخر السورة، وهناك قلنا أن فيها زيادة تأكيد على حفظ نفس مخصوصة وهي نفس النبي الكريم، وفي السورة الماضية تحدث الله عن حفظ القرآن المجيد في اللوح المحفوظ، فيناسب هنا كون الحديث عن حفظ النبي الكريم الذي جاء بالقرآن. ويكيد

أما نحن فنقول أن الضمير عائد على المذكور سابقا وهو الحفظ التام للإنسان حتي يصل الحفظ إلى الأعمال "رجع الإنسان"، وهذا القول يبدو مستغربا وقد يظنه البعض هزلا، فكيف تكون الأعمال حاضرة محضرة يوم تبلى السرائر، لذلك قال الله تعالى "إنه لقول فصل وما هو بالهزل"، أما أن نعيد الضمير على القرآن فبعيد ومستغرب، *فمتى وأين قال المشركون أن القرآن كتاب هزلي أو فيه هزل؟!* وإذا قالوا فقولهم لا يلتفت إليه لأن بناء القرآن واضح الجدة والصرامة! وحتى عود الضمير على البعث فبعيد، فما من قائل أن البعث هزل، نعم ربما يقول قائل أنه تنقصه الحجة، أما أن يقول قائل أنه هزل فبعيد، لأن له من الأدلة والحجج المنطقية التي تخرجه بحال من الهزل وتدخله في منطقة الخلاف المنطقي! إذا فعلى قولنا فهناك مبرر لقول الله تعالى "إنه لقول فصل وما هو بالهزل"، أما على القولين الآخرين فبعيد جدا ولا مبرر عندهم لماذا وصف الله القرآن بهذا الوصف!

[106] حاول الإمام الفخر الرازي -محمودا- أن يبرر أن الله تعالى يكيد! مع أن أصل مدلول الكلمة لا حرج فيه، فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الكاف والياء والدال أصلٌ صحيح يدلُّ على معالجةٍ لشيء بشدّة، ثم يتّسع الباب، وكلّه راجعٌ إلى هذا الأصل. قال أهلُ اللُّغة: الكيد: المعالجة. قالوا: وكلُّ شيءٍ تُعالِجُه فأنت تَكِيدُه. هذا هو الأصل في الباب، ثم يسمُّون المَكر كيداً. قال الله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ... ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الـطور, ٤٢]. ويقولون: هو يَكيدُ بِنَفسهِ، أي يجودُ بها، كأنَّه يُعالِجها لتخرُج. والكَيْد صِياح الغراب بجَهْدٍ. والكَيد أن يُخرِج الزّندُ النّار ببطءٍ وشدة، والكَيد: القَيء، وربّما سمَّوا الحَيض كيداً. والكَيد الحرب، يقال: خرجوا ولم يلقَوْا كيداً، أي حرباً." اهـ

الله تعالى كيدا، وكيد الله بداهة يغلب كيد الكافرين ويحفظ نبيه وضامن لبقاءه واستمرار دعوته.

وكيده هو إبطال كيدهم وحفظ دينه ونبيه ونصرته، ولكن هذا لن يحدث بين ليلة وضحاها:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ[107] رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

أي لا تعجل، فلهؤلاء الكافرين أجل معلوم سيصلونه لا محالة، وسينزل بهم العذاب لا محالة، سواءا في الدنيا أو في الآخرة، وهذا العذاب ليس عذابا واحدا ولكنه أكثر من عذاب فهناك أدنى وأكبر وهو قريب واقع!

ونلاحظ أن الله عزوجل يأمر النبي الكريم بإمهال الكافرين لا بالصبر عليهم! فالنبي هو الواثق الأكيد ذو المركز الأقوى المحفوظ برعاية الله، وهذا يؤكد ما قلناه من أن المراد من كيد الكافرين هو قتل الرسول وإيذاءه، وأن حفظ النفس زائد مع الرسول: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة الرّعد, ١١]، وهو الذي يمهل الكافرين ويعاملهم برفق وتؤدة في مقابل أعمالهم الجاهلة الحاقدة، وهو الأسوة الحسنة لنا ولجميع المسلمين.

(107) نلاحظ أن الله عزوجل استعمل في الآية "مهل" وهي على وزن فعل بتضعيف العين و "أمهل" على وزن أفعل، وهناك فارق في المدلول بين الاثنين، ف: بناء (فعّل) يفيد التكثير والمبالغة غالبا نحو: (قطّع وكسّر وفتّح وحرّق)، ومن مقتضيات التكثير والمبالغة في الحدث استغراقُ وقت أطول، وأنه يفيد تلبثا ومكثا، ف (قطّع) يفيد استغراق وقت أطول من (قطَع)، وفي (علّم) من التلبث وطول الوقت في التعلم ما ليس في (أعلم). تقول (أعلمت محمدا خالدا مسافرا) وتقول: (علمته الحساب)، ولا تقول (أعلمته الحساب). وليس في الآية أي تكرار لفظي أو معنوي، فالله عزوجل يأمر النبي الكريم بتمهيل الكافرين أي أنه سيصدر عنهم مرات عديدة ما يستوجب تعجل النبي الكريم عليهم، فعليه أن يتمهل عليهم في هذه المرات مهما كثرت ومهما تكررت، ثم يقول له: أمهلهم رويدا أي أن إمهالك لهم هو إمهال قصير عاجل لا طول فيه، فسيأتي النصر من عند الله تعالى سريعا قريبا!

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الأعلى في فلك أهمية ذكر الله عزوجل وربط الإنسان قلبه به. وتأتي هذه السورة كنتيجة للسورة الماضية، التي توعد الله فيها بحفظ الدين والرسول، فيؤمر ويرشد مقابل ذلك بتسبيح الله الذي ينجز ما وعد به!

انتهت سورة الأعلى بأمر الرسول أن يمهل الكافرين، –لاحظ أنه هو الذي يمهل الكافرين، فهو الذي يتحرك من منطلق القوة، لاستناده إلى حفظ الله وانتصاره له–، وتبدأ هذه السورة بأمره بتسبيح ربه الأعلى، الذي يسير كل شيء في الكون تبعا لما شاء وأراد، فلا يحدث أي شيء إلا بإذنه:

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ[108] رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ[109] ٢﴾

---

[108] ذُكر التسبيح بصيغ متعددة في القرآن، فجاء بصيغة المصدر: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [سورة البقرة, ٣٢]، كما ذكر بصيغته الفعلية، سواء كانت ماضية أو مضارعة أو بصيغة الأمر، فجاء الإخبار عن التسبيح بصيغة الماضي في مثل قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ [سورة الحديد, ١]
وجاء الإخبار عن التسبيح بصيغة المضارع في مثل قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [سورة الإسراء, ٤٤]، ونلحظ في هذه الآيات الحديث عن تسبيح لله وعن تسبيح بحمده، وأظن أن القارئ يدرك أن هناك فارق بين التسبيح المجرد والتسبيح بحمدالله تعالى، فالتسبيح بحمد الله تعالى تسبيح مخصوص، وليس هو قولنا "سبحان الله وبحمده" فهذا الذكر الوارد عن النبي الكريم –إن صح– كان تصرفا من النبي الكريم، جمع فيه التسبيح والتحميد في ذكر واحد، أما التسبيح بحمد الله فيكون بتنزيه الله تعالى وأفعاله عن النقص والخلل والتيقن بأن ما يفعله الله هو الخير للإنسان، ومن ثم حمده تعالى عليها، فإذا فعل ذلك تحقق الرضا عند الإنسان، لذلك نجد قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [سورة طه, ١٣٠]
كما جاء التسبيح بصيغة الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿... وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [سورة آل عمران, ٤١]
والملاحظ في الآيات التسبيح كلها أنها تدور في فلك تسبيح الله أو التسبيح له أو التسبيح بحمده، إلا في هذه الآية التي نتناولها فنجد أنها بدأت بالأمر بتسبيح اسم الرب الأعلى.
إذن فالله تعالي يأمر نبيه الكريم بتسبيح اسم ربه الأعلى، فيفهم من هذا أن باقي الآيات التي تحدثت عن تسبيح الله عزوجل تشمل نفسه سبحانه واسمه، ونبهت هذه الآية على وجوب تنزيه اسماء الله عزوجل، حتى لا يجول في ذهن الإنسان أن القداسة قائمة لنفس الله عزوجل، أما الاسماء فهي حروف وتواضعات من البشر.

فتبدأ السورة في التعريف ببعض أفعال ذلك الرب الأعلى، الذي أمرت الإنسان بتسبيح اسمه، –ونلاحظ أن السورة الماضية أمرت الرسول الكريم بالتمهيل بعد الإخبار عن فعل حديث لله عزوجل "الكيد"، سيرى الإنسان أثره، أما هنا فأمرت بالتسبيح قبل الإخبار بأفعال رأها الإنسان– فتقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾، وذلك كما ورد في سورة الانفطار بعد التساؤل عن اغترار الإنسان بربه الكريم، فقيل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار, ٧]، ولما كان الخطاب في الانفطار خاصا بالإنسان "يا أيها الإنسان"، ناسب أن يقال: "خلقك"، ولما كان الحديث هنا عاماً ناسب أن يقال: "الذي خلق فسوّى".

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ[110] ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ[111] ۝٥﴾

ولقد أجاد الإمام الألوسي عند تناوله لهذه الآية، فقال: "أي نزه أسماءه عز وجل عما لا يليق فلا تؤول مما ورد منها اسماً من غير مقتض، ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً، إذا كان مختصاً كالاسم الجليل أو على وجه يشعر بأنه تعالى والغير فيه سواء إذ لم يكن مختصاً فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلا: هذا رازقي، على وجه يشعر بذلك، وصنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به كالخلاء وحالة التغوط وذكره لا على وجه الخشوع والتعظيم. وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه، وعن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه إنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول: ما عندي ما أعطيك أو ائتني في وقت آخر أو نحو ذلك ولا يقول نحو ما يقول الناس: يرزقك الله تعالى أو يبعث الله تعالى لك أو يعطيك الله تعالى أو نحوه، فسُئل عن ذلك فقال: إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسؤول ما يفيده رده وحرمانه فأنا أجل اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو في ضمن جملة. " اهـ

ونضيف نحن فنقول: قال الله تعالى في نهاية السورة الماضية: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ ثم بدأ السورة بالأمر بتنزيه اسم الله تعالى، ففي هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أن يُجعل فعل الله عزوجل اسما له، كما فعل كثيرون، فاشتقوا له صفات!! من أفعاله! –وليس له سبحانه وتعالى صفات وإنما أسماء!– تعالى الله عما يصفون! فلا نقول مثلاً، استنادا إلى الآية الماضية: الله كائد، وإنما نقول: الله يكيد للكافرين، فليس الكيد من أسمائه سبحانه، وإنما من أفعاله، وشتان ما بين الاثنين.

(109) كقاعدة عامة فإن الأمر بالعبادة في القرآن يأتي دوما مرتبطا بالخلق والقيومية، فنحن مأمورون بعبادة الله عزوجل لأنه هو الذي خلقنا وخلق السماوات والأرض، وقائم علينا وعليها، وذلك حقيق أن يُعبد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [سورة البقرة, ٢١]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢﴾ [سورة الأنعام, ١٠٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [سورة يونس, ٣].
وجاءت هذه الآية بعد الأمر بالتسبيح كاطّراد لهذه القاعدة، فنحن نسبح الرب العلي لأنه هو الذي خلق.

(110) *الاستدلال الوارد في هذه السورة مماثل لذلك الوارد في سورة طه وهو دليل العناية*، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [سورة طه, ٥٠]، وتواصل السورة الحديث عن توفير الله عزوجل للإنسان ما يحتاج، فتقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [سورة الأعلى, ٤].

فالله هدى كل الخلق لما يناسبهم، وأخرج لهم ولما ليسوا له برازقين ما يحتاجون. وبعد الحديث عن نعم الله عزوجل على الإنسان نفاجئ بآية لا تسير على هذا النسق، فالآية التالية لا تتحدث عن نعمة وإنما تتحدث عن إهلاك هذه النعمة، ومناسبة الآية لهذا السياق هي تذكير الإنسان بالآخرة، وأن هذه الدنيا الكبيرة التي خلقها الله عزوجل وسواها ستنتهي في يوم من الأيام وتصبح حصيدا هشيما كما صار هذا النبات غثاء أحوى.

ولقد ضرب الله عزوجل لنا مثل الدنيا في القرآن، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس, ٢٤]

وقارن هذه الآية بآيات سورتنا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

فالله عزوجل يقول للإنسان الغافل: ما دنياك الكبيرة هذه إلا كالنبات الذي تراه، وهاأنت تراه يهلك ويصير غثاءا أحوى، والدنيا ستصبح مثله في يوم من الأيام، فهلا خضعت وأطعت وعرفت!

فالله أخرج للإنسان بخلاف ما يحتاجه مرعى لأنعامه، التي يأكلها وينتفع بها في مجالات شتى، ونلحظ استمرار تماثل الاستدلال بين السورة وسورة طه، فنجد أن الله تعالى يتحدث عن مظاهر لتسويته لخلقه، ثم يذكر نعمه على الإنسان وهي إمداده بما يحتاجه هو وحيواناته، وقارن بين الآيات: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الأعلى, ٤]. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة طه, ٥٣-٥٤]

(111) الحُوَّةُ: سواد إِلى الخُضْرة، وقيل: حُمْرةٌ تَضْرب إِلى السَّواد، وقد حَوِيَ حَوىً واحْوَاوَى واحْوَوَّى، مشدّد، واحْوَوى فهو أَحْوَى، والنسب إِليه أَحْوِيٌّ؛ (...) الفراء في قوله تعالى: والذي أَخْرج المَرْعى فجعله غُثاءً أَحْوى، قال: إذا صار النبت يبيساً فهو غُثاءٌ، والأَحْوَى الذي قد اسودَّ من القِدَمِ والعِتْقِ.

ولا يقتصر حفظ الله للرسول الكريم على حفظه المادي من أذى الكافرين، وإنما إلى حفظ قلبه، فيتابعه ويواليه حتى لا يغفل عن الله وعن ذكره وعن اتباع أوامره، وكذلك يوجهه إلى ما فيه اليسر والخير:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ(112) ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

(112) سببت هذه الآية إشكالا كبيرا للمفسرين، وسبب الإشكال هو أن السادة المفسرين قاطبة فهموا أن المراد من النسيان في الآية هو نسيان القرآن! لذا اختلفوا هل المراد النفي، أي أن الرسول لن ينسى، أم النهي بمعنى أنه يؤمر بألا ينسى!!!

وحاولوا الخروج من هذا المأزق! وقدموا توجيهات للآية، إلا أن الآية تظل دوما مصدر حيرة للمسلم وموطن طعن لغير المسلم، بأن يقول باحتمالية نسيان الرسول لكتابه! وذلك لفهمهم الآية بهذا الشكل، أما نحن فنفهم الآية بشكل مغاير تماما، متناسب مع السياق العام للسورة، فنحن لا نرى أن المقصود من النسيان هو نسيان القرآن، وإنما المراد منه نسيان الله والآخرة.

وهذه الإشكالية لأنهم لا يفهمون النسيان إلا بمعنى ذهاب الشيء من الرأس، وما عدا ذلك فمجاز! وهذا غير صحيح فالنسي يدل على الإغفال والتأخير عمدا أو جبرا، وكلاهما حقيقة وليس مجازا، فابن فارس يقول في المقاييس: "النون والسين والياء أصلانِ صحيحان: يدلُّ أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على تَرْك شيء. فالأوّل نسِيتُ الشَّيءَ، إذا لم تذكُره، نِسياناً." اهـ

فإذا أنا تعمدت ترك الشيء والتغافل عنه فهو نسيان، كما أن ضياعه من رأسي نسيان. إذن فليس المراد من نسيان الرسول أنه ينسى القرآن بمعنى أن يذهب من رأسه فيخطأ فيه، وإنما المقصود أن لا ينسى الله ولا اليوم الآخر بمعنى أن لا يغفل عنهما، وهذا هو النسيان المذموم المقصود في القرآن والأكثر ورودا، فالنسيان المتعارف عليه لا يعاقب عليه الإنسان ولا يُذم به، بل إنه مرفوع كما ورد في الحديث، والنسيان المقصود هو الغفل عن الشيء! وبذلك يكون المقصود أن الرسول الكريم ذاكرٌ لله عزوجل دوما، إلا ما شاء الله له أن ينشغل فيه بالدنيا ظاهرا!

والدليل على أن المراد من النسيان هو الله والآخرة هو السياق العام، فالآية السابقة كانت تتكلم عن إهلاك المرعى كصورة مصغرة لإهلاك الدنيا، ثم نجد قوله تعالى في آخر السورة: بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى!"

ففي هذا دليل على أن المراد من النسيان هو نسيان الله والآخرة وليس القرآن. والناظر في القرآن يجد أن المعنى، الذي جعلوه مجازيا للنسيان–الغفلة والتغافل– هو الأكثر استعمالا!!، ولست أدري كيف جعلوه هو المجاز والآخر حقيقة!! فالله عزوجل يقول في حق المنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [سورة التوبة, ٦٧]، فلا يوجد إنسان في العالم ضاع من رأسه "الله"، فتساءل: هل قال الناس في يوم من الأيام بوجود إله أم لم يقولوا؟! كما أن الله عزوجل لا ينسى –بمعنى أن يضيع الشيء من علمه–: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [سورة طه, ٥٢]، فالله لا يضل ولا ينسى، بمعنى أنه لا يضيع من علمه شيء، أما في آية التوبة فلقد غفلوا عن الله وأعرضوا عنه واهتموا بغيره، ففعل الله معهم كما فعلوا!

وبنفس المعنى يرد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [سورة الحشر, ١٩]، فلا يوجد إنسان تضيع نفسه من رأسه! وكذلك نجد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [سورة الأنعام, ٤٤]، فالمقصود أنهم غفلوا وتغافلوا عن ما ذكروا به فعوقبوا، وليس المقصود أنه ذهب من علمهم.

فالنبي لن يغفل إلا ما شاء الله، وسيُيسر لليسرى، فالنبي الكريم سيكون بابا سهلا لكل خير، فبه سيصل الخير إلى الناس، لأنه سيسير إلى الخير حيث كان.

ثم يؤمر الرسول الكريم بالتذكير، كناتج منطقي للنعمة، فكما هو ذاكر ينبغي أن يضم باقي الناس تحت جناحه إلى حصن الله المتين:

﴿فَذَكِّرْ إِن[113] نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾

فعلى الرسول الكريم التذكير في مظانه، فسيذكر من يخشى ويتجنب[114] الذكرى الأشقى.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ[115] ۝١٣﴾

إذا فقراءة القرآن مانع كبير من نسيان الله والآخرة، وتكملة الآية مرجح كبير للمعنى الذي نقول به، فالله تعالى يقول: ﴿...إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾، فالله تعالى يقول للنبي الكريم أنه يعلم الظاهر وما يخفى في الصدور. فالسر ليس مخفيا لأنه معروف على الأقل لاثنين أو أكثر وهو على الرغم من ذلك سر، لأن الإنسان أسر به إلى غيره، أما ما في الصدور فلا يعلمه إلا الإنسان والله. فإذا غفل الإنسان أو النبي فالله تعالى يعلم هذا، على الرغم من أنه لم يظهر في كلامه أو أفعاله ما يدل على هذا. أما إذا كان المراد من الآية نبوءة أن الرسول لن ينسى القرآن فلا يناسب الحديث عن العلم وإنما يناسب عن القدرة، وإذا كان الحديث عن النهي فلا يناسب الحديث كذلك عن العلم وإنما يناسب التوكل والطلب والرجاء بالتثبيت من الله عزوجل.

[113] العجيب أن بعض المفسرين مثل الإمام الفخر الرازي صالوا وجالوا ليثبتوا أن الشرط لا معنى له وأن التذكير غير مرتبط به، وأن الأمر به على الإطلاق! ولله الحمد انتبه الإمام الألوسي إلى هذا الأمر، فقال: "وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر وبالغ فيه فلم يدع في القوس منزعاً، وسلك فيه كل طريق فلم يترك مضيفاً ولا مهيعاً حرصاً على الايمان وتوحيد الملك الديان، وما كان يزيد ذلك بعض الناس إلا كفراً وعناداً وتمرداً وفساداً، فأُمر صلى الله عليه وسلم تخفيفاً عليه حيث كاد الحرص على ايمانهم يوجه سهام التلف إليه كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [سورة الكهف ,٦]، بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر، ولا يتعب نفسه الكريمة في تذكير من لا يورثه التذكير إلا عتوا ونفوراً وفساداً وغروراً من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى: ﴿... فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [سورة ق ,٤٥] وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ... ۝٢٩﴾ [سورة النجم ,٢٩] وعلمه صلى الله عليه وسلم بمن طبع على قلبه بإعلام الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام به فهو صلى الله عليه وسلم بعد التبليغ وإلزام الحجة لا يجب عليه تكرير التذكير على من علم أنه مطبوع على قلبه، فالشرط على هذا على حقيقته" اهـ

[114] نلاحظ أن الله تعالى قال: *ويتجنبها* ولم يقل: *ينساها*، وقال: *الأشقى* ولم يقل: *من يشقى* كما قال: *من يخشى*.

فالإنسان الذي يخشى سيذكر، والشقي سينساها، أما الأشقى فسيتجنبها، فسيتولى عنها ويعرض ولن يسمع لها أصلا، لذا لا فائدة من تذكيره. —وهذه الآية دليل على أن الشرط "إن نفعت الذكرى" عامل وغير زائد كما زعم الإمام الفخر الرازي وغيره من المفسرين!!

وهذا الإنسان المتجنب المعرض عن الذكر والذكرى له جزاء مخصوص يوم القيامة وبه صار أشقى، وليس مجرد شقي، فالشقي له النار: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾ [سورة هود, ١٠٥-١٠٦]

أما الأشقى فله عذاب مخصوص، فهو: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى، وليس المراد من النار الكبرى نار الآخرة في مقابل نار الدنيا، وإنما المراد منها نار مخصوصة هي الكبرى، كما قال الإمام الفخر الرازي: "أن في الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاضلة، وكما أن الكافر (المتجنب) أشقى العصاة كذلك يصلى أعظم النيران" اهـ

ثم لا يموت فيها ولا يحيى، وهذه الآية من الآيات المشكلات –بالنسبة لعلمنا الحالي– والله أعلم بحال ذلك الإنسان في هذه الحالة، التي لا يكون فيها حيا ولا ميتا.

ثم تكمل السورة الصورة، فتقول:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾

---

(115) يمكننا أن نفهم الآية فهما إشاريا، ولكنا لا نقول بهذا إلا عندما يوجد في الآية ما يشير إلى وجوب فهمها إشاريا! ولا نجد في الآية ما يحملنا على هذا! ولقد اجتهد المفسرون في فهم هذه الآية، فقدموا توجيهات لها، منها ما أورده الإمام الفخر الرازي، حيث قال: "للمفسرين فيه وجهان: أحدهما: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، كما قال: ﴿... لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ... ۝٣٦﴾ [سورة فاطر, ٣٦]، وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد: لا هو حي ولا هو ميت. وثانيهما: معناه أن نفس أحدهم في النار تصير في حلقه فلا تخرج فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا" اهـ

ولكنا نلاحظ أن الله تعالى جعل هذه الحالة بعد فترة من صلوه النار "ثم"، بخلاف حديثه عن الشقي في هود، فقال: "فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ"، أي أن هذه الحالة ستحدث بعد فترة من دخوله النار، وليست ملازمة له من بدأ دخولها. فتصور الآية كما هي لا يظهر لنا، والله أعلم بهذه الكيفية، التي ستكون لهذا الاشقى!

فليس كافيا أن يتذكر الإنسان الذي يخشى فقط، بل لا بد للفلاح من حصول التزكية للنفس بعد هذا التذكر، وتزكية النفس تكون بتطهير القلب من الأدران ومن الشرك وكذلك بالأعمال الظاهرة، ولكن هذا أيضا ليس بكاف بل لا بد من العبادة القولية باللسان، فيذكر الإنسان بلسانه اسم ربه فيصلي.

ثم تبين الآيات أن سبب نسياننا وتقصيرنا هو إيثارنا الحياة الدنيا، وأن قليل من يفلح بأن يكون خاشيا ذاكرا متزكيا مصليا، على الرغم من أن الآخرة خير وأبقى، فحقيقة هي أن يُعمل من أجلها وأن تُتذكر.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾

ثم تختم السورة بتوجيه ضربة قاضية للكائدين للدين وللرسول –في السورة الماضية–، بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾

فإذا كنتم تكيدون لمحمد وللدين من أجل إبطاله فها نحن نقدم لكم بعضا مما أنزلناه في الصحف الأولى، –سواء كانت السورة كاملة أم بعضها، وإن كان الأرجح والله أعلم أنها كلها، ما عدا المقطع الأخير بداهة!– فهي وإن كانت ضُيعت عند الناس فهي لا تزال محفوظة عندنا، وها نحن نقصها عليكم مرة أخرى، فكيدكم ضعيف ولن يؤثر وحفظنا قوي مستمر، وكما حفظنا هذه الكتب فسنحفظ محمدا والقرآن.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الغاشية في فلك الغشو ورفعه بالتذكير! فإذا كنت ممن غشيتهم الدنيا فستكون ممن يغشاهم العذاب في الآخرة، وإذا كنت ممن كشف غشاوتها فسيغشاك النعيم في الآخرة! ووظيفة الرسول هي التذكرة فقط لرفع الغشو

وليس له إجبار الناس على الرؤية! فحساب الناس وعقابهم على الله عزوجل! فإما أن يغشاهم النعيم أو العذاب المقيم.

وكما أن سورة الأعلى في الصحف الأولى، فكذلك الغاشية فيها، والله عزوجل يذكر النبي الكريم، فيقول له:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ[116] حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ[117] ١﴾

---

(116) انتهت سورة الأعلى بالإعلام أنها كانت في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى، وكانت السورة عامة تدور حول الآخرة! وتبدأ سورة الغاشية بقوله تعالى للنبي الكريم: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ ففي الآية استفهام واضح موجه إلى النبي الكريم، والعجيب أن هناك من المفسرين من جعل الاستفهام بمعنى التوكيد! –كما فعلوا مع مبتدأ سورة الإنسان!–، أما نحن فنقول أن الاستفهام بمعنى الاستفهام، ولا يمكن أن يفيد أي معنى آخر. والناظر يجد أن هذه التركيبة "هل أتاك حديث" وردت في القرآن خمس مرات، وهي: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾ [سورة طه ,٩]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [سورة الذاريات ,٢٤]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ [سورة النازعات ,١٥]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾ [سورة البروج ,١٧]، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [سورة الغاشية ,١]، والملاحظ أنها كلها عن أحداث في الحيوة الدنيا قبل النبي الكريم، –*كان من الممكن أن يصل علمها إلى النبي الكريم من مصدر غير القرآن، إلا أنها أتت إلى النبي الكريم في القرآن*– إلا آية سورتنا هذه، فإنها تتحدث عن الآخرة، وعلى الرغم من ذلك يُسأل النبي الكريم: هل أتاك حديث الغاشية؟ فنفهم من الآية أن هذه إشارة إلى أنه كان هناك حديث عن الآخرة، موجود في الكتب السابقة فيما يتناقله الناس، ومن الممكن أن يصل إلى النبي الكريم، فأتته الآيات فبينت له حال الغاشية.

وبهذا الفهم تظهر العلاقة الجلية بين خاتمة السورة الماضية ومفتتح هذه السورة، فهناك تقول أن محتواها موجود في الصحف الأولى وهذه السورة تبدأ بسؤال النبي الكريم هل أتاه حديث الغاشية، والذي يمكن أن يصله طرف منه من الكتب السابقة أو مما يتناقله الناس!

(117) لماذا ابتدأت السورة ب "الغاشية" تحديدا؟ فقد كان من الممكن أن يبدأ السورة بأي اسم آخر؟ نقول: هذا والله أعلم راجع إلى التناسب بين آخر السورة السابقة والسورة الحالية، فهناك قال الله تعالى "والآخرة خير وأبقى" فهي أكثر بقاءا من الدنيا، وابتدأ السورة هنا بالحديث عن الغاشية، التي تغشى الناس غشيا دائما لا يرتفع، فمن كان فيها في العذاب فهو في العذاب أبدا، ومن كان في النعيم فهو فيه أبدا، فناسب الحديث عن الاستمرار والإحاطة والتغطية الحديث عن البقاء في آخر سورة الأعلى.

واختلف العلماء في المراد من الغاشية، فقيل المراد منها اليوم الآخر، وقيل المراد الساعة وقيل النار نفسها، والمرجح عند عامتهم أن المراد منها اليوم الآخر، والذي نراه نحن أن المراد من الغاشية، استنادا إلى المذكور في السورة، هو يوم وقوع العذاب بالكافرين والمجرمين ودخول المؤمنين العاملين في جنات النعيم. –اليوم الآخر يتكون من عدة أيام، وهذا يوم منها– فهذا هو الغشو الحقيقي، فالمجرم يُعذب في النار والمؤمن يتمتع ويلتذ في الجنة، وقد غشي كلا منهما حاله التي لن تتغير والتي لا يمكن أن ينشغل عنها، بخلاف موقفهما في المحشر، فما بعده حتما أقوى وهو محل التفكير. وعندما يستقر كل منهما في محله فقد غشيه جزاءه، الذي يشغله عن أي شيء آخر.

وكان الله تعالى قال في نهاية السورة الماضية: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾، ويبدأ هنا بتفصيل كيف أن الآخرة خير وأبقى.

وكما أمر الله عزوجل الرسول في سورة الأعلى، فقال له: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾، يأمره هنا فيقول له:

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾

فدور الرسول فقط هو التبليغ وليس له إجبار الناس على الإيمان، فإن تعمدوا النسيان فليس عليه أي حرج! أما من أعرض وعاند وحارب الدين، فمرجعه إلى الله وحسابه عليه، ويا لها من غاشية.

بعد أن بدأت السورة الكريمة بسؤال النبي الكريم عن علمه بالغاشية، تبدأ السورة في عرض بعض مظاهر هذا الغشو، وتبدأ بعرض حال الكافرين المكذبين المجرمين، فتقول:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ[118] ٤﴾

فهؤلاء المجرمون سيكونون خاشعين عندما يغشاهم العذاب، فسيذهب عنهم كبرهم وبطرهم واستهزاءهم بالمؤمنين. وليست المسألة مقتصرة على الإذلال فقط، وإنما تتعداه إلى العمل، فهؤلاء المكذبون في عمل دائم لا يرتاحون ولا يجلسون! وهو ما يمكن أن نسميه حقا "أشغال شاقة مؤبدة" فهي مستمرة لن تنتهي! فهذا هو العذاب الأبدي الحقيقي، حيث العمل والنصب.

ولقد رفض هؤلاء أن ينصبوا لله عزوجل في الدنيا، ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ [سورة الشرح, ٧]، فنصبوا في الآخرة في العذاب المقيم.

[118] هذه الآية دليل على أن الغاشية غير النار.

ولا يقتصر الأمر على ذلك وإنما يتعداه إلى صلو النار الحامية، فهم سيلزمونها ويحترقون بها وفيها. (تذكر قوله تعالى في السورة الماضية في حق الأشقى: الذي يصلى النار الكبرى)، وبدلا من أن يذوقوا النعيم في القرب من الله والرغبة إليه في الصلاة، صلوا النار الحامية.

وتواصل السورة الحديث عن حال هؤلاء، فتنتقل للحديث عن صنف آخر من عذاب هؤلاء، فمشرب ومطعم هؤلاء لن يمثل أي وجه من النعيم وإنما سيكون كذلك من صنوف العذاب، فتقول:

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ[119] ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝﴾

---

[119] ثمت إشكال في قوله تعالى: "ضريع"، فما المراد منه؟ اختلف المفسرون فيه اختلافا واسعا، ويعرض ذلك الاختلاف الإمام الفخر الرازي، فيقول: "واختلفوا في أن الضريع، ما هو على وجوه أحدها: قال الحسن: لا أدري ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئاً. وثانيها: روى عن الحسن أيضاً أنه قال: الضريع بمعنى المضرع كالأليم والسميع والبديع بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع، ومعناه إلا من طعام يحملهم على أن يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرارة. وثالثها: أن الضريع ما يبس من الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل، قال أبو ذويب: رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى.. وعاد ضريعاً عاد عنه النحائص، جمع نحوص وهي الحائل من الإبل، وهذا قول أكثر المفسرين وأكثر أهل اللغة ورابعها: قال الخليل في كتابه: *ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم هي الضريع*، فكأنه تعالى وصفه بالقلة، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع. وخامسها: قال أبو الجوزاء: الضريع السلا، ويقرب منه ما روي عن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك، ثم قال أبو الجوزاء: وكيف يسمن من كان يأكل الشوك! وفي الخبر: الضريع شيء يكون في النار شبيه الشوك أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار. قال القفال: والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام، بيان نهاية ذلهم وذلك لأن القوم لما أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشاً جياعاً، ثم ألقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئاً من النبات، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميماً لا يروي بل يشوي، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم من الجوع والعطش، كما قال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ... ۝﴾ [سورة الكهف ,٢٩] وبين أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع نعوذ بالله منها" اهـ

وبعد هذا العرض يظل الإنسان على نفس حيرته، فما المراد من الضريع؟

الناظر في معني هذه الكلمة يجد أنها من كلمات الأضداد والتي تأتي بالمعنى وضده، فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الضاد والراء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على لينٍ في الشَّيء. من ذلك ضَرَعَ الرجل ضَراعةً، إذا ذلَّ. ورجلٌ ضَرَعٌ. ضعيف: قال ابنُ وَعْلة: أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالواني ولا الضَّرَعِ الغُمْرِ. ومن الباب ضَرْعَ الشّاة وغيرِه، سمِّيَ بذلك لما فيه من لِين. (...) فأمَّا المضارعة فهي التشابُه بين الشيئين. قال بعض أهلِ العلم: اشتقاق ذلك من الضَّرْع، كأنهما ارتضعا من ضَرعٍ واحد. وشاةٌ ضَرِيعٌ: *كبيرة الضَّرْع*، وضريعةٌ أيضاً. ويقال لناحِل الجسم: *ضارع*." اهـ

فشراب هؤلاء من عين شديدة الحرارة، فالآني الذي قد انتهى حره من الإيناء بمعنى التأخير. وفي الحديث: «أن رجلاً أخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " آنيت وآذيت".

وإذا كان الأبرار في المطففين يسقون من رحيق مختوم، فإن الفجار هاهنا يسقون من عين آنية. فإذا تركنا الشراب وانتقلنا إلى الطعام فإن طعامهم من أنعام ضامرة، لا تسمن ولا تغني من جوع، على عكس أهل الجنة الذين يأكلون لحما طريا مما يشتهون.

وبعد أن ذكرت الآيات بعضا من أهم مظاهر شقاء هؤلاء في عذابهم، تنتقل السورة كعادة القرآن في عرض مشهد المنعمين، كمشهد مقابل لهذا المشهد، فتقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا[120] رَاضِيَةٌ ۝﴾

وإذا نظرنا في اللسان وجدنا ابن منظور يقول: "(...) والضَّرْعُ لكل ذات ظِلْف أَو خُفّ، وضَرْعُ الشاةِ والناقةِ: مَدَرُّ لبنها، والجمع ضُرُوعٌ. وأَضْرَعَتِ الشاةُ والناقة وهي مُضْرِعٌ: نَبَتَ ضَرْعُها أَو عَظُم. والضَّرِيعةُ والضَّرْعاءُ جميعاً: العظيمة الضَّرْعِ من الشاءِ والإِبل. وشاة ضَرِيعٌ: حَسَنة الضَّرْعِ. وأَضْرَعَتِ الشاةُ أَي نزل لبنها قبيل لنِّتاجِ. وأَضْرَعَتِ الناقةُ، وهي مُضْرِعٌ: نزل لبنها من ضَرْعها قُرْب النتاج، وقيل: هو إذا قرب نتاجها. وما له زرع ولا ضَرْعٌ: يعني بالضرع الشاة والناقة؛" اهـ

لذا يرجح عندنا من هذا أن المراد من الضريع هو الأنعام من الشاء والإبل، ولكنها لا تسمن ولا تغني من جوع! ولو كان المراد منها الشوك أو أي معنى آخر مما قالوه، لما احتاجت إلى هذا التحديد، فهي واضحة الدلالة في كونها لا تنفع، أما مع هذا الفهم فقد يظن الإنسان أن هذه الحيوانات قد يستفيد منها الإنسان، فيبين الله عزوجل أنها لا تسمن ولا تغني من جوع.

[120] اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى "لسعيها راضية"، فقال الإمام الرازي عند تناوله لهذه الآية: "وفيه تأويلان أحدهما: أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله. لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة، فيقول: ما أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت. فيثنى على عمل نفسه ويرضاه. والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب، وهذا أولى إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه." اهـ

ونقدم فهما مختلفاً للكلمة، فاهمينها كما هي، فنقول: رضي: تتعدى بنفسها، فتقول: رضيت الشيء أو رضيته! أو تتعدى بالباء: فتقول: رضيت بالله ربا! وقد تتعدى باللام، وهنا يختلف المعمول والمعنى، فتقول: رضيت لنفسي أو رضيت لك هذا العمل!

وقد تأتي "اللام" بمعنى التعليل، فتقول: لاجتهادي فزت. فنفهم من هذا أن الأبرار رضوا بسبب سعيهم في الدنيا، وبهذا تكون الآية مثل كثير من الآيات التي تتحدث عن ربط الجزاء بالعمل. وتكون تأكيدا لآيات النجم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ [سورة النجم ,٣٩-٤١]

وكما بدأ الصنف الأول بالحديث عن الوجوه يبدأ الصنف الثاني كذلك بالحديث عن الوجوه، ولكن إذا كان وجوه الصنف الأول خاشعة فإن وجوه هؤلاء ناعمة[121]. وإذا كان الصنف الأول: "عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ"، فإن الصنف الثاني: راض بسبب عمله، الذي عمله في الدنيا، فهؤلاء تكبروا في الدنيا فنصبوا في الآخرة، أما الأبرار فعملوا في الدنيا فتنعموا ورضوا بسبب سعيهم في الآخرة.

وإذا كان الصنف الأولى يصلى النار الحامية، فإن الأبرار:

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾

فهم في جنة عالية لا يسمعون فيها لاغية، وذلك لأن الفجار الذين يصلون النار الحامية لا يسمعون شيئا بسبب حسيس النار العالي: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الأنبياء, ١٠٠]

أما الأبرار فهم في الجنة، حيث لا يسمعون فيها لاغية، فكل ما في الجنة مكثرٌ من ذكر الله عزوجل وحمده.

وإذا كان حال الفجرة أنها تسقى من عين آنية، فإن حال الأبرار مختلف، فلهم نعيم عظيم:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ[122] ﴿١٤﴾﴾

---

[121] لم ترد كلمة "ناعم" في القرآن كله إلا في هذا الموضع. وقد يكون من المستغرب أن يقابل الخشوع بالنعومة، فالمتوقع أن يُقابل بالسرور مثلا، ولكن الله عزوجل تجاوز هذه المرحلة وانتقل إلى التالية لها –آثارها– وهي النعومة.

[122] أجاد الإمام الفخر الرازي عند تناوله هذه الآية، فقال: "الأكواب: الكيزان التي لا عرى لها، قال قتادة: فهي دون الأباريق. وفي قوله: {مَّوْضُوعَةٌ} وجوه أحدها: أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئاً، فيقول: هو ههنا موضوع، بمعنى معد، وثانيها: موضوعة على حافات العيون الجارية، كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشرب، وثالثها: موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر، وتلذذهم بالشراب منها. ورابعها: أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر." اهـ

فلهم عين جارية، يغترفون منها متى شاءوا، فليس ماءها بالبعيد أو الراكد! كما أن فيها سرر مرفوعة، وبغض النظر عن أن الارتفاع دليل عز ومنعة، فإنه يمكن من رؤية أكبر قدر ممكن من النعيم، وهذه لذة بذاتها، والأكواب متوفرة ومتاحة ليشرب الإنسان متى شاء.

﴿وَنَمَارِقُ(123) مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ(124) مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

(123) النمارق كما قال الإمام الألوسي: "جمع نمرقة بضم النون والراء وبكسرهما وفتحهما وبغير هاء {مَصْفُوفَةٌ} صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها. وقال الكلبي وسائد موضوعة بعضها إلى جنب بعض كالشيء الذي جعل صفاً، أينما أراد أن يجلس المؤمن جلس على واحدة واستند إلى أخرى" اهـ

(124) المشتهر في *تفسير الزرابي* أنها بمعنى البسط والطنافس! *ولكنا نفهم الزربية* بمعنى مختلف تماما، وننظر أولا في اللسان أولا لنعرض مستندنا في المخالفة:

إذا نظرنا في مقاييس اللغة لابن فارس ألفيناه يقول: "الزاء والراء والباء أصلٌ يدلُّ على بعض المأْوَى. فالزَّرْب زَرب الغنم، وهي حظيرتها." اهـ

فإذا نظرنا في لسان العرب وجدنا ابن منظور يقول: "الزَّرْبُ: المَدْخَلُ. والزَّرْبُ والزِّرْبُ: موضعُ الغنم، والجمع فيهما زُرُوبٌ؛ وهو الزَّرِيبَةُ أَيضاً. والزَّرْبُ والزَّرِيبةُ: حَظِيرةُ الغنم من خشب. تقول: زَرَبْتُ الغنمَ، أَزْرُبُها زَرْباً، وهو من الزَّرْبِ الذي هو المَدْخَلُ. وانْزَرَب في الزَّرْبِ انْزِراباً إِذا دخل فيه. (...) وروي عن المؤرج أَنه قال في قوله تعالى: وزَرابيُّ مَبْثوثةٌ؛ قال: زَرابيُّ النَّبْت إِذا اصْفَرَّ واحْمَرَّ وفيه خُضْرةٌ، وقد ازْرَبَّ، فلما رأَوا الأَلوانَ في البُسُطِ والفُرُش شبَّهُوها بزَرابيِّ النَّبْتِ؛ وكذلك العَبْقَرِيُّ من الثِّياب والفُرُشِ (...) وفي حديث أَبي هريرة، رضي اللّه عنه: وَيْلٌ للعَرب مِنْ شَرٍّ قد اقْتَرَب، وَيْلٌ للزِّرْبِيَّةِ! قيل: وما الزِّرْبِيَّة؟ قال: الذين يَدخُلون على الأُمراءِ، فإِذا قالوا شرّاً، أَو قالوا شيئاً، قالوا: صَدقَ! شبَّهَهُم في تلَوُّنهم بواحِدة الزَّرابيِّ، وما كان على صَنْعَتِها وأَلوانِها، أَو شبَّههم بالغَنَمِ المَنْسُوبةِ إِلى الزَّرب والزِّرْب، وهو الحظِيرةُ التي تأْوي إِليها، في أَنهم يَنْقادون للأُمراءِ، ويَمْضُون على مِشْيَتِهم انْقِيادَ الغَنمِ لراعِيها؛" اهـ

نخرج من هذا كله بأن الزرابي ليست هي البسط، وإنما الزرابي جمع زربية، وهي الحيوان الذي يربى في الزريبة وليس البسط أو الطنافس. ويؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى "مبثوثة"، فعملية البث في القرآن لا تكون إلا مع الكائنات الحية: ﴿... وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [سورة البقرة, ١٦٤]، ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [سورة النساء, ١]، ﴿... وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [سورة لقمان, ١٠]، ﴿... وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [سورة الشورى, ٢٩]، ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [سورة الجاثية, ٤]، ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [سورة القارعة, ٤]

ولا يخالف في هذا إلا قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [سورة الواقعة, ٦]، ونلاحظ أنها *منبثا* وليست مبثوثة.

وإذا فهمنا الزرابي على هذا المعنى فإنه يؤكد المعنى الذي قلنا به *للضريع* عند الحديث عن الفجار.

وزيادة في التنعم هناك نمارق مصفوفة بالإضافة إلى السرر المرفوعة والمصفوفة كذلك، كما جاء في الطور: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾ [سورة الـطور, ٢٠]

ويعرف الله تعالى المؤمنين أن الجنة لن تخلو من الحيوانات الأليفة، التي اعتاد الناس على تربيتها ورؤيتها في الدنيا، فالزرابي مبثوثة في الجنة تمتع أنظار المؤمنين. ونحن نلاحظ أن هذا العنصر لم يفت البشر عندما يريدون إظهار الثراء والجمال في أي حديقة غناء، فهم يتركون فيها بعض الحيوانات الأليفة تتحرك بأمن وأمان، لتعطي انطباعا بالثراء الفاحش الذي يحيى فيه صاحب الحديقة!

وبعد أن عرضت السورة لمشهد الأبرار والفجار في الغاشية، تعود لتقدم للقارئ مشهدا من مشاهد الدنيا، داعية الإنسان إلى التفكر في نقطة محددة متعلقة بهذا المعروض، فيقول سبحانه:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ[125] كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ[126] ٢٠﴾

---

[125] الملاحظ أن عامة المتناولين لهذه الآية أخذوا يعرضون المزايا والخصائص التي يمتلكها كل واحد من هؤلاء وخاصة الإبل! على الرغم من أن الآيات لم ترم لذلك، وإنما أرادت جانبا واحدا، ذكرته مباشرة بعد كل صنف. ولا خلاف حول هذه الآيات إلا في قوله تعالى "الإبل"، فالمشتهر أن المراد من الإبل الجمال. وهذا هو المشتهر والغالب، ولكن ورد أنها بمعنى السحاب المحملة بالأمطار، وورد هذا القول في عامة التفاسير إلا أن المفسرين كانوا يرجحون أنها بمعنى الجمال، فمثلا نجد الإمام الرازي يقول: "اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب . قال صاحب «الكشاف»: ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل في كثير من أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز، ..." اهـ

وكما نرى فالإمام الفخر الرازي يحكي لنا تعليق الإمام الزمخشري حول قول الإمام المبرد –وهو من هو– في الإبل، الذي قال أنها السحب، وكيف أن الإمام الزمخشري تأول قوله!! وذكر الإمام الألوسي القول نفسه ولم يأخذ به: "وقال أبو العباس المبرد الإبل هنا السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي إرسالاً كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل وهي في هيآتها أحياناً تشبه الإبل (...) وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إبل بتشديد اللام ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا: إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة." اهـ

وكما نجد فإن المتناول يعمم، فيتحدث عن أوصاف الجمل، ولو أراد القرآن هذا لقال: أفلا ينظرون إلى الإبل! فهذا كاف، ولكنه أراد التركيز على نقطة واحدة، وهي: كيف خلقت! وانطلاقا من هذه الكلمة، ومن المنظور العام للسورة ومن السياق ومن تقسيمات السورة قلنا أن المراد من الإبل هنا السحاب وليس الجمال.

فالله يدعوا إلى النظر في بعض ما حول الإنسان ليتأكد مما يذكر، ويقدم لنا مشهدا متكاملا مقابلا للمعروض في الجنة، فالسحب السابحة المحملة بالماء في مقابل العين الجارية، والسماء المرفوعة في مقابل السرر المرفوعة، والجبال المنصوبة في مقابل الأكواب الموضوعة، والأرض المسطوحة –المهاد– مقابل النمارق المصفوفة. وفيه دلالة وإشارة بديعة ورد على من ينكر البعث. فالماء يتبخر ويقل من أمام أعيننا ولا يعني هذا أنه فني، ولكن كل ما هنالك أنه ينتقل من مكان إلى آخر، حيث يتكثف ويسقط مرة أخرى كماء!

فعملية تكوين السحاب أكبر رد على من ينكر البعث، فالقادر على إعادة الماء قادر على إعادة البشر والكون كله! فالمسألة كلها تحول من حال إلى حال، ووقوعها على الجزء مؤذنٌ بوقوعها على الكل عند انتفاء المانع، وهو منتفي!

والناظر يجد أن هذا الأصل "أ ب ل" من الأصول المشكلة، حتى أن ابن فارس لم يفلح في أن يجد له معنى جامع، فجعلها بمعنى الجمال أصلا مستقلا!، فقال: "(أبل) الهمزة والباء واللام بناء على أصول ثلاثة: [على] الإبل، وعلى الاجتزاء، وعلى الثِّقل، و[على] الغلبة. ..." اهـ

والكلمة من الكلمات الثرية المعنى، وهي في الأصل تدل على التجمع، وليست على الجمال! ولما رأى العرب هذا الوصف في الجمال سموها إبلا، لأنها تمشي أرسالا كما قال المبرد، ولما رأوا نفس الوصف في السحاب سموها إبلا، ويؤيد قولنا هذا قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [سورة الـفيل ,٣]، فالطير جاءت أسرابا حتى أنها غطت السماء فوق جيش أبرهة! وسمى الله حالها "أبابيل"، فيفهم من ذلك أن الأبل وصف عام لكل متحرك في جماعات متفرقة، وليس للجمال فقط، ومن ثم يمكن القول أنها السحاب. ويرجح ما قالناه أن الإمام البخاري صنف في صحيحه: بَاب رَفْعِ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ، ولم يزد عن أن قال: "وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾" اهـ

والقول بأن الإبل هي السحب يجعل المشاهد الأربعة المعروضة لجمادات؛ فالسحب والسماء والجبال والأرض جمادات، كما أنه يجعل المشهد منقسما إلى قسمين –كما قُسم المشهد الأول إلى فجار وأبرار–: فالأول: السحب وما يعلوها من السماء، والثاني: الجبال وما يسفهلها من أرض. فإذا غضضنا الطرف عن هذا كله، وجدنا أن قوله تعالى: "كيف خُلقت" يرجح ما نقول، فالجمل وإن كان يختلف عن غيره من الأنعام في القدرات والاستخدامات وفي الانتفاع به، إلا أنه في طريقة الخلق مثله مثلها تماما، فمن وطء الذكر للأنثى وحمل الأنثى للجنين يأتي الجمل! فما الاختلاف أو المزية فيه؟! أما إذا قلنا أن المراد هو السحاب، يظهر لنا اختلاف كبير، فالسحاب يُخلق بطريقة عجيبة بديعة، –ذكرها الله تعالى في أول سورة الذاريات: انظر تناولنا للسورة على موقعنا على الشبكة المعلوماتية– فالماء يتبخر وتذروه الرياح وتحمله وتتكون السحب وتجري ثم يسقط في مكان آخر.

(126) لا يصح الاستدلال بقوله تعالى "سطحت" على أن الأرض غير كروية! ولقد عرض الإمام الفخر الرازي لهذه المسألة في زمانه فقال: "ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف، لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح." اهـ

كما يدعونا الله عزوجل إلى التفكر في كيفية رفع السماء! فنحن نراها فوقنا واعتدنا على ذلك، ولا نتساءل: من رفعها وكيف رفعها؟! وكذلك الجبال نراها منصوبة ولا نتساءل: لم هي منصوبة وكيف؟ والأرض مسطوحة ممهدة لنا. فحقيق أن ننظر كيف سُطحت الأرض ولم[127]؟!

ولهذا جاء قوله تعالى بعدها:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾

فليس على الرسول أكثر من التذكير، فالخلق أمام أعين كل إنسان أكبر دليل على الآخرة، ووظيفة الرسول هي التذكير، فلا يهلك نفسه عليهم. كما لا يجوز لك أن تجبرهم على الدخول في الدين أو محاسبتهم على الكفر، فأنت لست عليهم بمسيطر، وإنما الله عزوجل هو المسيطر، وهو بالمرصاد!

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ[128] ۝٢٤﴾

فذكّر يا محمد المؤمن وغيره، فسيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى، فمن تولى وكفر سيعذبه الله العذاب الأكبر.

ثم تختم السورة الكريمة بقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

فبخلاف عذابنا في الدنيا سيرجعون إلينا في الآخرة وسنحاسبهم على أعمالهم.

---

[127] إذا نظرنا في هذه الكيفيات الأربعة استحال القول بالصدفة أو أزلية المخلوق أو العبثية في الخلق، فهذا كله طارئ حادث مغير، ولا بد من وجود خالق مسير مدبر، خلق هذا الكون كله، وأعده على هذه الهيئة من أجل الإنسان! وخلق الإنسان نفسه من أجل غاية، فهو لم يُخلق عبثا!

[128] عامة المفسرين على أن المراد من العذاب الأكبر في هذه الآية هو عذاب النار في الآخرة! أما نحن فنرى أن العذاب الأكبر في هذه الآية في الدنيا والآخرة. واستندنا في قولنا هذا إلى سورة الفجر، والتي تأتي كتفصيل لسورة الغاشية! فهي تعرض لإهلاك الله عزوجل للكافرين، فعرضت لإهلاك عاد وثمود وفرعون، وبينت أن هذا الإهلاك سوط عذاب! وقبل هذا كله تسأل النبي الكريم: ألم تر كيف فعل ربك ب ...؟ فلقد وعدنا أننا سنعذب ولقد عذبنا في الدنيا حقا، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ...

ونلحظ أن السورة التالية "الفجر" ختمت بعرض مشهد حساب الناس على أعمالهم. وكما وجدنا هنا الإياب وجدنا هناك الرجوع، ولكن لطائفة مخصوصة: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [سورة الفجر, ٢٨].

والبديع في هذه السورة أنها ختمت بالمشهد السابق للمشهد الذي بدأت به، فبدأت بمشهد الجزاء: أهل النار في النار وأصحاب الجنة في الجنة، وخُتمت بمشهد الإياب والحساب السابق للجزاء.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الفجر في فلك إثبات أنه سبحانه وتعالى لبالمرصاد.

وكانت سورة الغاشية قد خُتمت بأمر الرسول بالتذكير وأنه ليس بمسيطر، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ فافتتحت سورة الفجر بالحديث عن مظاهر سيطرة الله عزوجل على البشر والطبيعة، وكيف أنها أدوات عذابه للبشر. فابتدأت السورة بالحديث عن الفجر الذي يأتي ليزيح الظلام، وعن الليالي العشر التي عُذب فيها عاد وثمود وعن الشفع والوتر الذي أُهلك به فرعون وقومه، فكل هذه الآيات دليل على أن الله عزوجل مسيطر على عباده وهو لهم بالمرصاد.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ[129] ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ[130] ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ[131] ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ ... إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ[132] ١٤﴾

---

(129) الفجر معروف وهو الفجر، أي وقت ذهاب الليل والظلام ودخول الضوء والنهار، ولا دليل في الآية على أنه فجر مخصوص أو صلاة الفجر فيُحمل على الفجر، والفجر كما يبدو من بنائه يدل على الانفجار! وهو كما جاء في المقاييس: "الفاء والجيم والراء أصلٌ واحدٌ، وهو التفتح في الشَّيء. من ذلك الفَجْر: انفِجار الظُّلمة عن الصُّبح. ..." اهـ

فإذا نحن نظرنا في القرآن الكريم وجدنا أنه يأتي بهذا المعنى فهو إما انفجار ماء: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة البقرة, ٧٤] أو الفجر المعروف.

(130) ما هي الليالي العشر؟ الناظر في أقوال السادة المفسرين في هذا الشأن يجد عجبا، فما علاقة ليالي رمضان الأخيرة، الذي لم يكن قد فُرض صيامه بعد أو عشر ذي الحجة، وكذلك ليالي المحرم أو أي ليال ذكروها بأن ربك لبالمرصاد؟! –السورة من أوائل ما نزل، فلقد روي أنها هي العاشرة في النزول–، ليس هناك أي علاقة! لذا يجب علينا أن نبحث عن ليال لها تعلق بهؤلاء الأقوام أو ببعضهم، تشير إلى أن ربك بالمرصاد، والحق يقال أنه قد جال في خاطري أن تكون هذه الليال هي ليال موسى العشر: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٤٢]

وقلت أن موسى له ذكر ضمني في السورة من خلال ذكر فرعون، ولكن ظهر بعد ذلك أن الآيات تتحدث عن فرعون وآله وجيشه ولم تذكر موسى فلا ندخله نحن، كما أنه لا علاقة لها أيضا بالمقسم عليه، فعلينا أن نبحث بما له بالمذكور في السورة علاقة؟

فإذا نحن نظرنا في نزول العذاب بعاد وجدنا أن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحاقة, ٦-٧]

وإذا نظرنا في حال ثمود وجدنا أن الله تعالى يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة هود, ٦٥-٦٦]

فإذا نحن جمعنا ليال هذه الأيام الثلاثة الذي انتظروا فيها العذاب، وكانت هذه ليال عذاب معنوي وكما يقال في المثل: "وقوع البلاء ولا انتظاره" فلقد ظلوا في ترقب ثلاثة أيام وثلاثة ليال ثم نزل بهم العذاب، فأهلكوا بالصيحة الطاغية مباشرة!

فإذا قلنا أن الليال العشر هي ليال العذاب عند عاد وليال انتظار العذاب وترقبه عند ثمود –والتي هي عذاب أيضا– فنكون قد أتينا بليال لها علاقة بالمقسم عليه، وكما قلنا فإن هذه الآيات تحتاج إلى إعمال ذهن كما قال الله "هل في ذلك قسم لذي حجر".

(131) اختلف المفسرون فيهما اختلافا شنيعا وصل إلى عشرين قولا! (ذكرناها لك عزيزي القارئ في الباب الأول من الكتاب، عند حديثنا عن اختلاف المفسرين) وأتوا فيها بأقوال ما أنزل الله بها من سلطان وليس لها أي علاقة بالسورة، فإذا نحن نظرنا في السورة وفي موضوعها وبالأحداث المذكورة فيها، وتفكرنا في مدلولاتها كما جاء في اللسان: إذا نظرنا في لسان العرب وجدنا ابن منظور يقول: "الشفع: خلاف الوَتْر، وهو الزوج. تقول: كانَ وَتْراً فَشَفَعْتُه شَفْعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العَدَدِ شَفْعاً: صيَّره زَوْجاً؛ وقوله أَنشده ابن الأَعرابي لسويد بن كراع وإِنما هو لجرير: وما باتَ قَوْمٌ ضامِنينَ لَنا دَماً فَيَشْفِينَا، إِلاَّ دِماءٌ شَوافِعُ أَي لم نَكُ نُطالِبُ بِدَمِ قتيل منّا قوماً فَنَشْتَفِيَ إِلا بقتل جماعة، وذلك لعزتنا وقوتنا على إِدراك الثَّأْر. والشَّفِيعُ من الأَعْداد: ما كان زوجاً، تقول: كان وَتْراً فشَفَعْتُه بآخر (...) وناقة شافِعٌ: في بطنها ولد يَتْبَعُها أَو يَتْبَعُها ولد بَشْفَعَها، وقيل: في بطنها ولو يَسْبعُها آخَرُ ونحو ذلك تقول منه: شَفَعَتِ الناقةُ شَفْعاً" اهـ

فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الشين والفاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين. من ذلك الشَّفْع خلاف الوَتْر. تقول: كان فرداً فشفَعْتُه." اهـ

إذا فكما رأينا من خلال اللسان والمقاييس فإن الشفع هو خلاف الوتر! والوتر كما سنرى هو النقص، وهو خلاف الشفع! إذا فالشفع كما ذكر ابن فارس مقارنة الشيئين، وهو لا يقصد المقارنة بمفهومها المعاصر وإنما يقصد ضم الشيء إلى الشيء وبهذا أكون قد قرنته به! فالإنسان يكون فردا بنفسه فإذا ضم إليه غيره فقد شفع به! (وهناك فرق بين الشفع والزوج، فالزوج هو واحد الاثنين من الأجناس المختلفة! فالرجل زوج عندما يكون هناك امرأة!)

فإذا نحن نظرنا في اللسان في معنى الوتر وجدنا أن ابن منظور يقول: "الوِتْرُ والوَتْرُ: الفَرْدُ أَو ما لم يَتَشَفَّعْ من العَدَدِ. (...) ووَتَرْتُ الرجلَ: أَفزعتُه؛ عن الفراء. ووَتَرَهُ حَقَّه وماله: نَقَصَه إِياه. وفي التنزيل العزيز: ولن يَتِرَكُمْ أَعمالكم. وفي حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: من فاتته صلاة العصر فكأَنما وتر أَهله وماله؛ أَي نقص أَهله وماله وبقي فرداً؛ يقال: وتَرْتُه إِذا نَقَصْتَه فكأَنك جعلته وتراً بعد أَن كان كثيراً، وقيل: هو من الوَتْرِ الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أَو نهب أَو سبي، فشبه ما يلحق من فاتته صلاة العصر بمن قُتِلَ حَمِيمُهُ أَو سُلِبَ أَهله وماله؛ (...) ولن يَتِرَكُمْ أَعمالكم، يقول: لن يَنْقُصَكُمْ من ثوابكم شيئاً. وقال الجوهري: أَي لن يَنْتَقِصَكم في أَعمالكم، كما تقول: دخلت البيت، وأَنت تريد في البيت، وتقول: قد وَتَرْتُه حَقَّه إِذا نَقَصْتَه، وأَحد القولين قريب من الآخر. وفي الحديث: اعمل من وراء البحر فإِن الله لن يَتِرَكَ من عملك شيئاً أَي لن يَنْقُصَك. والتَّواتُرُ: التتابُعُ، وقيل: هو تتابع الأَشياء وبينها فَجَواتٌ وفَتَراتٌ. وقال اللحياني: تواتَرَت الإِبل والقَطا وكلُّ شيء إِذا جاء بعضه في إِثر بعض ولم تجئ مُصْطَفَّةً؛ وقال حميد بن ثور: قَرِينَةُ سَبْعٍ، وإِن تواتَرْنَ مَرَّةً، ضُرِبْنَ وصَفَّتْ أَرْؤُسٌ وجُنُوبُ وليست المُتَواتِرَةُ كالمُتَدارِكَةِ والمُتَتابِعة. (...) وجاءت الخيل تَتْرى إِذا جاءت متقطعة؛ وكذلك الأَنبياء: بين كل نبيين دهر طويل." اهـ

إذا فكما رأينا فإن الوتر هو عملية الإفراد أو الإنقاص، وهناك فارق بين الوتر والفرد، فإذا كان الإنسان سليما غانما معافا لا يقال له وتر، أما إذا كان معه أقارب أو أصحاب فخلوه فيصير وترا لأنه كان مشفوعا ومحميا فوُتر. إذا فالمراد من الشفع هو الضم والإلحاق والوتر هو الإفراد والإنقاص.

إذن فالراجح أن المراد من الشفع في الآية، هو الضم والإلحاق (العطاء والإكرام) والوتر هو الإفراد والإنقاص (المنع والتقدير).

فإذا نحن أخذنا بهذا المعنى للكلمتين! وجدنا أن السياق قد انتظم، فالله عزوجل يقسم بعملية العطاء والمنع الذي يبتلي بها كل الناس وكل الأقوام في كل الأزمنة وغالبا ما يرسب الإنسان في الامتحان –وتذكر السورة نموذجا مباشرا لذلك في سياقها ونماذج غير مباشرة–، فعندما يعطي الله عزوجل الإنسان يأمره بالحمد، ولكن غالبا ما ينسى الإنسان ويطغى – ونطلب إلى القارئ الانتباه إلى النسيان هذا فسنعود إليه لاحقا!– وعندما يمنع الله عزوجل فيمنع لكي يتضرع الإنسان إليه ويسأله، فكله ابتلاء بالنقص أو الزيادة، فالله يعطي من يشاء كما يشاء بحكمة وقدر: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الشورى, ١٢]

وقد تبتلى الأمم بالشفع أو الوتر فينسون وعندها يُفتح عليهم، حتى يهلكوا أنفسهم بأنفسهم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الأنعام, ٤٤]

إذا فالله تعالى يقسم بالشفع الذي أعطاه لعاد وثمود وآل فرعون فطغوا وتجبروا واعتدوا بأنفسهم وبه وظنوا أنه حام لهم ومانع فلم يمنعهم ذلك من أمر الله، فإنه إذا جاء لا راد له. ويذكر القرآن أن الابتلاء بالوتر حدث مع فرعون وآله صراحة فيقول: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٣٠-١٣١]

فأُنزل بهم الإيتار فلم يتذكروا، –ونركز على التذكر– وعندما كانوا يُشفعون "جاءتهم الحسنة" كانوا يردونها إلى أنفسهم وينسبونها لهم.

(132) على الرغم من وضوح أن الآية هي جواب القسم وجدنا فيها اختلافا، فقال الإمام الفخر الرازي في تفسيره: "واعلم أن في جواب القسم وجهين؛ الأول: أن جواب القسم هو قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد} وما بين الموضعين معترض بينهما، الثاني: قال صاحب «الكشاف»: المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين، يدل عليه قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ} إلى قوله {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} وهذا أولى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك." اهـ

وكما نرى فإن الإمام الفخر الرازي يرجح أن يكون المقسم عليه محذوفا، ويقدره كما قدره الإمام الزمخشري، وكما قلنا سابقا ووضحنا أن القول بمحذوف في كتاب الله عزوجل قول لا دليل عليه ولا برهان، وهو تخرص في إضافة كلمات ومعان إلى كتاب الله العزيز.

تبدأ السورة الكريمة بأن يقسم الله تعالى بهذه الأربعة على أنه لبالمرصاد[133].

ثم يقدم الأدلة التاريخية الهائلة على ذلك، (المذكورة بين المقسمات وجواب القسم، وهو ما فعله بعاد وثمود وفرعون) مقدما لنا صورة بديعة قائمة على العلائق بين المقسمات بها.

فإذا نظرنا في هذه الأربعة وجدنا فجرا وليال عشر وشفعا ووترا وليلا يسر، وهي إشارات بديعة لفعل الله، ودليل على رصده لخلقه وتنظيمه لهم وحسابهم وعقابهم فيقسم بالفجر الذي يأتي فيزيح الليل، فكما أزاح الفجر الليل يزيح الله عزوجل قوى الشرك والظلم من أمام النبي الكريم ومن وجه الدعوة الجديدة، ويقسم بليال عشر كان لها دور في إفناء أقوى قوتين وجدا على وجه الأرض، فإذا كان الله قد أهلك عادا وثمودا فهو كذلك قادر على إهلاك المعاندين للرسول، ويقسم كذلك بعملية الزيادة والإنقاص والتي بها وفيها يهلك الناس، ثم يختم بالقسم بسير الليل[134] وفيه إشارة إلى حتمية وجود الليل، فالليل حتما لا بد أن يأتي ولكن الليل لا يأتي فيبقى، فهذا ما لا يكون، بل الليل يأتي ويزول، لم؟ لأنه يسر، فهو في دورة وحتما بعد أن يسري الليل لا بد أن يأتي الفجر وبعد الفجر يكون حتما النهار وعلو الدين الجديد!

---

(133) الناظر يجد أنه سبحانه يذكر بين القسم والجواب عدة آيات، تتحدث عن الإهلاك وصب العذاب، فيُفهم أن هذه الآيات هي تصديق للمقسم عليه، وهذا هو العجيب في هذه السورة، فمن المألوف والمعروف أن الإنسان عندما يقسم على شيء فإنه يقسم بكذا على كذا، ثم يبدأ بعد ذلك في تقديم الأدلة على ما يقول، حتى يزيل الشك الذي يراود الإنسان بشأن المقسم عليه، أما هنا فنجد أن الله تعالى أقسم بمقسمات عدة، ثم يقول بعد ذلك للإنسان دافعا إياه للتفكر فيها "هل في ذلك قسم لذي حجر"، وقبل أن يأتي بجواب القسم يذكره بفعل الله عزوجل مع قوم كذا وكذا، فإذا أتى الإنسان إلى جواب القسم سلم حتما به، وهو أن الله تعالى لبالمرصاد، فلقد قدم له مقدما الأدلة على الدعوى فيُرفع الاعتراض أو الشك قبل وقوعه!

(134) للأسف وجدنا أن بعض المفسرين طمس هذا المعنى فقال أن المراد ليس يسر ولكنى يُسرى فيه!!! وسبب هذه الإشكالية عندهم أن السرى هو السير بالليل، ولست أدري ما الذي يمنع أن ينسب نفس الفعل إلى الليل؟ فقالوا: الليل يُسرى فيه ولا يسر! ولست أدري كيف يقول الله شيئا فيعدلونه هم! إن هذه الآية آية جلية في وصف فعل طبيعي، فالآية تتحدث عن مسير الليل وذهابه.

فالله يبشر نبيه أن دينه في علو وظهور فلقد أتى الفجر وإذا أتى الفجر فحتما لا بد أن ينقضي ويذهب وبعد الفجر يكون النهار وهو ما كان فعلا، فذهب الليل وأتى فجر الإسلام وضحاه وظهره!

ونلاحظ في المقسمات بها أدلة دامغة على كون الله عزوجل بالمرصاد في الدنيا، فالمقسمات بها هي أزمنة "فجر، ليال، سير ليل" وكذلك هي فعل يحدث في هذه الأزمنة وهو عملية الشفع والوتر، فالله يشفع الناس ويوترهم في زمان، فهذا الفعل لا يحدث خارج نطاق الزمان بل يحدث داخله ويحتاج إلى زمان قد يطول، لذا فعلى الإنسان ألا يتعجل ويعلم أن كل شيء بمقدار وأجل والله عزوجل هو الأعلم بالزمان والمكان والقدر المناسبين لإنفاذ فعله العظيم، فإذا جاء هذا الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون!

لذا يقول الله في الآية التالية:



---

(135) قيل في الحجر أنه العقل، ولكن لماذا قال الله عزوجل هنا "لذي حجر"؟، ففي هذا الموضع الوحيد من القرآن أتت هذه الكلمة بهذا المعنى، وبخلاف ذلك نجد الله عزوجل يقول: "لأولي الألباب، لأولي النهى"، فما المناسبة لاستعمال هذه الكلمة هنا؟ الناظر والمدقق في السورة يجد أن هذه الكلمة هي أنسب كلمة تستعمل في هذا السياق، فإذا نحن نظرنا بعد آيات قليلات سنجد أن الله تعالى يقول: "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد"، وثمود هؤلاء سماهم القرآن في سورة أخرى "أصحاب الحجر"، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ [سورة الحجر, ٨٠]

والحجر واد بين الحجاز والشام كانوا يسكنونه، قال الراغب: يسمى ما أحيط به الحجارة حجراً وبه سمى حِجر الكعبة وديار ثمود. إذا فالحجر أساسا يدل على الإحاطة والمنع كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝١٣٨﴾ [سورة الأنعام, ١٣٨]، وكما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [سورة الفرقان, ٥٣]، ولكنه يطلق تخصيصا على ما أحيط بالحجارة، فإذا نحن نظرنا في الآيات التاليات وجدنا أن الحجارة كانت هي العامل المشترك لهذه الأقوام المذكورة والتي اغتروا بها. فعاد التي كانت في اليمن بنت من الأبنية العظيمة ما لا يقارن به، حتى أن الله قال في حقهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾ [سورة الشعراء, ١٢٨] وكانت هذه الأبنية من الحجارة، وأما ثمود فوصفهم الله بذلك هنا وفي الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾ [سورة الأعراف, ٧٤].

هل في ذلك السابق المذكور قسم لمن يحتمي بقوته وبمن يمنعه فيحسب أن هذا حجر له ومانع؟ فالله تعالى ينبه أن تبدل الأزمنة ومرورها والنقصان والزيادة أكثر من كافية لإهلاك أي طاغ متجبر محتم بغيره، فدورة الزمان دائرة وهي لا تبقي أحدا!

وبعد أن أنهى الله عزوجل الأقسام يقول مخاطبا النبي الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا[136] فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟[137] ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

فالله يسأل نبيه ليذكره بقدرته ورصده، ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد والتي وصفها الله في كتابه الكريم أوصافا عدة توضح عظمتها، وزادها هنا بقوله أنها لم يخلق مثلها في البلاد.

وكذلك ألم تر كيف فعل بثمود، الذين خرقوا ونحتوا الصخر، فهؤلاء كانوا من الأقوام الشديدة وكانوا يعيشون في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ولكن على الرغم من ذلك أهلكهم الله بالصاعقة! وكذلك فعل الله بفرعون ذي الأوتاد[138]! فالله تعالى يسأل النبي الكريم: ألم تر كيف فعل ربك بعاد وثمود وفرعون؟ وهم من كانوا في القوة والمنعة، ولم يمنعهم كل ذلك من الله.

والحضارة المصرية القديمة اشتهرت أيما اشتهار باستعمال الأحجار، وفرعون كان عظيما من ملوك مصر القدامى –الموصومين زورا وبهتانا بالفراعنة، وما كان فيهم إلا فرعون واحد هو فرعون موسى!–.

إذا فالعامل المشترك بين الأقوام الثلاثة هو القوة الشديدة واستعمال الحجارة، فالله تعالى يقول: "هل في ذلك قسم لذي حجر" لإنسان لذي منعة، لديه عقل قوي يمنعه من الهلاك والضياع حتى لا يكون مثل هؤلاء الأقوام الذين لم يتمنعهم حجارتهم من الهلاك!

(136) سواء كان المراد من "مثلها" المدينة أو القبيلة نفسها، فالشاهد أن الله قد أهلك هؤلاء القوم الذين زادهم بسطة حتى قالوا من أشد منا قوة! فأنزل عليهم العذاب بالريح فبادوا!

(137) ليس المراد المعنى العامي "أحضر" فجوب كما جاء في المقاييس: "الجيم والواو والباء أصلٌ واحد، وهو خَرْقُ الشيء. يقال: جُبْتُ الأرضَ جَوْبا، فأنا جائبٌ وجَوّابٌ. (...) وأصلٌ آخر، وهو مراجَعة الكلام، يقال كلمه فأجابَه جَواباً، وقد تجاوَبا مُجاوَبة." اهـ

(138) نلاحظ هنا أن الله عزوجل عندما تكلم عن هلاك فرعون تكلم عن هلاكه هو –وآله تباعا– وليس عن هلاك وتدمير الحضارة المصرية! لأن العذاب الذي خصص لفرعون كان عذابا مسلطا على أفراد وليس على المباني كما كان مع عاد وثمود!

ثم يوضح الله عزوجل للنبي الكريم السبب الذي أدى إلى نزول العذاب بهم، فالعذاب لا ينزل هكذا اعتباطا وإنما لأسباب حازمة فقال:

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢﴾

فلقد طغت هؤلاء الأقوام طغيانا عظيما وأكثروا الفساد في الأرض فأرسل الله عزوجل لهم الرسل فاستمروا في طغيانهم ولم يرتدعوا أو يتذكروا.

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ[139] عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ[140] ۝١٤﴾

ولقد صب عليهم الله عزوجل سوط عذاب ولم يصب عليهم العذاب! فالعذاب الحقيقي والصب الحقيقي سيكون في الآخرة! أما في الدنيا فمجرد سوط. أي أن العذاب الذي نزل بهم لم ينزل صافيا بل كان مخلوطا، فما بالنا بالعذاب الذي سينزل يوم القيامة! فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، فالله عزوجل بالمرصاد. إذا فالله راقبٌ لأفعال العباد معد لهم –في الدنيا والآخرة– ما يناسبها من الثواب والعقاب، وقد يتأخر هذا الجزاء ثوابا أو عقابا ولكنه نازل نازل، لأن الله تعالى بالمرصاد.

ثم يوضح سبحانه للإنسان أنه غافل عما ذكره عزوجل في أول السورة، وكيف أنه ينسى أن الله عزوجل بالمرصاد، وليست العبرة بالقريب وإنما العبرة بما يؤول إليه الإنسان –أو الأمة كلها– فهذا هو الجزاء الحقيقي الباقي! فيقول:

---

(139) السوط كما جاء في المقاييس: "السين والواو والطاء أصلٌ يدلُّ على مخالطة الشَّيءِ الشيءَ. يقال سُطت الشّيءَ: خلطتُ بعضَهُ ببعض. وسَوَّط فلانٌ أمرَهُ تسويطاً، إذا خَلَطَه. قال الشَّاعر: فلستَ على تسويطها بمُعان، ومن الباب السَّوط، لأنّه يُخالِط الجِلدة؛ يقال سُطْتُهُ بالسَّوط: ضربتُهُ. وأمَّا قولهم في تسمية النَّصيب سَوطاً فهو من هذا. قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾] سورة الفجر ,١٣[، أي نَصيباً من العذاب." اهـ

(140) المرصاد مفعال من الرصد، وهو معروف، فهو كما جاء في المقاييس: "الراء والصاد والدال أصلٌ واحد، وهو التهيُّؤ لِرِقْبةِ شيءٍ على مَسْلكِه، ثم يُحمَل عليه ما يشاكلُه. يقال أرصدتُ له كذا، أي هيّأْتُه له، كأنّك جعلتَه على مَرصَده. وفي الحديث: "إلاّ أنْ أُرْصِدَه لدَيْنٍ عَلَيّ" وقال الكسائيّ: رصدتُه أرصُدُه، أي ترقَّبتُه؛ وأرصَدْت له، أي أعدَدْت... " اهـ

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

فيوضح الله عزوجل أن عملية الشفع والوتر التي ذكرها في أول السورة هي من الابتلاء الذي ينزل بالناس أمما وأفرادا، لعلهم يحمدون أو يتضرعون ولكنهم ينسون! فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ... ﴾ فالإعطاء والإكرام والتنعيم هو ابتلاء من الله عزوجل لينظر أيشكر أم يكفر: ﴿... قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة النمل, ٤٠] فيظن الإنسان أن عطاء الله دليل على الرضا والإكرام، وإذا حدث وكان هناك بعث فسيكون هناك كذلك من الفائزين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الكهف, ٣٦]

فينسى الإنسان شكر الله ويكفره! وإذا حدث الابتلاء بالشكل المغاير وكان الابتلاء بتقدير الرزق فيظن أن في هذا إهانة من الله عزوجل له! فيرد الله عزوجل على هذين الظنين الباطلين ويوضح أن الإكرام والمهانة أو توسيع الرزق وتضييقه راجع كذلك إلى بعض العوامل في مجتمع الإنسان[141]، فإذا أتى الناس بهذه الأفعال قُدّر عليهم في أرزاقهم وظهر فيهم الفساد الذي يؤدي إلى إهلاكهم، –وبداهة إذا أتوا بمعكوسها ينصلح حالهم ويفوزون في الدنيا، وإذا كانوا من المؤمنين فازوا في الدارين– ويكونون هم بهذا هم الذين أهانوا أنفسهم! وهذه الأفعال هي:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

فإذا كان في المجتمع إهمال لمن مات أبوه "نموذج لمن وُتر" وتضييع له، وعدم اهتمام بالضعفة المساكين وكذلك هناك أكل تام شامل للتركات وتضييع لأصحابها،

(141) المراد من الإنسان في الآية جنس الإنسان وعامته بدليل الانتقال من المفرد إلى الجمع "تكرمون، تحاضون ..."

وكذلك تكالب على جمع المال وحب شديد له يلهي عن غيره، فهنا ينزل حتما العذاب بذلك الإنسان اللاهي الغافل، وهنا تكون الإهانة الحقيقية، فليست الإهانة في تقدير الرزق وإنما الإهانة عند تحقق هذه العناصر في المجتمع، فإذا تحققت ظهر الفساد وعمت الأثرة في المجتمع وغلب الحقد والتشاحن بين الأفراد فيقودهم هذا إلى المهانة وإلى الهلاك!

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ[142] رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾

فيوضح للإنسان بقوله "كلا" أن ما في الدنيا ليس هو الإكرام والإهانة وإنما يكون الإكرام والإهانة الحقيقيين في الآخرة، فكل ما في الدنيا هو خلط أو جزاء بسيطة، فإذا جاءت الآخرة كان الأصل والدوام.

فتقدم السورة لنا مشهدا يجتمع الله عزوجل فيه هو والملائكة وجهنم، وهنا علينا أن نتذكر أن جهنم هي مرصاد! ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾﴾ [سورة النبإ, ٢١]، فجهنم مرصاد والله عزوجل بالمرصاد، ولكن جهنم "للطاغين مآبا" فهي مرجع الطاغين أما المؤمنين فمرجعهم إلى الله عزوجل ورحمته وجنته!

فإذا جيء بجهنم يتذكر الإنسان –ونرجو أن يكون القارئ متذكرا لما طلبنا إليه الانتباه إليه عند حديثنا عن النسيان!– ولكن أنى له الذكرى، فلا فائدة من هذه الذكرى في هذا اليوم فلقد ذكّر الأنبياء في الدنيا ولكن لا سميع ولا مجيب! وكان هناك طغيان وفساد وإنشغال بالأرض! فهناك يندم الكافر، ويتمنى ويقول يا ليتني قدمت في الدنيا لحياتي الحقيقية، لأن الحياة الدنيوية مهما طالت فهي منقطعة وزائلة أما حياة الآخرة

[142] نلاحظ أن هذه هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها "جاء" لله عزوجل، فلم يذكر مجيء أو ذهاب لله عزوجل في القرآن كله! ونلاحظ أن الله جاء والملائكة صفا صفا وكذلك "جيء يومئذ بجهنم" فجهنم كذلك موجودة في المشهد! فلماذا جاء الله عزوجل؟ لأن الله تعالى بالمرصاد في الدنيا وهناك الكثير ممن يرون فعله ينكرون أن يكون موجودا فيجيء الله عزوجل في اليوم الآخر بشكل هو وحده أعلم به! (ونلاحظ أنه جاء وليس *أتى* فتنبه!) فيحاسب العباد الحساب التام الكلي على أفعالهم فيجازيهم عليها بالعدل فلا يظلم أحد شيئا.

فهي الباقية لذلك فهي الحيوان: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾] سورة العنكبوت, ٦٤[فهي الحياة الباقية، فيتمنى أن يكون قدم لها ما ينجو به!

ففي هذا اليوم يكون العذاب شديدا جدا ويكون عذابا مباشرا لا ينتظر زمانا أو يحتاج إلى عوامل أو تدخل من أحد:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾

فكما وضحنا فالإنسان يكون من الأسباب التي تؤدي إلى نزول العذاب به وبقومه في الدنيا فيكون هو بفعله من عذب نفسه –راجع العناصر التي عاب الله عزوجل على البشر فعلهم لها في السورة!– أما في الآخرة فليست هناك تداخلات أو أسباب أو ما شابه فالأمر كله لله فهو الذي يعذب وهو الذي يوثق! ولكن ليس هذا التعذيب لكل إنسان، وإنما هو لمن أهان نفسه أما من اتبع رضوان الله عزوجل، فله جزاء ومرجع آخران وهو:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ[143] رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾

فالنفس المطمئنة بذكر الله عزوجل وبدينه وكتابه ترجع إلى الله راضية بفعل الله وقضائه في الدنيا وبثوابه في الآخرة.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

---

[143] المراد من الرب هنا حتما هو الله عزوجل وليس بدن الإنسان كما قال بعض المفسرين، لأن الناظر في كتاب الله عزوجل يجد أن الله تعالى يقول: ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾] سورة الأنعام, ١٦٤[، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾] سورة السجدة, ١١[، ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾] سورة الزمر, ٧[، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾] سورة القـيامـة, ١٢[، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾] سورة القـيامـة, ٣٠[، وكثير من الآيات المشابهة، وهي كله تدور في فلك إثبات معنى رجوع الإنسان إلى ربه، فكذلك هنا هذه الآية! ثم إنه –على قولهم– قد جُعل البدن ربا للنفس! وهو ما لا يقول به أحد، فالنفس هي من تحكم الجسد وتستحقه أن تكون ربته، لا العكس!

فتنضم النفس المطمئنة إلى باقي عباد الله عزوجل وتدخل جنة الله عزوجل. فهناك كانت جهنم مرصاد للطاغين مآبا، وهنا الجنة مرجع المتقين ففيها نعيم الله عزوجل.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة البلد في فلك حث الإنسان على التحصل على مصدر الفلاح والقوة الحقيقة للإنسان.

وإذا كانت سورة الفجر قد تكلمت عن أن الله تعالى بالمرصاد، وأن الجزاء الذي ينزل بالناس في الدنيا والآخرة من جنس أعمالهم، فإن سورة البلد ترشد الإنسان إلى مصدر القوة الحقيق وإلى ما فيه الفلاح وتجنب العذاب، وهو الجماعة الكبيرة المؤمنة، التي يساند القوي فيها الضعيف!

وكانت سورة الفجر قد انتهت بالحديث عن النفس المطمئنة ودخولها الجنة، وتبدأ سورة البلد بنفي القسم بمكة، لأن أعظم نفس –محمد الرسول– مستباحة وغير مطمئنة فيها، فليست العبرة بالمباني والمشيدات وإنما العبرة بالإنسان، وكيف يُقدس المكان وفيه يهان الإنسان، فهذا أول عنصر في هلاك المجتمع في الدنيا والآخرة.

﴿لَآ أُقۡسِمُ[144] بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ[145] بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾

---

[144] ذكر الله تعالى هذه التركيبة "لا أقسم" ثمان مرات في القرآن، وهناك آراء عدة في فهم هذه التركيبة، وإن كان الرأي الشائع عند عامة المفسرين أن "لا أقسم" تعني: أقسم! و "لا" زائدة! ولقد وضحنا من قبل أنه لا يوجد زيادات في القرآن، وعرضنا لهذه التركيبة وقلنا أن المراد من "لا أقسم" هو "لا أقسم"! وقلنا لاحقا أن هذه التركيبة تكون عند التعرض لشيء بدهي لا يحتاج إلى القسم عليه، وهنا نضيف: أو مع وجود طارئ يحول دون القسم بالشيء! وهو ما سنراه في هذه السورة.

[145] على الرغم من وضوح لفظة "حِل" إلا أنا وجدنا أن السادة المفسرين قد اختلفوا فيها، فقالوا أنها بمعنى: حال أي مقيم! أو بمعنى: حلال، أي حلال للنبي أن يقتل فيها من يشاء!! –وضع ما يحلو لك من علامات التعجب!–، وقيل غير ذلك من الأقوال، وكل هذا التخليط راجع إلى الفهم الخاطئ ل "لا أقسم"، ولو أخذوا كل لفظة على ظاهرها كما هي مقتصرين عليها، لما حصل هذا الخلاف!

تبدأ السورة بنفي القسم بمكة "لا أقسم بهذا البلد"، وتأتي الآية الثانية فتعطينا المبرر قائلة: "وأنت حِل بهذا البلد"، فهذه الآية هي السبب في عدم الإقسام بمكة، وهو أن النبي الأعظم مستحل مستباح في هذه البلدة من الكافرين، على الرغم من أنهم يحرمون شجرها وطيرها!

ثم يعود فيقسم فيقول:

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ[146] ۝٣ لَقَدْ[147] خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ[148] ۝٤﴾

فيقسم بعنصر تكون البلد "الوالد وما ولد" أن الإنسان لا محالة سيواجه العناء والمشقة في حياته كلها، فهناك معالجة أمور حياته من أجل المكسب، وهناك العلاقات الاجتماعية والتي قد تسبب للإنسان أكبر كبد في حياته من أجل مسايرتها، وهناك الأمراض وهناك المصائب والكوارث وهناك أصناف أخرى من الكبد تعم حياة الإنسان كلها فلا يكاد يخلو منها، ولقد أمده الله بالقدرة على مكابدة كل هذا.

والعجيب أن الإنسان[149] بدلا من أن يستغل هذه القدرة التي أعطاها الله عزوجل له في مواطنها، اتجه بها توجها غريبا، فدخله الغرور والكبر، لذا قال الله تعالى:

---

[146] في هذه الآية إشارة إلى عظم قدر الإنسان والعلاقات الإنسانية عند الله، فالله تعالى يرفض القسم بمكة لأن الجماعة مضيعة للفرد، ثم يقسم بالوالد الذي هو شديد الحرص والمحافظة على ولده، فهذا أكرم على الله من أي بناء.

ونميل إلى القول أن المراد من "وما ولد" هو الأرحام: ﴿... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ... ۝١﴾ [سورة النساء , ١]، ولو كان المراد المولود؛ عاقلا أو غيره لقال: "ومولود"، ولكن لما قال: "وما ولد" ظهر أن هذا غير ذلك، فكما أن الوالد هو المحافظ على الولد في الدنيا فالأرحام هي وعاء حفظه قبل مجيئه إلى دنيا.

[147] قلنا مسبقا: أن المقسم به لا بد أن يحتوي دليلا ظاهرا على صحة المقسم عليه، فإذا نظرنا إلى العلاقة بين الوالد والولد والتي هي أشد العلاقات وأقواها حميمية والتي تعتمد على الحماية والرعاية من جانب لآخر، وجدنا فيها من المكابدة ما فيها، سواء في التربية أوفي التعامل بعد الكبر، فإذا كان الكبد ظاهرا بهذا الشكل بين الوالد والولد فما بالنا بحياة الإنسان كلها والتي يواجه فيها الإنسان ما لا يد له فيه!

[148] الكبد معروف وهو الشدة في معالجة الشيء، وفي هذا يقول ابن فارس في المقاييس: "الكاف والباء والدال أصلٌ صحيح يدلُّ على شِدّة في شيء وقُوّة. من ذلك الكَبَد، وهي المشقّة. يقال: لَقِيَ فلانٌ من هذا الأمر كَبَداً، أي مشَقة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد , ٤]. وكابدتُ الأمر: قاسيتُه في مشقّة..." اهـ

[149] لاحظ أن القرآن يستعمل لفظة "الإنسان" في مواطن الذم عند الحديث عن الجوانب الخلقية.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾

رادا ومستنكرا على هذا المتكبر، الذي يظن أنه بلغ من القوة بنفسه وبلده وأهله ما لن يصل إليه غيره، أيحسب هذا الإنسان ألن يقدر عليه أحد؟ فما هو المبرر لهذا الاعتقاد؟

فهذا المتكبر يتفاخر ببعض قدراته ومبررات عجبه فيقول: أهلكت مالا كثيرا، مشبه كثرته باللبدة وهو الشيء المتكاثف! أي أهلكت مالا لا يستطيع أحدا عده أو الوصول إليه، فأهلكت في البناء وفي الزراعة وفي الحصون وفي الأنعام وفي المتحركات ... إلخ! ظانا أنه يستطيع الوصول بالمال إلى كل ما يرغب أو يريد، كأن المال هو القوة السحرية التي تضيف للإنسان أضعافا مضاعفة من القوة وتجعله له القدرة المطلقة!

فيرد الله عزوجل عليه موضحا مساواته للآخرين وعدم تفرده عنهم واحتياجه هو الآخر إلى نفس ما يحتاجه الآخرون، وأن قوته أو ماله لا يغنيان عن هذه الأشياء مقدار ذرة، فيقول الله تعالى:

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ[150] ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ[151] ۝١٠﴾

---

(150) العبرة في ذكر هذه الأعضاء بخلاف غيرها من الأعضاء أنها من أهم أعضاء التواصل مع الآخرين والتحكم فيهم والسيطرة عليهم، فقد يفقد الإنسان يده أو رجله أو أي عضو من أعضائه الداخلية، إلا أنه قد يستغني عن الآخرين وقد يستطيع السيطرة عليهم بنظرات ثاقبة من عينيه وبكلمات حازمة من فيه، أما إذا فقد هذه الأعضاء فيختفي في الغالب القدرة على التواصل مع الآخرين والتكبر عليهم، لأنه يحتاجهم في قضاء عامة حاجاته الأساسية، فكيف يتكبر عليهم أو يدعي التميز عنهم، وهو في حاجة إليهم دوما؟!

(151) النجد كما جاء في المقاييس: "النون والجيم والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اعتلاءٍ وقوّة وإشراف. ..." اهـ

واختلف السادة المفسرون في النجدين، وإن كان عامة خلافهم يرجع إلى قولين اثنين، وهما: طريقا الخير والشر، أو الثديان!

والذي نراه أن المراد من النجدين هما الثديان وليس طريقي الخير والشر، فالله تعالى هدى الإنسان إلى طريق واحد، وهو طريق الخير، وإن كان أعطاه القدرة على اختيار الطريق الآخر، ثم إن الطريق غير مشهور بالنجد، حتى إذا أطلق انصرف إليه! كما أن السياق لا يتناسب بعده. أما إذا قلنا أن المراد من النجدين الثديان، فإن هذا مناسب لكل إنسان، فكل إنسان ولد التقم ثديي أمه بدون مساعدة من أحد، ولا بد أن نذكر أن هذا خطاب في الأساس لإنسان متكبر، فلا بد من تذكيره بوجوه حاجاته التي يقر بها،

هل يظن أنه لم يره أحد، وهو يكبر ويعتمد على الآخرين، وكيف بنى نفسه، حتى صار إلى ما صار إليه؟! هل بنى نفسه أم اعتمد على ما وهبه الله، ألم يجعل الله له عينين، يبصر بهما غيره ويكتشف بهما ما حوله ويتعامل به مع كل ما يظن أن له الغلبة عليه، وكذلك جعل الله عزوجل للآخرين، فهو لم يجعل له فقط، وإنما له ولغيره فلم التكبر والعجب، فماذا لو نزع الله عزوجل منه العينين؟! وكذلك لسانا وشفتين يتكلم بهما ويستخدمهما في تصريف أموره وفي التعامل مع الآخرين، فتصور لو نزع منه القدرة على الكلام، كم سيكون تعامله مع الناس أعسر وأشق.

وبخلاف هذا الإعداد البدني فلقد هداه في صغره إلى ما ينفعه ويضمن له الحياة، فهداه وهو صغير إلى ثدي أمه ليرضعه! فلم التكبر والاعتقاد بالصفوية؟!

ثم تعرض السورة المصدر الحقيقي للقوة وهو المجتمع المؤمن المتماسك، الذي يحمل القوي فيه الضعيف، حتى يزيل عنه ضعفه ويصبح عضوا فاعلا في البلد:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ[152] ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾

أما إذا قيل أن المراد من ذلك سبيل الخير والشر، لقال: إنما اهتدي بنفسي إلى الخير واتجنب الشر، أما الثديان فلا يجادل فيهما، كما أن فيهما من الأشارة إلى الضعف والاحتياج ما ليس في غيرهما.

[152] اختلف المفسرون في المراد من *العقبة*، والاختلاف في تحديد لفظ العقبة لازم، لأنها من الكلمات التي استعملها القرآن استعمالا موسعا تجاوز المدلول اللغوي لها، ويدل على ذلك استعمال سبحانه لتركيبة "وما أدراك ما" والتي تدل على عظم هذا الشيء! ولكن هذا لا يعني أن اللغة لا تساعدنا في التوصل إلى المعنى الإجمالي للعقبة! فالعقبة من "عقب" وهي كما جاء في المقاييس: "العين والقاف والباء أصلانِ صحيحان: أحدُهما يدلُّ على تأخير شيء وإتيانِه بعد غيره. والأصل الآخَر يدلُّ على ارتفاعٍ وشدّة وصُعوبة. فالأوّل قال الخليل: كلُّ شيء يَعقُبُ شيئاً فهو عَقيبُه، كقولك خَلفٍ يَخلف، بمنزلة اللَّيل والنهار إذا مضى أحدُهما عَقَبَ الآخَر. وهما عَقيبانِ، كلُّواحدٍ منهما عَقيبُ صاحبِه. (...) قال الخليل: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخره، وكذلك العُقَب، جمع عُقْبة. قال:ويقال: استعقَبَ فلانٌ من فِعلِهِ خيراً أو شرّاً، واستعقَبَ من أمرِهِ ندماً، وتَعقَّب أيضاً. وتعقَّبْت ما صنَعَ فلانٌ، أي تتبَّعت أثره. (...) ويقولون: ستَجِد عقِبَ الأمر كخيرٍ أو كشرٍّ، وهو العاقبة. (...) قال الخليل: عَقبت الرّجُل، أي صرت عَقِبَه أعقُبه عَقْبا. ومنه سمِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العاقب" لأنَّه عَقبَ مَن كان قبلَه من الأنبياء عليهم السلام. (...) قال أبو زيد: جئتُ في عُقب الشهر وعُقْبانِه، أي بعد مُضِيِّه، العينان مضمومتان. قال: وجئت في عَقب الشهر وعُقبه. (...) قال الخليل: جاء في عَقِب الشهر أي آخرِه؛ وفي عُقْبه، إذا مضى ودخل شيءٌ من الآخر." اهـ

إذا فالعقب شيء متأخر تابع لغيره، مرتبط بالشدة والعسر، ونحن نستعمل هذه اللفظة في كلامنا اليومي، فنقول: *فلان عقبة في طريقي ولا بد من إزاحته*! والعقاب ما هو إلا جزاء الأعمال المتأخر الشديد العسير! فالله سبحانه وتعالى باستعماله هذه اللفظة يشير إلى ذلك المعنى أنه شيء عسير بعيد، ولكن على الإنسان اقتحامه بدلا من الإتيان بالأشياء البسيطة أو التي لا نفع فيها!

أي فهلا كابد، كما يكابد من أجل التفوق والتميز في الحياة، في اقتحام العقبة! فالله تعالى يحث الإنسان ويحضه على اقتحام العقبة ولا يتوقف أمامها عاجزا أو متكاسلا أو مقصرا، فهي أمر عسير بالنسبة له ولكنه يستطيع أن يفعلها، وبذلك يزيل العقبة من أمام من لا يستطيع أن يزيلها.

وبما أن العقبة لفظ عام قد يدخل تحته الكثير والكثير من الأمور، قام الله عزوجل بتوضيح أهم مظاهر العقبة هذه، فقال:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ[153] ۝١٤﴾

فأهم صور اقتحام العقبة هو "فك رقبة" وفك الرقبة معروف وهو تحرير العبيد بأن يشتري عبيدا ويحررهم أو يعتق من لديه أو يكاتبهم، من الممكن أن يدخل فيه كذلك سداد الديون عن المدينين، فيكون بذلك قد فك رقبتهم من السجن!، وكذلك إطعام في يوم ذي مجاعة.

وذكر الله عزوجل هذين الصورتين لأنهما أهم صور استعباد الإنسان، فإذا اقتحمتهما فقد حررت الإنسان، فالإنسان إما أن يُستعبد كلية أو يستعبد بلقمة عيشه، فإذا أنا ألغيت هذين العنصرين بأن وفرت للإنسان حريته ووفرت له ما يقتات به حصلت على إنسان سليم معاف مناصر.

وتأتي الآيتان التاليتان فترجح أنهما وآيتي الفك والإطعام من أهم المظاهر وليس المراد بهما الحصر فقط، فتقول:

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ[154] ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا[155] ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾

---

[153] المسغبة من سغب، وهي كما جاء في اللسان: "سَغِبَ الرجلُ يَسْغَب، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْباً وسَغَباً وسَغابةً وسُغُوباً ومَسْغَبَةً: جاعَ. والسَّغْبة الجُوعُ، وقيل: هو الجوعُ مع التَّعَب؛ وربما سُمِّيَ العَطَش سَغَباً، وليس بمُسْتعمَلٍ. ورجلٌ ساغِبٌ لاغِبٌ: ذو مَسْغَبَة؛ وسَغِبٌ وسَغْبانُ لَغْبانُ: جَوْعانُ أَوعَطْشانُ. وقال الفراءُ في قوله تعالى: في يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، أَي مَجاعةٍ." اهـ

[154] نلاحظ في هذه السورة استعماله سبحانه وتعالى لوزن "مفعلة" مرارا، فنجده يقول: "مسغبة، مقربة، متربة، مرحمة، ميمنة، مشئمة"، وفي هذا الاستعمال لطيفة وفارق في المعاني لا يجوز تجاوزه هكذا فنقول: أن مقربة بمعنى قرابة، أو متربة بمعنى تراب!

أي أن الفك أو الإطعام يزيد فائدته ونفعه إذا كان المفكوك أو المطعوم يتيما ذا قرابة من المطعِم أو مسكينا ذا متربة، ومتربة صيغة مفعلة من ترب، وهو تعبير يدل على شدة الحاجة حتى أنه يبحث دوما في التراب عما يأكله، والتعبير ب: "ذي" يدل على أن هذا حال ملازم له، فهو دوما ذو متربة، لا أن هذا حال عارض.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ[156] ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ[157] ۝١٨﴾

فهلا اقتحم ذلك الإنسان العقبة وكان بخلاف اقتحامه العقبة من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر، والتواصي بالصبر من أهم عناصر تثبيت الإنسان وإمداده بالقوة، وبدونها قد يضعف الإنسان ويتزلزل من المواقف التي يمر بها، أما إذا وجد من يُصبره فيثبت ويُؤتى مددا من القدرة والقوة.

كما أنهم يتواصون بالمرحمة، فيوصى بعضهم بعضا بالرحمة بكل أشكالها وألوانها، وكذلك بمن يستحقونها وبالأماكن والمواطن التي يُحتاج فيها إلى الرحمة.

وهم أصحاب الميمنة، وهذا يكون في المجتمعات التي تعمل على بناء الإنسان وتحريره، حيث يسود الود والإخاء والتعاضد بين الناس في هذه البلاد. وأظهر ما يكون

فما اللطيفة في استعمال هذا الوزن؟ إذا نحن بحثنا في اللغة وجدنا أن وزن مفعل يأتي مع اسم الزمان والمكان، ووزن مفعلة يأتي مع اسم الآلة ولكنه يكون بكسر الميم، مثل قولنا: مِغسلة وليس مَغسلة. وقد يصاغ اسم المكان من الأسماء الثلاثية المجردة على وزن مفعلة للدلالة على كثرة الشيء في مكان ما، كما يقال مأسدة وملحمة، في المكان الذي يكثر فيه الأسود أو اللحم (تطايره عند القتال). إذا فاليوم ذي المسغبة هو اليوم الذي يعم فيه الجوع ويسود (أيام المجاعات)، واليتم ذو المقربة هو اليتيم صاحب أسباب القرابة الكثيرة، فهو قريب مكانا –جار– ونسبا وعلاقة وتعاملا مع المعطي! وكذلك المسكين ذو المتربة، والذي اشتهر في فهمه أنه افتقر حتى التصق بالتراب! ولكنا نرى أن المسكين ذو المتربة هو *ذلك المسكين الذي يبحث دوما في التراب عما يأكله*، فهو يقلب التراب ويثيره دوما عن وبذلك يكون صاحب متربة!

(155) نلاحظ أن السورة خصت بالذكر: "اليتيم والمسكين"، وهما من ذكرا في سورة الفجر.

(156) المرحمة تحمل معنى زائدا عن الرحمة، فهي لكونها على صيغة *مفعلة* تحمل في طياتها الرحمة والمرحوم ومحل الرحمة!

(157) الميمنة من اليمن، ولكنها ليست اليمين كما قال صاحب الكشاف:" الميمنة والمشأمة، اليمين والشمال، أو اليمين والشؤم، أي الميامين على أنفسهم والمشائيم عليها." اهـ

فهي على وزن مفعلة، وهو من أوزان *اسم المكان*، فتكون الميمنة محل كثرة اليمن وعمومه وسواده.

محل اليمين هو في اليوم الآخر حيث يقسم الناس إلى أهل يمين فعلا، وأهل شمال، فهؤلاء هم أصحاب الميمنة، -كما يكون هناك ميمنة في الجيش- ومن ثم يصيرون إلى الجنة وهي ميمنة كذلك!

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ[158] ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾

والذين كفروا بآيات الله عزوجل ولم يتبعوها، وأصروا على ما هم عليه من الكبر وإهلاك الأموال في ما لا نفع فيه هم أصحاب الشمال ومحل الشؤم في الدنيا، فهم وإن علوا في البنيان إلا أن حياتهم كلها شؤم وضياع لضياع الإنسان، كما نرى في المجتمعات المادية شرقية كانت أو غربية! ولا تنحصر المشئمة في الدنيا فإن أظهر ما يكون هذا الموقف في اليوم الآخر، حيث يُقسم الناس ويكونون هم في ناحية اليسار! وهؤلاء بشؤمهم سيكون مرجعهم إلى الشؤم والضيق حيث تحيط بهم النار الضيقة المغلقة ولا يجدون عنها مصرفا.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الشمس في فلك فلاح من اتبع سبيل الفلاح وخسارة المخالف.

وكانت سورة البلد قد حثت الإنسان على بعض الأفعال، فتأتي سورة الشمس لتبين له أن الفلاح في تزكية النفس بإتيان سبل التزكية، -كما قال في سورة الأعلى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾- والخسران في تدسيتها.

---

(158) نلاحظ أن الله تعالى لم يقل: "أصحاب الميسرة" كضد للميمنة، كما نستعمل في الجيش، لأن اليسار يحمل معنى البشر والخير والسعة، أما الشأم فهو خلاف اليمين ولكنه يحمل فيه معنى الشؤم والضيق، وهذا ما سيكون عليه أصحاب المشأمة.

كما تبين له أن بذور الفجور والتقوى موجودة ابتداءا داخل الإنسان، وللإنسان والمجتمع الدور في التوجيه والسيطرة والإظهار.

وكما خُتمت سورة الفجر بالحديث عن شؤم الكافرين، تُختم سورة الشمس بذكر نموذج للشؤم الذي أحاق بالمكذبين الأقوياء، وهم قوم ثمود، الذين كذبوا الرسول وعقروا الناقة.

وإذا كانت السورة السابقة قد ناقشت خاطرة حمقاء، تجول بأذهان كثير من المتجبرين وترسخ في نفوسهم وهي محرك أفعالهم، وهي: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد, ٥]، فإن هذه السورة تُختم بالقول أن الله عزوجل هو الذي يفعل الفعل ولا يخاف عقباه، لأن كل ما في الكون عبيده وخلقه، وهو وحده القادر على كل شيء.

﴿وَٱلشَّمْسِ[159] وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

يقدم الله تعالى في هذه الآيات مشهدا طبيعيا متكاملا متداخلا، فيقسم بالشمس ذلك الجرم المنير المتحرك في السماء وكذلك بظهور نوره وعلوه، ثم يقسم بالقمر عندما يتلو الشمس بعد أن تختفي، ثم يقدم لنا الخلفية المؤثرة في الشمس وهي النهار الذي يكشفها والليل الذي يغشاها (جزئيا!) وهما كذلك متعاقبان يخلف بعضهما بعضا، كما يتلو القمر الشمس! ثم ينتقل الله تعالى بنا إلى محل ظهور هذه الأجرام السماوية فيبدأ بالسماء العالية العظيمة وما جعلها على هذه الهيئة، ثم ينخفض إلى الأرض وما صورها

---

(159) أول ما يلحظه القارئ لهذه السورة هو كثرة عدد الأقسام المذكورة في هذه السورة، ففي غيرها من السور كان عدد المقسم به يتراوح بين واحد وخمسة، أما هنا فعدد المقسمات بها إحدى عشر في سبع آيات في سورة كل عدد آياتها خمس عشرة آية. وفي الآيات صور بلاغية كثيرة وإشارات جليلة –ليس هذا موضع ذكرها– بيّناها على صفحات موقعنا، فمن أراد التفصيل فليرجع إليها هناك: www.amrallah.com/ar

بهذه الصورة! وكيف أن هذين الجرمين متكاملان، (وليسا متضادين مثل العناصر الأربعة السابقة والتي لا تجتمع في آن واحد) فهما حاضران في المشهد في آن واحد، فالأرض الأساس والسماء السقف! ثم يختم الله تعالى هذه المشاهد الفلكية كلها بجرم مخالف لها كلها وهو سيدها والحاكم عليها وهو النفس وما سواها، أن من يزكى النفس فقد أفلح ومن دساها قد خاب.

والعلاقة بين هذه الأقسام هو التداخل والتكامل والتقاطع والمحل، كما يحدث في النفس البشرية، فكل العوامل تتداخل فيها، من ضلال وهداية وفجور وتقوى، وتتابع هذه العوامل في النفس، فقد تتعرض النفس لموقف هداية ثم يتبعه مباشرة داعي ضلال، وحسبا لرد فعل النفس تكون حالتها، فقد تستفيد بها فتعلو فتصير مثل السماء العظيمة البناء، أو تُعرض عنها فتصبح مثل الأرض المطحوة.

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ① وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا[160] ② وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا[161] ③ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا[162] ④﴾

---

[160] اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: "إذا تلاها" فقالوا كما جاء في تفسير الفخر الرازي: "في كون القمر تالياً وجوه أحدها: بقاء القمر طالعاً عند غروب الشمس، وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، فإذا القمر يتبعها في الإضاءة، وهو قول عطاء عن ابن عباس. وثانيها: أن الشمس إذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب، وهو قول قتادة والكلبي. وثالثها: قال الفراء: المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس، يقال: فلان يتبع فلاناً في كذا أي يأخذ منه. ورابعها: قال الزجاج: تلاها حين استدار وكمل، فكأنه يتلو الشمس في الضياء والنور يعني إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس في الإنارة، وذلك في الليالي البيض. وخامسها: أنه يتلوها في كبر الجرم بحسب الحس، وفي ارتباط مصالح هذا العالم بحركته، ولقد ظهر في علم النجوم أن بينهما من المناسبة ما ليس بين الشمس وبين غيرها." اهـ

والتدقيق في الآية يرجح لنا معنى من ضمن هذه المعاني، فالله عزوجل استعمل صيغة الماضي "تلاها"، وكثير من الأقوال المذكورة يناسبها المضارع "يتلوها"، لذا فإن الراجح والله أعلم أن المراد من تلو القمر للشمس هو تلك الأيام التي يظهر فيها القمر بعد الشمس، فالقمر له مدار محدود، ولكنه يظهر في أيام ويختفي في أخر، فيقسم الله عزوجل بالقمر في حال تلوه للشمس في تلك الأيام التي يظهر فيها!

[161] سببت هذه الآية إشكالا كبيرا للمفسرين، إذا أن المتعارف عليه أن الشمس هي التي تسبب النهار، فكيف يجلي النهار الشمس؟! لذلك حاول بعضهم تجاوز هذه النقطة فقال بأن عود الضمير على الأرض وإن لم يجر لها ذكر لأنه مفهوم. ولكن الواضح من السياق ومن الآيات التالية أن الحديث عن الشمس التي بُدأ الحديث بها. فكيف يجلي النهار الشمس؟

إن المتعارف عليه بين العلوم البشرية أن النهار ناتج عن الشمس وأن الليل ناتج عن غيابها، أما الناظر في كتاب الله عزوجل فيلاحظ أن الله تعالى يذكر وجودا مستقلا لكل منهما، فالنهار له وجود مستقل عن الشمس وكذلك الليل له كيانه القائم بذاته

يبدأ الله تعالى السورة بقوله: والشمس وضحاها، يقسم الله تعالى بالشمس مطلقا، ذلك الجرم العظيم الذي ينير الأرض في حال حركته، وكذلك بضحاها، كما يقسم بالقمر في حال تلوه للشمس، وبالنهار عندما يجلي الشمس، والليل في حال غشوه للشمس.

وليس مجرد انعدام ضوء، ولنتأمل في الآيات التالية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النحل ,١٢]، فنلاحظ في هذه الآية تقديم ذكر الليل والنهار على الشمس والقمر، وذكر تسخير لهما، ولو كانا ناتجين عن الليل والنهار لما كان لتخصيصهما بالذكر فائدة، فإذا نظرنا في آية تالية وجدنا الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٣٣]، فالليل والنهار مخلوقان، وليسا مجرد أثر أو عدم.

فإذا نظرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأعراف ,٥٤]، نجد أن الله عزوجل نسب فعلا لليل والنهار ونسب التسخير للشمس والقمر.

إذا وكما رأينا فهناك وجود مستقل لليل وللنهار، والشمس ما هي إلا علامة في النهار وتمدنا فيه بما نحتاجه من الحرارة وما شابه.

وهناك بعض العلماء من عرض الآية بشكل مختلف، فقال: والمقصود بكون النهار يجلى الشمس هو أن شدة استضاءة الشمس داخل منطقة النهار، فإذا صعدت فوق حدود الغلاف الجوى لا تراها صفراء شديدة الإضاءة لا تستطيع أن تنظر إليها بل تراها زرقاء باهتة، فشدة الإستضاءة لقرص الشمس لا يكون إلا بوجود الغلاف الجوي. أى لا يتم إلا فى منطقة النهار حيث تتوافر الأعداد الهائلة من الجسيمات التى تشتت ضوء الشمس، فالنهار ليس مجرد ضياء بل حالة مؤقتة مركب، ويشترط وجود الشمس والغلاف الجوى الكثيف القريب من الأرض معا لحدوثها ولا يوجد فى الكواكب الخالية من الغلاف الجوى كما أن هذه الحالة (النهار) يشترط حدوثها لزيادة شدة استضاءة الشمس وهذا هو المقصود بلفظ تجلية الشمس. اهـ

ونلاحظ أن الله تعالى استعمل "جلو" ولم يستعمل "ظهر" أو "كشف" لأن النهار يجليها لا يظهرها، والتجلية كما جاء في المقاييس: "الجيم واللام والحرف المعتل أصلٌ واحد، وقياسٌ مطّرد، وهو انكشاف الشيء وبروزُه. يقال جَلَوْتُ العروسَ جَلْوَةً وجَلاَءً، وجَلَوْت السيف جَلاءً. وقال الكسائيّ: السماء جَلْواءُ أي مُصْحِية. ويقال تجلَّى الشيءُ، إذا انكشَفَ." اهـ

والذي نراه أن المراد من الجلو في اللغة هو زيادة الانكشاف لا الانكشاف أصلا، إذا فالنهار يزيد الشمس ظهورا، كما قلنا من قبل!.

(162) الذي أعجب له أن السادة المفسرين لم يتوقفوا عند هذه الآية، فقالوا أن الليل يغشى الشمس، مع أن المعروف أن للشمس وقت ولليل وقت، فكيف غشى الليل الشمس ومتى؟

كما قلنا سابقا فإن لليل وجود قائم بذاته، لا أنه مجرد غياب ضوء، فالليل يغشى الشمس دوما في الفضاء الخارجي، فإذا نحن انتقلنا إلى المستوى الأرضي وجدنا أن الليل يغشى الشمس في حال غروبها، ففي هذا الوقت يولج الله الليل في النهار، وفي هذا الوقت فقط يمكن لليل أن يغشى الشمس. والغشيان كما قلنا جزئي وذلك عند وقت الإيلاج وذلك في وقت الغروب، فعندما يتداخل الليل مع النهار تحدث عملية الغشيان، وعندما يتداخل النهار مع الليل تحدث عملية الإجلاء، فالليل لا يزال موجودا ولكن مع دخول النهار فيه يكشف النهار ضوئه وبذلك يتم إجلاء الشمس!

ونلاحظ أن الله تعالى استعمل الماضي مع القمر ومع النهار فقال: "تلاها، جلاها" واستعمل المضارع مع الليل فقال: "يغشاها" وهذا لأن القمر قد لا يتلو الشمس لذا استعمل الماضي، وكذلك النهار قد لا يجلي الشمس لوجود الضباب أو التراب أو الغيم أو أي حائل يمنع، أما الليل فهو لا محالة يغشى الشمس ولا يوجد ما يمنعه من غشيانها، لأنه يغشاها خارج الغلاف الجوي دوما لذلك عبر بالمضارع.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾

ثم يقسم الله تعالى بثلاث أقسام مختلفات وهي "والسماء والأرض ونفس"، وبعنصر مشترك بين هذه المقسمات الثلاثة هي قوله تعالى "وما"، نرى أنه عائد على الملائكة[163]، أي أنه سبحانه يقسم بالسماء وبالملائكة التي بنتها وبالأرض والملائكة

---

(163) المشتهر بين المفسرين أن "ما" هنا مصدرية أي والسماء وبناءها، وقيل أن القول بمصدريتها فاسد، والمراد من "ما" هنا "من" أي والسماء ومن بناها، والمراد من الباني بداهة المولى عزوجل. ولكن يواجهنا هنا إشكال وهو كيف يقدم الله عزوجل المخلوق على الخالق، وكيف يستعمل "ما" التي لا تأتي إلا في التعميم ومع غير العاقل مع الله عزوجل؟ ولقد حاول الإمام الفخر الرازي تجاوز هذه النقطة فقال: "السؤال الثالث: لم قال: {وَمَا بناها} ولم يقل: ومن بناها؟ الجواب: من وجهين، الأول: أن المراد هو الإشارة إلى الوصفية، كأنه قيل: والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. والثاني: أن ما تستعمل في موضع من كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ... ۝٢٢﴾ [سورة النساء ,٢٢]، والاعتماد على الأول." اهـ

والعجيب أن "ما" لا تستعمل أساسا في اللغة إلا مع غير العاقل، وهم يقرون بذلك، ويرون أن هذا هو الإساس ولكنهم يستثنون ويقولون بجواز استعمالها مع العاقل! فعلاما استندوا في قولهم هذا؟ العجيب أنهم استندوا إلى الآيات التي نحن بصددها، فهم يستدلون بموطن خلاف ليثبتوا قاعدة استثنائية! أما نحن فنرى أن "ما" لا تستعمل إلا مع غير العاقل، *ومن الممكن أن تستعمل مع العاقل إذا كان مبهما أو من باب المشاكلة*، وبداهة لا يمكن أن يكون الله عزوجل مبهما فهو أعرف المعارف، أو يكون غيره مشاكلا له!!. وهنا نسأل: ما المراد إذا ب "ما" هنا، إذا لم تكن مصدرية ولا يراد بها الله عزوجل؟ الحق يقال أن "ما" هذه جعلتنا نتوقف كثيرا عن مواصلة الكتابة في هذه السورة، إلى أن أظهر الله عزوجل لنا فيها فهما مقبولا، وهو أن المراد من "ما" هنا هو الملائكة! فالناظر في القرآن يجد أن الملائكة تقوم بأدوار كثيرة، فهي تنزل الوحي وتنصر المؤمنين وتنزل العذاب، وتتوفى الأنفس وهي أصحاب النار وتتنزل بكل أمر من أوامر الله. ولننظر في بعض الآيات التي ذكر الله عزوجل فيها أدوار الملائكة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [سورة الحجر ,٨] فالملائكة لا تنزل إلا بالحق، وفي حالة نزولهم للبشر فلن يتأخر عنهم العذاب بل سيأتي مع الملائكة! والملائكة تتوفى البشر: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨﴾ [سورة النحل ,٢٨]. والملائكة تنصر المؤمنين: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩﴾ [سورة الأنفال ,٩]. والله يصطفي من الملائكة رسلا: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [سورة الحج ,٧٥]. والملائكة تنزل لطمئنة المستقيمين المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [سورة فصّلت ,٣٠].

وهناك وظائف وأدوار أخرى للملائكة، لا نذكرها هنا، *فما المانع أن يكون المراد من "ما" هنا الملائكة التي باشرت هذه العملية؟* ونحن وإذا كنا نقر أن الله تعالى هو الخالق الحقيقي والمسوي الحقيقي، ولكن كما قلنا فنسبة الفعل إلى المُباشر جائز لا حرج فيه، كما نقول: تتوفى الملائكة أنفس الذين كفروا، وإن كان المتوفي هو الله عزوجل!

التي عالجتها معالجة شديدة، حتى بسطتها وجعلتها ممتدة مناسبة للإنسان، وبالنفس الإنسانية[164] وبالملائكة التي سوتها!

فألهمت النفس البشرية الفجور والتقوى، ولها حرية الاختيار والتصرف. ولكن الله عزوجل يُذكر النفس حتى لا تنسى، وتظن أن حرية الاختيار هذه ليس لها مقابل أو جزاء، فيقول لها:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا[165] ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا[166] ۝١٠﴾

وبهذا القول نكون قد ألغينا كل الإشكاليات الواردة في هذه الآيات، من حيث الجانب اللغوي والإيماني والعقلي والمنطقي، فلا حرج في استعمال "ما" مع الملائكة، لأن الملائكة ليست ذكورا أو إناثا. والملائكة يُستعمل معها ما يدل على المذكر أو على المؤنث أو حتى على العام، لأنها ليست من طبيعة كوننا ابتداءا المحكوم بالزوجية!-

فإذا قلنا أن المراد من "ما" هنا الملائكة، زال الحرج والإشكال المطروح من تقديم "السماء والأرض والنفس" لأن هذه مخلوقات وتلك مخلوقات أيضا، ولكن هذه هي الظاهرة للعيان، ولكن الأخرى الخفية هي المباشرة المنفذة لأمر الرحمن!

(164) نلاحظ أن الله تعالى استعمل كلمة "نفس" نكرة بخلاف كل السابقات والتي جاءت معرفة، فلم؟

اجتهد الإمام الفخر الرازي اجتهادا يُحسب له في هذه النقطة فقال في تفسيره: "فإن قيل: لم نكرت النفس؟ قلنا: فيه وجهان، أحدهما: أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهي النفس القدسية النبوية، وذلك لأن كل كثرة، فلا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس، فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان، والإنسان أنواع وأصناف ورئيسها النبي. والأنبياء كانوا كثيرين، فلا بد وأن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق، فقوله: {وَنَفْسٍ} إشارة إلى تلك النفس التي هي رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات. الثاني: أن يريد كل نفس، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [سورة التكوير ,١٤]، وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات: ﴿... وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة النحل ,٨] ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفضل المقوم لماهيته، والخواص اللازمة لذلك الفصل، فمن الذي يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض، فضلاً عن التوغل في بحار أسرار الله سبحانه" اهـ

إلا أننا نخالف الإمام الفخر قليلا ونرى *أن المراد من "نفس" المنكرة في هذا السياق هو جنس الإنسان*، فالإنسان والحيوانات والنباتات أنفس، وكلها خلقت بعد طحو الأرض، ولكن في هذا السياق يتحدث الله عزوجل عن أنفس بشرية اختيرت وسُويت، لتتولى عملية الخلافة على سطح الأرض، لذا صح استعمال النكرة هنا. ولو استعمل في هذا السياق الذي يتكلم على العموم (السماء والأرض) وقال: النفس، لدخل تحتها بداهة كل الأنفس الحيوانية والنباتية، ولأصبح هذا يعني أن الحيوانات والنباتات مُمتحنة ومخيرة، ولها تقواها وفجورها! ولكن بما أن الحديث عن نفس مخصوصة وهي النفس الإنسانية استعمل النكرة.

(165) استعمل المولى سبحانه هنا لفظ التزكية، وهو كما جاء في المقاييس: "الزاء والكاف والحرف المعتلّ أصلٌ يدل على نَمَاءٍ وزيادة. ويقال الطَّهارة زَكاة المال. قال بعضهم: سُمِّيت بذلك لأنَّها مما يُرجَى به زَكاءُ المال، وهو زيادتهُ ونماؤه. وقال بعضُهم: سمِّيت زكاةً لأنّها طهارة. قالوا: وحُجّة ذلك قولُهُ جلَّ ثناؤُه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ۝١٠٣﴾ [سورة التوبة ,١٠٣]. والأصل في ذلك كلِّه راجع إلى هذين المعنيين، وهما النَّماء والطهارة." اهـ

إذا فالتزكية تدل على العلو والتطهر، وفي هذا إشارة إلى السماء المذكورة، فالإنسان قد يرتقي روحيا ونفسيا حتى يكاد يكون في طهارة ساكني السماء (الملائكة).

أي: نعم وإن كنا أعطيناكم أيها النفوس فجورا وتقوى ذاتيين، إلا أن التصرف تبعا لأي واحد منهما ليس سواء! فقد يزكي الإنسان نفسه حتى يرقيها إلى السماء أو يدسيها حتى يدفنها في الأرض، لا أن ينزل بها فقط إلى الأرض.

ثم يقدم الله عزوجل الدليل التاريخي للإنسان ونموذجا عمليا على خسران النفس، وأن القانون الرباني صادق واقع حتى ولو وقع على أمة بأكملها، فيقول:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ[167] ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا[168] ﴿١٢﴾﴾

---

[166] الدس معروف ولا نزال نستعمله حتى يومنا هذا بهذا المعنى، وهو كما جاء في المقاييس:

"الدال والسين في المضاعف والمطابق أصلٌ واحد يدلُّ على دُخول الشيءِ تحت خفاءٍ وسِرّ. يقال دَسَسْتُ الشَّيءَ في التُّراب أدُسُّه دَسّاً. قال الله تعالى: ﴿... أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النحل ,٥٩]. والدّسَّاسة: حيَّة صَمَّاء تكون تحت التراب. (...) وقولهم: "العِرْق دَسَّاس"؛ لأنَّه يَنْزِع في خَفَاءٍ ولُطف." اهـ

[167] اختلف المفسرون حول كلمة "طغواها"، فما المراد منها، هل هي الطاغية التي بمعنى العذاب، أم أنها بمعنى طغيانهم؟ وفي هذا يقول الإمام الفخر الرازي: "وفي التفسير وجهان: أحدهما: أنها فعلت التكذيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجراءته على الله تعالى، والمعنى أن طغيانهم حملهم على التكذيب به هذا هو القول المشهور. والثاني: أن الطغوى اسم لعذابهم الذي أهلكوا به، والمعنى كذبت بعذابها أي لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به من العذاب، وهذا لا يبعد لأن معنى الطغيان في اللغة مجاوزة القدر المعتاد، فيجوز أن يسمى العذاب الذي جاءهم طغوى، لأنه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد أو يكون التقدير كذبت بما أوعدت به من العذاب ذي الطغوى، ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الحاقّة ,٤] أي بالعذاب الذي حل بها، ثم قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحاقة ,٥] فسمى ما أهلكوا به من العذاب طاغية." اهـ

ونحن نخالف الرأي المشتهر في هذه النقطة، ونرى أن المراد من "طغواها" هو عذابها وليس طغيانها، لأننا إذا نظرنا في كتاب الله كله تحت "كذب ب" وجدنا أن الذي يأتي بعد الباء دوما هو المكذب به، لا سبب التكذيب، فيكون هذا مرجحا، كما أن الآيات القادمة سترجح هذا بإذن الله عزوجل، فالله تعالى يقول أن ثمود كذبت بطغواها "إذ انبعث أشقاها" أي أن هذا التكذيب وقع حين انبعث أشقاها، وفي هذا دليل على أن المراد من الطغوى هو العذاب الشديد المجاوز، إذ لو كان المراد من الطغوى هو الطغيان لكان معنى هذا أن ثمود لم تكذب إلا حين انبعث أشقاها، وهي كذبت بداهة قبل هذا!

[168] قيل أنه شخص يسمى قدار بن سالف، ولكن هذا لا يقدم أو يؤخر! فالملاحظ أن المفسرين لم يقولوا لنا ما سبب كونها أشقاهم؟ أما نحن فنرى أن سبب شقاوته أنه هو الذي أشقى قومه، فلقد هداهم الله –بدأت الدعوة تؤثر فيهم وتؤتي ثمارها وكان من الممكن أن يستجيبوا لسيدنا صالح– فانتفض هذا الأشقى وأسرع ليحارب الدعوة، ويثبت الناس على دين آبائهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فشقوا وأصبح هو أشقاهم. ونلاحظ أن الله تعالى استعمل "انبعث"، والرسل يبعثهم الله، فكأن هذا الأشقى ظن نفسه رسول قومه في محاربة الدعوة، فنهض لذلك وتحرك. وفي هذا إشارة إلى النفس التي ترد صاحبها إلى الضلال الذي ألفته على الرغم من ميلها إلى الحق واقتناعها به، فهذه هي أشقى النفوس.

ويضرب الله عزوجل لنا المثل بثمود لأنها ممن دسوا أنفسهم أخيب تدسية، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة فصّلت, ١٧] فلقد كذبت ثمود بالعذاب التي وعدت به، عندما انتفض أشقاها وأفاق وأسرع لمحاربة الدعوة، فارتكست إلى ما كانت عليه.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ[169] عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا[170] ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا[171] ﴿١٥﴾﴾

---

(169) الدمدمة كلمة غريبة الوقع على أذن القارئ، ولكنها واضحة المعنى من خلال السياق، وهي كما قال ابن منظور في لسان العرب: "ودمَّ الرجل فلاناً إذا عَذَّبه عذاباً تامّاً، ودَمْدَمَ إذا عذب عذاباً تامًّا. والدَّيْمومةُ: المفازة لا ماء بها؛ وأَنشد ابن بري لذي الرُّمَّةِ: إذا التَخَّ الدَّياميمُ والدَّيْمُومُ والدَّيْمومةُ: الفلاة الواسعة. ودَمْدَمْتُ الشيء إذا أَلْزَقْتَهُ بالأرض، وطحْطحْته. ودَمَّهُمْ يَدُمُّهُمْ دَمّاً: *طحنهم فأهلكهم*، وكذلك دَمْدَمَهُمْ ودَمْدَمَ عليهم.." اهـ

(170) التسوية معروفة، ولقد ذكر الإمام الفخر احتمالات فقال: "أما قوله: {فَسَوَّاهَا} يحتمل وجهين، وذلك لأنا إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم، كان معنى {فسوى} الدمدمة عليهم وعمهم بها، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعاً، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وإن فسرناها بالتسوية كان المراد فسوى عليهم الأرض" اهـ

ونتوقف فنسأل: ما هو عود الضمير في "سواها"؟ على قولهم لا عود مذكور للضمير!، أما على قولنا نحن بأن المراد من الطغوى هو العذاب الشديد، فيكون عود الضمير على "طغواها" أي أن الله عزوجل سوى الصاعقة وأتى بها على أكمل وجه وأتمه، فأتت صاعقة طاغية مهلكة ماحية مستأصلة لدابر هؤلاء القوم المكذبين الذين دسوا أنفسهم ورفضوا الهداية فكانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

(171) ما المبرر من ذكر نفي الخوف من العقبى عن الله عزوجل، فما هو المذكور في هذه السورة والذي قد يدفع الإنسان إلى الظن بأن الله تعالى خاف عقباها، فذكر الله تعالى هذه الآية؟

ذكر الإمام الفخر أوجها محتملة في هذا فقال: "اختلفوا فقال بعضهم: لا يخاف تبعة في العاقبة إذ العقبى والعاقبة سواء، كأنه بين أنه تعالى يفعل ذلك بحق. وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقاً فإنه لا يخاف عاقبة فعله. وقال بعضهم: ذكر ذلك لا على وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل، أي هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة، والله تعالى يجل أن يوصف بذلك، ومنهم من قال: المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب، فإن كل ملك يخشى عاقبة، فإنه يتقي بعض الاتقاء، والله تعالى لما لم يخف شيئاً من العواقب، لا جرم ما اتقى شيئاً" اهـ

أما نحن فنرى أن هذه الآية ذُكرت –والله أعلم– لكي يشير الله عزوجل للإنسان إلى أن الرب الذي سوى وخلق الإنسان وميزه عن باقي الدواب وكرمه، جعل له منهجا وطريقا للصلاح والفلاح في الدنيا، فإن هو خالفه فكما سواه يسوي عليه العذاب، ولا يخشى أن يستأصل العذاب النفس البشرية كلها إذا انحرفت أو ضلت، فالإنسان خُلق من أجل غاية فإن لم يحققها لا يستحق البقاء، وأما الاختبار الرباني فمستمر: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٣٣]. فلسنا عزيزين على الله لكوننا بشر، ولكنا مكرمون لأننا نتبع المنهج والطريق الرباني.

فعندها حذرهم رسول الله صالح عليه السلام من ذبح الناقة أو التعرض لها أو منع السقيا، حتى لا ينزل بهم العذاب، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ۝٦٤﴾ [سورة هود, ٦٤]

فكما كذبوا سابقا بالطاغية كذبوه كذلك هنا حول نزول العذاب عند مس الناقة الضر، فلما كذبوه عقروها، فعذبهم بالصاعقة الطاغية –والصاعقة صوت– بذنبهم، فأتى بها على أشد ما يكون، جزاءا لهم فهو لا يظلمهم ولا يظلم أحدا.

ثم يختم الله تعالى السورة بالتبيان أن أفعاله كلها على وجه الكمال والتمام وكلها محسوبة لا مجال للفوضى أو الصدفة أو الخلل فيها، فإذا خلق خلق فسوى، وإذا أنزل العذاب أنزله مسوى، كما يشير إلى أن النفس، التي سُويت ومن أجلها أوجد الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض، ليست ذات منزلة استثنائية وإنما هي ذات مقام محدود، فإذا تعدته استأصلت، وإذا أطاعت أمر الله عزوجل فازت وربحت. والله أعلى وأعلم.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الليل في فلك رضى الإنسان المتزكي المتبع لسبل الفلاح وخسارة المتدسي.

وكانت سورة الشمس قد تحدثت عن وجود الفجور والتقوى في داخل نفس الإنسان، فتبدأ سورة الليل بالحديث عن اختلاف سعي الناس، وذلك لتزكية البعض نفسه واتباع التقوى ولتدسية آخرين نفوسهم واتباع الفجور:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ④﴾

وإذا كان قد تحدث في سورة الشمس عن الإلهام: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ⑧﴾، فإنه يتحدث هنا عن العنصر المكمل الحاكم، وهو الوحي، فيقول: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ⑬﴾

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ[172] ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ[173] ② وَمَا[174] خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ④﴾

---

(172) الغشيان معروف وهو تغطية شيء بشيء، ومنه اللفظة المشهورة "الغشاء"، ونلاحظ هنا أن الله تعالى استعمل الفعل المذكور مع الليل في صيغة المضارع وهو "يغشى" وهذا يدل على الاستمرار والمداومة. ولم يذكر الله تعالى هنا أي مفعول لغشيان الليل، فلا نخصص الآية مثل آية الشمس "والليل إذا يغشاها" فنقول المراد الشمس، وإنما نتركها هكذا عامة فيكون المراد من ذلك غشيان الليل لكل ما يغشاه من كائنات وأراض وكواكب... إلخ. والملاحظ أن الليل هو الأصل في الكون، فكل الكون غارق في ظلام دامس، ففي الفضاء على الرغم من وجود النجوم والكواكب إلا أنها لا تنير الفضاء، وإنما يراها الإنسان إذا خرج من الغلاف الجوي كمصابيح مضيئة على خلفية سوداء.

(173) نلاحظ أن الفعل المذكور مع النهار مستعمل في صيغة الماضي "تجلى" ولم يستعمل في المضارع، وهكذا استُعمل في سورة الشمس "والنهار إذا *جلاها* والليل إذا *يغشاها*"، فلماذا استعمل الله مع *الليل* صيغة المضارع ومع النهار الماضي؟ بما أن الله خالف بين الاثنين فلا بد من وجود فارق. نقول والله أعلم: إن الله تعالى يقسم هنا –وفي سورة الشمس كذلك– بالفعل الظاهر المستمر لليل وهو التغطية المستمرة والستر، –والذي هو الأصل في الكون كما قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ①﴾ [سورة الأنعام ,١]– ويقسم كذلك بفعل ماض حدث وهو تجلي النهار، فبعدما خلق الله تعالى الليل (الظلمات) كان كل الكون هكذا مظلما، فجلّى الله تعالى النهار، وحدث هذا مرة واحدة فقط لا تجدد فيها، أما الليل فهو دائم الغشيان مستمره!

وإذا فهمنا الآيات من باب الإشارة فيمكننا القول أن المراد من الليل هو ظلمات الكفر والضلال، والنهار هو نور الوحي والهداية. وكما هو معروف فإن أسباب الضلال كثيرة متعاضدة مستمرة، لذلك استعمل الله تعالى معها صيغة المضارعة، أما الهداية فمصدرها واحد وهو الله تعالى، ولقد أتت هذه الهداية حقا مع الرسول الكريم والقرآن، لذلك استعمل الله تعالى معها صيغة الماضي!

(174) اختلف المفسرون في المراد من هذه الآية فقالوا –كما جاء في تفسير مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي–: "المسألة الأولى: في تفسيره وجوه، أحدها: أي والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى *من ماء واحد*، وقيل: هما آدم وحواء، وثانيها: أي وخلقه الذكر والأنثى، وثالثها: ما بمعنى *من* أي ومن خلق الذكر والأنثى، أي والذي خلق الذكر والأنثى." اهـ

فتقدم لنا صورة بديعة مكونة من ثلاثة[175] أقسام، وهي الليل في غشيانه والنهار إذا تجلى وبالنطفة التي خلقت الذكر والأنثى، كدليل على أن سعينا مختلف، فالليل المظلم إشارة إلى أفعال الشر والضلال، وعلى العكس من الليل فهناك النهار المضيء، والليل والنهار كلاهما يشكلان وحدة واحدة في منظومة بناء الكون يتعاقبان فيعم هذا ثم ينسحب ويأتي ذاك، فهما في تسابق وتداخل إلى يوم القيامة. وعلى الرغم من اختلاف الليل والنهار في الطبيعة والحجم فإنهما مكملان لبعضهما منشئان شيئا واحدا وهو اليوم. ثم ينتقل الله تعالى نقلة نوعية كبيرة إلى النطفة الصغيرة الحقيرة والتي

والرأي المشتهر والمتعارف عليه هو أن المراد من "ما" هنا "من"! وهي عائدة على الله سبحانه وتعالى، أي أن الله تعالى أقسم بخلقين من مخلوقاته ثم أقسم بنفسه! ولقد بينا خطأ هذا في سورة الشمس، ونحن نرى أن الذي خلق الذكر والأنثى –بأمر الله وتقديره وإرادته– هو النطفة، فالله تعالى يقول في سورة القيامة ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝﴾ [سورة القيامة ,٣٧-٣٩] ففي سورة القيامة نسب الله تعالى الفعل إلى نفسه، وهنا نسب الفعل إلى النطفة نفسها. ولا حرج في هذا الأمر، فالله تعالى ينسب الفعل أحيانا إلى نفسه لأنه هو الفاعل الحقيقي المؤثر المقدر، وأحيانا ينسبه إلى المباشر، كما ينسب التوفي إلى نفسه وإلى الملائكة! لذا فإني أرى أنه لا حرج أن يكون المراد من "وما خلق الذكر والأنثى" هو النطفة.

وقلنا هنا أن العود على النطفة وليس الملائكة لأن الفعل هناك في سورة الشمس كان فعلا تاليا للخلق، فبناء السماء غير إنشاء المادة المكونة له، كما أن بناء البيت غير إنشاء لبناته، وطحو الأرض هو تشكيل للأرض الموجودة فعلا، وتسوية النفس هي تسوية لموجود، أما هنا فالحديث عن إنشاء محكوم بقوانين مقدرة.

[175] تقوم السورة على التقسيم الثلاثي، فالأقسام المذكورة في أول السورة ثلاثة أقسام وهي:

والليل والنهار والنطفة. وجاءت هذه الأقسام لتبرهن على جواب القسم وهو قوله تعالى "إن سعيكم لشتى.

ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك ثلاث سمات للفائز وهي الإعطاء والتقوى والتصديق "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى" وجزاءه هو التيسير لليسرى.

ثم يذكر الله تعالى ثلاث صفات للخائب وهو البخل والاستغناء والتكذيب: "وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى" وجزاءه هو التيسير للعسرى.

ثم يعكس الله تعالى الوضع فيذكر المتبوع أولا ثم يتبعه بالأوصاف الثلاثة فيقول الله تعالى: "وما يغني عنه ماله إذا تردى" ثم تأتي الثلاثة في قوله "إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى"

ثم ينتقل الحديث على لسان النبي فيقول: "فأنذرتكم نارا تلظى" وتتبع بعرض نموذجين ثلاثيين للمتبع وللعاصي فيقول أن الذي سيصلاها هو الأشقى المكذب والمتولي، وأن الذي سيجنبها هو المتقى المؤتي ماله والمزكي لنفسه "لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى"

ثم تختم السورة بتوضيح غاية المتقي وجزاءه عند الله بآيات ثلاث هي قوله تعالى: "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى".

منها ينشأ الإنسان، فيقول للإنسان أنه قد يأتي من هذا الواحد الصغير تنوع واختلاف، على العكس من الإثنين الكبيرين، الذين منهما نشأ شيء واحد[176]!

وبهذا كله يقسم الله على "إن سعيكم لشتى" أي أن سعي الناس في الحياة مختلف متنوع متفرق، كما اختلفت وتنوعت هذه المقسمات بها.

ثم تبدأ السورة بعد ذلك في التفصيل في سعي الناس، وتبدأ بالمُزكين:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾

فمن زكّى النفس بالإنفاق وبتقوى الله وبالتصديق بالجزاء الأحسن على الإيمان والعمل الصالح، فسيُيسر[177] لليسرى في الدنيا والآخرة.

ثم تُثني السورة بالمدسين، فتقول:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ[178] ۝١١﴾

---

[176] في الآيات إشارات أخرى، منها: أن الليل إشارة إلى عظم وكبر الضلال وخسرانه، فقد يقدم بعض الناس من الأفعال الكثير والعظيم والهائل ولكنها لغير الله عزوجل فهي سوداء مظلمة لا نفع فيها: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾ [سورة الكهف ,١٠٣-١٠٤] فانظر إلى حجم الليل وعلى الرغم من ذلك لأنه ظلام فهو لم ينفع صاحبه، وانظر إلى صغر النطفة وعلى الرغم من ذلك فلقد نشأ منها ما لا يقارن بها، فلا وجه للمقارنة بين حجم النطفة التي لا ترى وبين حجم الإنسان البالغ، وفي هذا إشارة إلى مضاعفة ثواب وحجم الأجر على العمل الصالح الذي يعطيه الله عزوجل للمتقي المنفق، إذا فالله تعالى يبرز في هذه الآيات الثلاثة ثلاثة أنواع اختلاف، فهناك اختلاف الهيئة والظهور كما بين الليل والنهار، فالليل وإن كان الأكبر فإن النهار هو الأنفع والأظهر! وهناك اختلاف حجم كما بين الليل والنطفة، فالليل على كبره لا خير فيه وهو ممحوق، أما النطفة فهي إلى نماء وتكاثر وتضاعف، وهناك اختلاف طبيعة فالليل والنهار يتكاملان ليشكلا واحدا، والنطفة تنقسم ليخرج منها اثنان.

[177] أتى الرسول الكريم بهذه الأعمال على أمثل الوجوه، فبُشر بأنه يُسر فعلا لليسرى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ [سورة الأعلى ,٨].

[178] قيل أن المراد من ذلك إذا تردى أي سقط في النار، والذي نراه أن هذه إشارة إلى الآية السابقة، فإذا كان الإنسان قد يُسر للعسرى فإن المنطقي والمنتظر بعد ذلك أن يسقط، فلن يستطيع الإنسان أن يستمر في طريق المصاعب والمشاق بدون أن يتردى، وهناك لن يغني عنه ماله.

فمن بخل واستغنى عن الله والدين وكذب الجزاء الأحسن فسيُيسر للعسرى، ولن ينفعه ماله عند السقوط والهلاك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ[179] وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾

فإذا كنا قد ألهمناكم الفجور والتقوى فإن علينا الهدى، ولكنا لن نجبركم عليه، ولنا الآخرة والأولى فلن يضرنا معصيتكم ولن تزيدنا طاعتكم، وإنما نفعل فيهما ما نشاء لمن يستحق.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى[180] ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ[181] ۝١٨﴾

فاحذروا أيها المدسون نارا تتوهج وتتوقد، لا يذوقها إلا الأشقى، أما المتقي المتزكي فسيُجنبها.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

---

(179) نلاحظ أن الله تعالى قدم الآخرة على الأولى وذلك إشارة إلى هيمنته سبحانه على القادم مثل الواقع، فإذا كان قد وعد بالتيسير لليسرى وللعسرى فسيقع لا محالة.

(180) العجيب أن السادة المفسرين قالوا أن الآية في أبي بكر الصديق، وفي هذا يقول الإمام الفخر الرازي: "أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضي الله تعالى عنه . واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، ويقولون: إنها نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام (...) المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق، فإذا كان كذلك، وجب أن يكون المراد هو أبو بكر (...) فنقول: لا بد وأن يكون المراد به أبا بكر لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله، إما أبو بكر أو علي، ولا يمكن حمل هذه الآية على علي بن أبي طالب، فتعين حملها على أبي بكر" اهـ

ولقد قف شعري من قول المفسرين ومن تبريرات الإمام الفخر الرازي ومن تمحكات الشيعة، فكيف يقال *الأتقى* ولا ينصرف الذهن إلى الرسول الكريم؟!!! فتعجب أخي القارئ كما يحلو لك! فالعجيب أن كلا الفريقين يتحدث عن أفضل الخلق بعد الرسول الكريم، وأعجب: لماذا أُخرج الرسول الكريم، أليس هو الأتقى؟! حتما هو أتقى خلق الله قاطبة، أضف إلى ذلك أن السورة القادمة تقول أنه هو المراد، وعلى الرغم من ذلك نُحي!

(181) قارن بين هذا المشهد والمشهد الوارد في سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [سورة الأعلى ,٩-١٤]

فهناك تجنب الأشقى الذكرى، فصلى النار الكبرى، وتذكر الخاشي –المتقي– فجُنب النار فهو من المفلحين لأنه يتزكى.

وهو لا يفعل هذا الفعل ابتغاء مجازاة من أنعم إليه وأحسن، وإنما يفعله خالصا لله تعالى وابتغاءا لوجهه، وسوف يرضيه الله عزوجل جزاءا له على فعله.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الضحى في فلك فلاح ورضا الرسول، واستمرار ذلك عليه في ماضيه ومستقبله.

وإذا كانت سورة الليل قد خُتمت بالحديث عن إرضاء الله تعالى لمن يبتغي وجهه (النبي كأول مخاطب)، فإن سورة الضحى تبدأ بتبيين أن الله تعالى لم يترك الرسول الكريم وما قلاه، وأنه سوف يعطيه فيرضيه، ثم تذكره الآيات بأن هذا العطاء والرضى ليس مستجدين، وإنما كانا مسبغين عليه منذ صغره، وتأمره بشكر الله على ذلك.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ[182] ۝١ وَٱلَّيۡلِ[183] إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾

لهذه السورة مناسبة، فهي من سور المخاطبات[184]، وكان الرسول الكريم قد اشتكى فتور الوحي عنه لفترة من الزمن، الله أعلم بها طالت أو قصرت، وعاب عليه المشركون

---

[182] الضحى معروف فهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها، والعجيب أن المفسرين اختلفوا في المراد من الضحى، هل هو الضحى فقط أم أنه إشارة إلى النهار كله لأن الله تعالى قابله بالليل؟ ولست أدري لم الحاجة إلى الإشارة إذا كان الظاهر يؤدي نفس الغرض؟! والمتيقن أن المراد من الضحى هو الضحى فقط لأن الله تعالى قال "الضحى" ولم يقل "النهار" كما قال في سورة الشمس، ثم إن الله تعالى لم يقابل الضحى بالليل كله وإنما قابله بالليل في حالة مخصوصة وهي إذا سجى أي غطى وأظلم واشتد ظلامه، فهذه حالة في النهار يقابلها حالة في الليل.

[183] بدأت السورة بقسَمين اثنين في آيتين على ثلاث مقسمات، وردت في تسع آيات متتاليات مقسمات إلى ثلاثة أقسام، كل قِسم ثلاث آيات، كل آية منها مقابلة لأختها في القِسم الآخر، فالآية الأولى في القِسم الأول تقابل الأولى في القِسم الثاني والثالث والآية الثانية في الأول تقابل الثانية في الثاني والثالث وهكذا.

[184] هذه السورة دليل على صدق رسالة محمد، فلو كان محمد هو المؤلف للقرآن وكان عندما يخطأ يحاول أن يصلح خطأه، بأن يأتي بآيات يتراجع فيها عما فعل، كما زعم الملاحدة، ويقول: نعم أخطأت ولكن صوّب لي الوحي ما فعلت، فأنا أرجع عنه.

ذلك وسخروا منه، فاشتد ذلك عليه، فنزلت هذه الآيات تواسيه وتعرفه أنه لا ينبغي عليه أن يحزن ويتأثر بأقوال هؤلاء القوم، وأن عليه أن يعلم أن الأمور كلها بيد الله، يجريها متى يشاء من الأوقات والأزمان، فليس الوحي ينزل متى يريد الرسول ولكن الوحي ينزل في الزمن الذي يريد الله عزوجل!

فكأن الآيات تقول: إذا كنت حزنت أن الوحي انقطع لفترة من الزمن فوالضحى والليل (واللذان هما من عناصر الزمن وعلاماته[185])

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ[186] ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ[187] خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

فإذا كان من الممكن أن يخدع الإنسان الآخرين فليس من الممكن أن يخدع الإنسان نفسه، ويؤلف سورة لنفسه! فالسورة رسالة تثبيت للرسول وللمسلمين، كما أنها كلها تذكير بنعم الله على الرسول وكيف أنه تولاه وأعده من أجل أن يقوم بأداء رسالته التي سيتحملها، فليس اختيار الرحمن عبثا أو بُداء!

[185] هناك إشارات بديعة في تخصيص هذين الوقتين بالذكر، فالضحى كما هو معروف صدر النهار، أي أول بداية ظهر الضوء الواضح المشرق الذي يجلي الأشياء بدون أي لبس أو خداع، كما أنه هو الضوء الجميل الذي لا حر فيه ولا معاناة كما في ضوء الظهر الذي يجلي ولكنه يؤذي ويتعب! وسجي الليل هو تغطيه الأشياء أعلى درجات التغطية بالإظلام الشديد، وبين الإثنين طباق، فالضحى يجلي والليل يسجي، فكأن المراد أن الله تعالى يوضح للنبي أنه رب الزمان كله من أقصاه إشراقا إلى أقصاه ظلاما، كما أنه رب ما بينهما بداهة! والإنسان بطبيعة الحال يتقلب بين الاثنين، كما أن في الآيتين إشارة لطيفة *وهي أن الضحى إشارة إلى الإسلام وإلى الرسول نفسه والليل إشارة إلى الكفر والشرك، فالإسلام والرسول نور من عند الله ظهر وأشرق فأنار:* "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين"، والإسلام لا يزال في بدايته ولكنه سيصير نهارا عاما، والضحى هو بداية النهار، فهو إشارة إلى أن الإسلام سيظهر وسيعم على الرغم من عناد الكافرين، فبعد الضحى حتما يأتي النهار! ويقابلهما الكفر والشرك، وهو ظلام اشتد ويحاول أن يغطي هذا النور ولكن الله تعالى ناصر دينه: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" وبعده حتما الفجر، فكأن الله تعالى يقول للنبي لا تحزن على ما معك فلن يضيعك ولن يضيعه الله فعلى الرغم من عناد الكافرين فأنت ظاهر عليهم ظاهر، منصور بإذن الله منصور.

[186] القلو كما جاء في المقاييس: "القاف واللام والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خِفّةٍ وسرعة (...) وكلُّ نابٍ عن شيء متجافٍ عنه: مُقْلَوْلٍ (...) ومن الباب القِلَى، وهو البُغض(...) والقِلَى تجافٍ عن الشّيء وذَهابٌ عنه". اهـ

ولقد قال المفسرون أن القلو هو البغض ولو كان كذلك فقط لقال الله "وما أبغض"، فالقلو هو البغض المقرون بالتباعد والتجاف عن الشيء، فكأن الله تعالى يقول: لم يسرع ربك في الإعراض عنك يا محمد ولم يتجاف عنك مبغضا!

ونلاحظ أن السادة المفسرين قالوا أن المراد "وما قلاك"! وحُذفت الكاف اكتفاءا بالكاف الموجودة في "ودعك" لكي تتناسب رؤوس الآيات! وليس هذا هو المراد بداهة! ونحن لا نقول بحذف حرف من أجل تناسب رؤوس الآيات أو ما شابه، ونرى أن المعنى عام في هذا الكلمة، يدخل فيه كل ما يتناسب معه ويمكن إدخاله! ولئن ذكرنا بعضها فليس هذا مانعا من وجود غيرها، قابل للدخول بشرط التوافق مع الآيات وعدم التنافر، فنقول المراد والله أعلم أن الله عزوجل يقول للنبي أنني ما تركتك يا محمد

فما تركك ربك وما تجافى عنك وعن نصرتك وعن إنزال الوحي، وبعد أن انشرح صدر النبي بهذه الطمأنة بعدم الودع أو القلو زاده الله انشراحا وسرورا بأن وعده بأن كل ما سيستقبله النبي الكريم من الأحداث والأزمان إلى موته هو خير له مما مر به[188]، والتاريخ يؤكد هذا، فما زال النبي الكريم يتقلب من نصر إلى نصر ومن تقدم إلى تقدم حتى أدركه الموت.

ومع تقلب الحال من حسن إلى أحسن فإن هذا مقرون بالعطاء من كل شيء، فالله سيفتح له وجوه الخير كلها، فسيعطيه من القرآن حتى يرضى (فحزن الرسول أساسا كان بسبب انقطاع الوحي) ويعطيه من المال حتى يرضى، ويعطيه من الأتباع حتى يرضى، ويعطيه من النصر والتمكين وانتشار الدين والنصر على الأعداء حتى يرضى، ويعطيه من الثواب والحسنات حتى يرضى[189]، ويعطيه من الخلق الحسن ومن الثناء الجميل ومن السيرة العطرة في الدنيا ما لا ينقطع، ويعطيه من الفضل العظيم، ثم يعطيه في الجنة العطاء الأوفر والأجزل.

ولا تخليت عنك "ما ودعك" وكذلك فأنا لم أبغض أو أتجافى عامة سواء عنك أو عن الدين والوحي أوالمسلمين من الصحابة أوعن مؤازرتك فكل هذه المعاني وغيرها قابلة للدخول تحت الكلمة ولا حاجة لنا بالتخصيص وحصرها في النبي الكريم.

(187) هناك ما يقارب الإجماع بين المفسرين على أن المراد من الآخرة هي الدار الآخرة والأولى هي الدنيا! وهذا من عجيب القول، فهل يحتاج النبي الكريم إلى هذه البشرى في هذا الوقت أو في أي وقت؟! كما أن هذا القول لا يتطابق مع الآية، فهي تقول "*وللآخرة* خير لك من *الأولى*" ولم تقل: خير لك من الدنيا! والآخرة هي عكس الأولى، *ولا تصرف إلى الدار الآخرة أو إلى يوم القيامة إلا بمقابلتها بالدنيا، أو بأي إشارة في الآية إلى أن الحديث هو عن البعث أو ما شابه!* وليس في الآية هنا أي دليل على ذلك وإنما قرنت الآية الآخرة بالأولى، فيكون الحديث هنا عن عكس الأولى! وإذا نحن تتبعنا موارد: "الآخرة والأولى" في الكتاب الكريم وجدنا أنها ترد بهذا المعنى دوما، وهي كالتالي: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ [سورة القصص ,٧٠]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾ [سورة النجم ,٢٥]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [سورة النازعات ,٢٥]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [سورة الليل ,١]

(188) وتدخل الساعة بداهة في هذا الموعود ولكنها تدخل كجزء أخير وليست ككل الموعود به.

(189) كل حسنات الأمة تصب في دفتر أعمال النبي الكريم، فهي تكتب لنا وله فهو سبب هدايتنا: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها"، والنبي الكريم هو الذي جاء لنا بالإسلام كله! فله مثل أجورنا ولا ينقص منها لنا شيء.

ثم يوضح الله عزوجل للنبي الكريم أن وعده هذا ليس وعدا مستقبليا لما يتحقق بعد، وإنما هو وعد متحقق تحقق بعضه وسيتحقق الأعم والأكثر منه تباعا، فيوضح للنبي الكريم حتى لا يغفل عن هذه النقطة فيقول له:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ[190] ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ[191] ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا[192] فَأَغْنَىٰ ٨﴾

ألم تكن يتيما فآواك إلى كنف جدك ثم عمك، ولم تكن تعرف الطريق القويم فهداك الله إليه، فما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فهداك الله وهدى بك.

وكنت فقيرا تعول غيرك، فأغناك الله الكريم، فأغناه أولا بزواجه من خديجة، ثم بما ينفقه المسلمون ثم بعد ذلك بالخمس من الغنائم ينفقها الرسول حيث شاء وأراد!

وبعد أن ذكّر الله العليُ القدير النبيَ بثلاث من نعمه عليه، إشارة إلى تحقق جزئي لوعوده الثلاث السابقات يأمره بشكر مقابل لهذه النعم

فلما قال له الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ وضح له أن هذا حادث طيلة حياته، وذكر له المقابل وهو: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾، وهذا دليل على امتداد

---

(190) لم يقل الله تعالى "فآواك" وإنما قال "آوى" فقط-، ونطرح السؤال: هل يقول الله تعالى للنبي الكريم: أنه وجده يتيما فآواه هو إلى غيره، إشارة إلى حياة النبي الكريم حيث آواه إلى أمه ثم جده ثم عمه ثم إلى باقي المسلمين، أم أنه وجده يتيما منفردا فآوى إليه الناس، فأصبح هو الملجأ والملاذ والركن الشديد الذي يلجأ إليه الناس؟ لا يوجد في الآية ما يحتم معنى من المعنيين، وإن كان المعنى الأول أكثر شهرة والذي يرجحه السياق من أن الله يذكر للنبي الكريم مراحل حياته ابتداءا ونعم الله عليه في كل مرحلة منها، إلا أنه لا يوجد ما يمنع من حمل الكلمة على المعنيين فالله آوى نبيه في صغره وجعله هو المأوى في كبره!

(191) العجيب أن بعض *المسلمين*! ذهبوا إلى أن النبي الكريم كان كافرا قبل البعثة! واستدلوا بهذه الآية، وهذا من عجيب القول، *فمن الممكن القول أن النبي الكريم كان مشركا قبل البعثة ولكن لا يقال كان كافرا، ونحن ننزه النبي الكريم كما نزهنا أباه إبراهيم عن الشرك في مقال سابق على موقعنا الشخصي*، فلا نقول أنه كان مشركا وإنما نقول كما قال القرآن أنه كان ضالا، فهداه الله! والعجيب أن الآية حددت معنى الضلال فجعلوه هم بمعنى الشرك أو الكفر! والضلال معروف وهو -كما يفهمه أي إنسان- بمعنى عدم الاهتداء والتحير والخطأ غير المتعمد، فالإنسان الضال هو غير المهتدي، وهناك فارق بين الذي لم يجد الطريق فضل فهذا لا حرج عليه وبين من أرشدته إلى الطريق فتعمد الضلال، ونبينا وباقي الأنبياء منزهون عن ذلك.

(192) الأصل في العائل هو من يعول، سواء كان عنده عيال أو ليس عنده فهو يعول من يرعاه! والعول هو الميل والنقصان، فأغنى الله النبي عن أن يميل إلى غيره.

الرعاية طيلة عمر النبي الكريم وأنها لم تنقطع عنه! ولما قال له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾، وضح له أن هذا متحقق دوما فقال له: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ فتحقق الهداية خير من أي نعمة وأي حدث في حياة النبي وبها انتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة مخالفة مغايرة فيها كل الخير! ولما قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾، وضح له أن هذا متحقق طيلة عمره فقال له: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: كنت محتاجا فأغناك عمن سواه! وسيغنيك أكثر بعد ذلك بعطائه الذي لم ولن ينقطع!

ثم ذكر له المقابل والشكر على هذه النعمة فقال :

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ[193] فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

فمن تمام خلقك وعظمته أيها النبي الكريم أن تعامل الناس كما عاملك ربك! فلا تقهر اليتيم، وتذكر احتياج هذا اليتيم إلى اليد الحانية وإلى المعاملة الخاصة لفقدانه أباه، فلقد كنت يتيما فآويناك فلا تقهر اليتيم وامسح على رأسه وآوه.

وقد كنت ضالا تبحث عن الطريق، فهداك الله فقابل الهداية بالشكر الفعلي، فإذا جاءك سائل عن الدين باحث عن الهداية فلا تنهره وتسيء إليه. وقد كنت عائلا ففتح الله ولا يزال يفتح لك من النعم والعطاء والخير بكل أنواعه ما لا تحصيه أنت، من القرآن والصحة والنصرة والمال والأتباع ... إلخ أشكال العطاء فحدّث بهذه النعم؛ وأولها وأكبرها القرآن، فحدث بها ولا تكتمها ففضل الله عليك سابغ من أولك إلى آخرك! فلا حرج من التحديث بنعمة الله تعالى عليك فليس هذا من العجب أو الكبر.

---

[193] ليس المراد من السائل هنا هو الإنسان الذي يسأل المال، وإنما المراد منه من يسأل العلم والدين من الرسول بدليل المقابلة بالضلال والهداية.

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الشرح في فلك استكمال ذكر نعم الله عزوجل على الرسول، والأمر بما يقابلها.

وإذا كانت سورة الضحى انتهت بالأمر بالتحديث بنعمة الله، فإن هذه السورة تبدأ بالسؤال عن نعم لله عزوجل على الرسول الكريم. بل إن الناظر في السورة يجد أن ذلك التقسيم الثلاثي السابق في سورة الضحى لا يزال موجودا وهو قوله تعالى ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ فسبحان الله العليم الخبير.

فالسورة كلها وحدة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين وهي خطاب وتذكير.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ[194] ۝١﴾

فتُذكر النبي الكريم بنعمة الله عليه، فلقد شرح المولى له صدره الذي كان يضيق بكلام الكافرين: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ...۝١٢﴾ [سورة هود, ١٢]، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [سورة الحجر, ٩٧]. وإذا كان موسى قد سألها، فقال: ﴿...

(194) المشتهر أن المراد من هذه الآية هو عملية شق الصدر التي أجريت للنبي الكريم في طفولته قبل بعثته، وبغض النظر عن وقوع عملية الشق من عدمه فليس للآية أي علاقة بها، فالرواية تتحدث عن شق والآية تتحدث عن شرح، وشتان ما بينهما، واستعمالات الشرح في القرآن لم ترد إلا بمعنى الاتساع والتقبل والميل للشيء: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ... ۝١٢٥﴾ [سورة الأنعام, ١٢٥]، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ... ۝١٠٦﴾ [سورة النحل, ١٠٦]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ... ۝٢٢﴾ [سورة الزمر, ٢٢]

رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾] سورة طه ,٢٥]، فلقد أعطيتها أنت يا محمد كرما ومنة منا.

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ[195] ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾﴾

وغير ذلك فلقد حططنا عنك أعباء النبوة من الدعوة والقيام بأمور الدين والمحافظة عليه، والتي كان ينوء بها ظهرك. وإذا كنا قد حططنا الأثقال، فذكرك أيها الحبيب مرفوع ذو مكانة لا تدانيها مكانة، فسيُكتب لك الذكر الحسن في سائر الأمكنة والأزمان، وسيعلو ويظهر فوق الناس كلهم.

ثم تؤكد له السورة المعنى المذكور في سورة الأعلى والليل وهو وقوع اليسر له، وتأمره بما يجب عليه القيام به في مقابل ذلك:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾﴾

فإذا قابلك العسر فاعلم أن هناك يسرا معه، وتأكد من هذه المسألة، فهناك يسر مصاحب للعسر، وبهذا اليسر المرسل مع العسر تستطيع أن تتحمل كل مشاق وصعاب الرسالة، فلا يصعب عليك أمرها، وبهذا اليسر المتكفل منا وُضع عنك الوزر.

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ[196] ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾﴾

وإذا كان هناك في أي مصاعب جانب يسر، وأنت تعرف أن الله تعالى يقضي به الصعاب، فلا تحمل هم أي شيء، وإذا فرغت من قضاء أمورك فأقم نفسك للعبادة واتعب نفسك واستمر فيها، وتضرع ومل إلى ربك، شكرا له على ما يسر لك وأعطاك.

[195] الأصل في الوزر الثقل، ومن صوره: حِمْل الرَّجل إذا بَسَطَ ثوبَه فجعل فيه المتاعَ وحَمَله، ولذلك سمِّي الذَّنْب وِزْراً. فليس الذنب أصلا وزر، لذا لا يجوز جعل الآية في الحديث عن حط ذنوب النبي الكريم، وإنما هي عن أثقال.

[196] كما قابل الله عزوجل بين الوضع والرفع في الآية الثانية والرابعة، فإن هناك إشارة إلى المقابلة بين "انقض"، و"انصب"، وأصل النصب إقامة شيء في استواء، فكأن الله تعالى يقول للنبي الكريم: أقم ظهرك –الذي لم يعد منقوضا– في العبادة.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة التين في فلك عناية الله عزوجل بالإنسان، وإسباغه نعمه عليه، كدليل على صحة الدين.

وإذا كانت سورة الشرح تحدثت عن نعم الله تعالى على الرسول الكريم، فإن التين تتحدث عن نعم الله تعالى على خلقه كلهم، وكيف أنه أمدهم بالغذاء المادي والروحي، الذي يحتاجونه، وصورهم في أحسن صورة لهدف وغاية، وعلى الرغم من هذا كله، فقد انتكس الإنسان المتدسي وأضاع نفسه.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ[197] سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ[198] ۝٣﴾[199]

---

[197] كثير من المصريين —خاصة— يظنون أن كلمة "طور" اسم علم، لذلك نجدهم يقولون: *جبل الطور* بسيناء، وهذا من الأخطاء المتداولة والصحيح أن الطور هو الجبل المكسو بالأشجار، والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له طور، إنما يقال له "جبل" إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله، والذي تميل إليه النفس أن طور سينين أو سيناء ليس في مصر، وإنما هو جبل الزيتون الموجود في القدس حيث أنه طور فعلا! أما مسألة أن الجبل أضيف إلى سيناء وسيناء في مصر، فنقول: ليست الحدود الجغرافية الحديثة مما أتى به القرآن، فلا يوجد ما يمنع على الإطلاق أن يكون تم زحزحة للاسم المُسمِي للمنطقة إلى منطقة مجاورة!

[198] أمين على وزن "فعيل" وهي صيغة تفيد المفعولية والفاعلية! فإذا كان مدلولها مما يختص به الموصوف فقط ولا يتعدى إلى غيره كانت بمعنى المفعولية مثل: "جريح وقتيل"، أما إذا كان المدلول لا يختص بالموصوف فقط وإنما يتعدى إلى غيره فتفيد المبالغة والفاعلية؛ مثل رحيم وبديع فهي بمعنى راحم ومبدع! فإذا نحن نظرنا في هذه الآية وجدنا أن الله تعالى استعمل صيغة فعيل ليشير إلى عموم الأمن فيها وشموليته، وليس من أجل الفاصلة أو ما شابه.

[199] ليس هذا الترتيب اعتباطيا، وإنما لحكمة، فالله وإن كان لا يقسم إلا بما هو نفيس، غير أن النفائس لا تتساوى فهناك منها ما هو أنفس من غيره، وهنا بدأ الله السورة بالقسم بما هو أقل نفاسة تصاعديا إلى ما هو أنفس وأعز، فبدأ بالتين ثم الزيتون، ومن المعلوم أن ثمرة الزيتون أكثر نفاسة من التين ففيها من الفوائد ما لا تقاربها شجرة التين، ثم يكفيك أن التين ذكر مرة واحدة في القرآن، أمّا الزيتون فذُكر ست مرات، إحداهن إشارة إلى النور الإلهي! وفي تلك الآية وصفه الله بأنه شجرة مباركة! وإذا نحن قصدنا الفهم الإشاري وجدنا أن المراد بالتين أنبياء بني إسرائيل، فهم حتما أقل مكانة من عيسى عليه السلام، ثم يأتي بعد ذلك طور سينين وفيه إشارة إلى موسى عليه السلام، ثم يأتي ما هو أكثر نفاسة وهو البلد الأمين مكة بلد بيت الله الحرام وفيها الإشارة إلى الرسول الكريم، فهي أعلى نفاسة من كل المذكورات!

فيقسم الله تعالى بالتين مشيرا[200] به إلى أرض الشام مبعث كثير من أنبياء بني إسرائيل، وبالزيتون مشيرا به إلى فلسطين، وبطور سنين مشيرا به إلى موسى عليه السلام، وبالبلد الأمين مكة، مشيرا به إلى النبي الكريم، على أمر عظيم وهو:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ[201] ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٖ ۝٦﴾

فالله تعالى يقسم أنه هو الذي خلق الإنسان[202] في أحسن تقويم، مقدما ردا صريحا على من لا يظن الحكمة والعلم في الله عزوجل، فيقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ ۝٤﴾، ألا تثبت هذه الصورة لله تعالى الحكمة في خلقه؟!

ونلاحظ أن المقسم به ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ...﴾ يحتوى الدليل المباشر على صحة المقسم عليه، فالله قدم الدليل في القسم، فيرد مقدما على القائلين بالصدفة، بقوله أنه هو الخالق الراعي والذي أعد وجهز كل ما يحتاجه الإنسان من احتياجات روحية وبدنية، وها هي قائمة صُراح أمام الإنسان.

(200) الأولى الأخذ على الظاهر ونحن أخذنا به، *ولكن السورة تحتم علينا أن نجعل القسم بالتين والزيتون من باب الإشارة*، وتتبع معي السورة فستعلم أن المسلك الذي سلكه المفسرون هو المسلك السليم الواجب في تعاملهم مع القسَم الأول، فإذا نحن نظرنا في المقسمين بهما بعد هذا القسم وجدنا قوله تعالى: "وطور سينين وهذا البلد الأمين" وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه، والبلد الأمين هي مكة، فما هو الرابط بين هذه الأشياء؟ لا يوجد وجه صريح للترابط إلا القول بأن التين والزيتون أيضا إشارة إلى أنبياء كما أشار طور سينين إلى موسى والبلد الأمين إلى الكعبة والرسول الخاتم! فيكون القول بأن التين والزيتون إشارة إلى الأنبياء مثل الآيتين التاليتين ليس من باب التكلف بل هو المفترض. وليست المسألة محاولة توفيق أو تلفيق، وإنما النص الحاتم بذلك، أما الدليل القاطع على وجود الإشارة في قوله تعالى: "والتين والزيتون" فهو قوله تعالى: "فما يكذبك بعد بالدين"، فالله تعالى بعد أن تكلم عن حال الإنسان، خاطبه قائلا: فما يكذبك بعد بالدين؟ فيفترض أن يكون ما سبق من المقسم به من الدين، حتى يُفرّع الله عليه بالفاء في "فما".

(201) في الآية رد ضمني على كثير من التيارات الفكرية الإلحادية والتي تقول أن الإنسان خُلق هكذا صدفة! عن طريق التطور، فيرد الله عليهم أنه هو الذي خلق وليس الأمر مجرد صدفة! أنشأه الله تعالى إنشاءا وجعله في أحسن صورة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار ,٧]. فأنت أيها الإنسان معتدل القامة، وفي هذا من الفوائد ما لا يُحصى، كما أن فيها تميز له عن باقي الدواب، والتي لا استقامة فيها. وكذلك رد بهذه المقسمات بها المذكورة على من يقول أن الله تعالى أكبر من أن يهتم بالعالم فلقد خلقه وتركه أو أن الله لا يعلم بالجزئيات، فقدم الأدلة في المقسمات بها على نفي كل هذه الأقوال.

(202) بواسطة الملائكة الذين تولوا مباشرة هذه العملية!

ثم رد الإنسان إلى أسفل سافلين[203] في الدنيا والآخرة جزاءا له على إعراضه عن الوحي والإيمان والاتباع، إلا المؤمنين العاملين، فلهم أجر غير مقطوع، بدأ في الدنيا ويستمر في الآخرة، فهم في أعلى عليين، ولهم في الدنيا الحياة الحسنة والبقاء على التقويم الأحسن[204].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ[205] بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۞ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ[206] ۞﴾

فيخاطب الله تعالى الإنسان[207] بعد أن أقسم سبحانه على ما شاء وقدم لذلك من الأدلة والتي هي أقسام ما شاء، قائلا: ما الذي يجعلك تكذب بالدين بعد ما ذكرنا

---

[203] اختلف المفسرون في المراد من هذه الآية، فقالوا أنه الرد إلى أرذل العمر! أو المقصود هم الضعفاء أو المرضى الزمنى! وهم بقولهم هذا يسيئون إلى الإنسان وإلى ربه عزوجل، فالإنسان في هذه الحالة ليس أسفل سافلين، ثم إنه لا يستحق الذم والتوصيف بهذا الوصف فليس هذا بيده، وإنما هو مما كتبه الله على البشر، فهل يعيبون الخلق أم الخالق؟! ثم هم لا يربطون الآية بالآية التالية لها.

أما نحن فنفهم هذه الآية من خلال سابقتها ولاحقتها، فلقد قلنا أن المراد من الخلق في أحسن تقويم هو الخلق الحسن المنتصب القامة مع توفير الاحتياجات وأهمها الروحية "الدين" ثم يأتي بعد ذلك الرد إلى أسفل سافلين، ولكن هل هذا الرد عام؟ لا، ليس هذا الرد لكل الناس بل المؤمنون العاملون للصالحات مستثنون من هذا الرد، فيفهم بداهة أن المراد من هذا الرد هو جزاء وعقاب للناس على عدم انتفاعهم بتقويم الرحمن لهم، فلقد خلقهم ونصب قامتهم وأرسل لهم الرسل ولكنهم لم يستجيبوا، فبإعراضهم عن رسلهم –المذكورين إشارة في أول السورة– استحقوا أن يكونوا أسفل سافلين! أي أن الإنسان المعرض عن الوحي في الدنيا هو أقل من الحيوان، فهو أسفل سافلين في الدنيا ومصيره في الآخرة أن يُردّ إلى نار جهنم فهو أسفل سافلين كذلك!

[204] الناظر في الفكر الإسلامي يجد أنه يجعل الدين تكليفا يقابله أجر في الآخرة، أما نحن فنرى أن الدين تكليف وأجر في آن واحد، لذا فإنا نرى أن الله عزوجل يدخلنا الجنة بكرمه وفضله، فلو اكتفى بأن يُدخل العاصين النار وأن لا يعاقب المطيعين لكان الدين أجرا كافيا، وهو من تمام فضله ونعمه عليهم، فكفى بالدين منهاجا وتنظيما وسعادة للحياة الدنيوية! لذا فإنا نقول أن الأجر غير الممنون بادئ في الدنيا متمثل في حياة سعيدة قويمة هانئة منتظمة يحكمها الدين، ولا ينقطع هذا الأجر فإذا مات الإنسان انتقل إلى جنات رب العالمين في أعلى عليين على عكس من هم في أسفل سافلين. وفي هذه الآية والآية السابقة لها رد على من يقولون أن الله تعالى رحيم لا يعذب خلقه! أو أنه أكبر من أن يعذب خلقه!

[205] اختلف المفسرون في المخاطب في هذه الآية، هل هو الإنسان، أم الرسول؟ فيكون المعنى على الاحتمال الأول: فما الذي يجعلك تكذب أيها الإنسان بالدين؟ وعلى الثاني: فلا يكذبك بعد أيها الرسول أحد بالدين! والذي يرجحه السياق هو القول الأول.

[206] قلنا ونقول دوما: إن القرآن في كل خطابه لم يخاطب أبدا صراحة الملاحدة الذين لا يقرون بوجود إله، نعم هو يخاطبهم ضمنا ولكن ليس مباشرة، لأن الفكر الإلحادي فكر ساقط غير منطقي لا يستحق المناقشة، لذلك اكتفى القرآن دوما بعرض دلائل الوحدانية والتذكير بكمالات الله عزوجل، أما أن يحاول إثبات الله تعالى ابتداءا فهذا ما لم يفعله القرآن، ولا ينبغي لأحد فهذا الأمر (وجود الإله) من البديهيات العقلية، التي لا ينتطح فيها عنزان، وعلى الرغم من ذلك يفعلها الملاحدة العباقرة!!!

لك؟ فلقد قلنا لك أننا خلقناك وأنك مخلوق في أحسن صورة وأنك بهذا الخلق معد لامتحان واختبار سنحاسبك عليه. ألست تقر أيها الإنسان أن الله تعالى أحكم الحاكمين؟ فلم تتعجب إذا أرسل لك الرسل ودعاك إلى عبادته؟ أفي هذا الفعل عجب؟ فإذا كانت إجابتك ببلى وهي حتما كذلك، فلا تكذب بالدين وانظر ما فيه وستؤمن إن لم يكن في قلبك عجب.

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة العلق في فلك القراءة كباب لفتح نعم الله على الإنسان والاقتراب منه.

وكانت سورة التين قد انتهت بالسؤال عن حكمة الله تعالى، وتبدأ سورتنا بالأمر بالقراءة، ففي كتاب الله ستجد الحكمة والإيمان، وكلما تقرأ أكثر سيفتح لك ربك الأكرم أكثر.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞﴾

فتأمر[208] النبي الكريم –وكل المسلمين تباعا– بقراءة القرآن أولا –وأي كتاب تباعا. وكما أمر بالتسبيح والعبادة وأتبعهما بالتذكير بأن الرب هو الخالق، لم تتخلف القاعدة في آيتنا هذه، فأمرت الآية النبي الكريم بالقراءة مبتدأ باسم الله، الذي خلق السماوات

---

(207) من الممكن القول أن المخاطب إشارة وتعريضا في هذه الآية هو المؤمن من أهل الكتاب، الذي لم يؤمن بالرسول فعرض الله تعالى له في أول السورة ارتباط الأنبياء ببعض، وذكّره بالنبوات والنبؤات الواردة في حق الرسول ثم قال له: ما يكذبك بالإسلام في شكله الأخير على يد محمد ؟

(208) الأمر أمر وجوب، ولقد فصلنا على موقعنا الشخصي وقلنا أن القراءة واجبة على كل إنسان مسلم، استنادا إلى هذه الآية، فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى الموضوع.

والأرض وما بينهما. وتذكر لنبي الكريم أن الإنسان المخلوق في أحسن تقويم مخلوق من علق[209]، فهو منذ بدأ خلقه إلى موته معتمد على التعلق بغيره، فلا يستطيع أن يعتمد على نفسه ويستقل بها قط، فتعلق أيها الإنسان بربك عن طريق قراءة كتابه.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

فاقرأ وربك الأكرم، فلك من الثواب على القراءة ما يزيد عن ما تتصور، وسيُفتح عليك من العلوم كلما تقرأ أكثر ما لم يخطر لك ببال، فالعلم بالدرجة الأولى فتوح وعطاءات من الله عزوجل، فهو الذي جعل القلم وسيلة للتعلم، به يحفظ الإنسان ما علم ويبلغه غيره[210]، فالقلم أفضل وسيلة للحفظ والتعلم، فاقرأ وسيأتيك العلم، فالله هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، فالله يعلم الإنسان منذ بدء خلقه، فهو الذي علمه البيان، علّمه كيف ينشأ الكلمات عن طريق معرفة العلاقة بين الشيء والكلمة، علّمه الكلام وكفى به وسيلة للتعلم، فبدون البيان والقلم ما كان لينشأ للإنسان حضارة. فإذا كان الله هو الذي علمك هذا كله، فلم لا تقرأ القرآن وتأخذ علمه؟!

ثم تقدم السورة الإجابة على السؤال المطروح في السورة الماضية: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾، وهي:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ[211] ۝٨﴾

---

[209] ركز السادة المفسرون قاطبة عند تناولهم لهذه الكلمة على الجانب المادي منها، وهي العلقة التي تكون في الرحم، ونسوا أن هذه الآية هي مثل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧﴾ [سورة الأنبياء, ٣٧] والتي قالوا فيها أن المراد منها العجلة، وليس مادة الخلق! ونحن نقول أنها الاثنان، وبهذا نقول أيضا هنا، فالإنسان مخلوق من علق، وهو طيلة عمره قائم بالعلق –العلاقات–، واختيار هذا الكلمة تحديدا ليس من أجل مناسبة رؤوس الآيات، وإنما لإشارة جلية.

[210] في الآية إشارة إلى تدوين العلم الذي يحصل للإنسان بفضل وفتح الرب الأكرم، حتى لا يضيع، فإذا فتح الله عليك من أبواب علمه وكرمه، فكن أنت أيضا كريما وبلغ غيرك ولا تبخل بعلمك، وأفضل حافظ له هو القلم.

[211] عامة المفسرين على أن الرُجعى مصدر مثل أي مصدر! فهو بنفس معنى مرجع ورجوع! وقالوا أن المراد منها رجوع أو مرجع الإنسان! –والرجوع غير المرجع، ووضعهما كلاهما كمقابل للرجعى يضع علامة استفهام كبيرة حول دقة المفسرين في *التفسير*!– وبداهة فإن قولهم هذا غير صحيح، ف "فُعلى" ليست بمعنى "مفعل" ولا "فعول"، ف رجعى على وزن فُعلى، وهو يأتي صفة لمؤنث مثل: حسنى، يسرى، عسرى، كبرى، صغرى، عظمى، عليا، أولى، أخرى، دنيا، قصوى. ولقد اجتهدنا في تحديد المراد

فالإنسان يطغى عندما يظن أنه كفرد أو جنس استغنى –بعلمه بالدرجة الأولى– عن خالقه، الذي خلق السماوات والأرض والذي علمّه، فيظن أنه أوتيه على علم عنده! علم لدني من لدن نفسه! فلم يعد لا هو ولا الكون –من وجهة نظره– في حاجة إلى الخالق، ويستطيع أن يسير نفسه بنفسه. والعجيب أنه لا ينسى أنه لا يستطيع الاستغناء عن المخلوق! ويدعي الاستغناء عن الخالق.

فيرد الله عليه بأنه متحكم فيه، فلا يستطيع الإنسان التفلت أبدا، فإلى الله عزوجل الردة والانتكاسة الكبرى، التي ينزلها بكل إنسان في الدنيا متى شاء، فيرجع إلى منزلة أدنى من الحيوان، فلا ينفعه علمه، وفي الآخرة بصلوه النار، جزاء إعراضه عن الدين وظن الاستغناء عن الخالق.

وبعد أن تكلمت السورة عن المُعرض عن الكتاب وعن الدين، تتكلم عن ذلك المعاند المحارب للدين وللمؤمنين، فتقول:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ[212] ۝١٠﴾

أرأيت ذلك الذي ينهى أي مؤمن من المؤمنين عن قراءة القرآن إذا دخل في الصلاة، فلا يريد أن يسمع القرآن، كما ينهى عن السجود لله عزوجل، فما أعجب حاله وفعله فإنه طاغ مستغن.

بالرجعى، واعتمدنا في تحديد المدلول على السياق وعلى السورة السابقة، التي قال المولى فيها: "ثم رددناه أسفل سافلين"، فكما تحدث هناك عن الخلق في أحسن تقويم ثم الرد أسفل سافلين، فكذلك تحدث هنا عن الخلق من علق، ثم الرجعى. ونكرر هذا اجتهاد لا نقطع به، وندعو الأخوة إلى النظر في الكلمة.

[212] للسادة المفسرين في *تفسير*! هاتين الآيتين أقوالا عجبا، فبينهم ما يشبه الإجماع على أن الآية نزلت في أبي جهل، الذي كان يتوعد النبي! وهكذا جعلوا "عبدا" النكرة هو النبي الكريم! وأعجب ثم أعجب، فمرة يجعلون الأتقى هو أبابكر وليس النبي، ومرة يجعلون "عبدا" نكرة هو النبي الأعظم، على الرغم من أنه إما "عبدالله" أو "عبده"، أما أن يكون *عبدا* هكذا، فهذا ما لا يُقبل! أضف إلى ذلك أن الآية خطاب للنبي، فهل يكون هو المخاطب والمحكي عنه؟! كما أنها لم تقل أن ذلك الشخص كان ينهى عن الصلاة، فتأمل! وإنما كان ينهى عبدا عن شيء إذا صلى، ويظهر لنا من خلال سياق السورة وتكرار الأمر بالقراءة أنه كان ينهى عن قراءة القرآن والسجود.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

فسواء كان على الهدى بأن سمع القرآن وآمن به –وهذا فعل قلبي– أو كان من الآمرين بالتقوى –وهو فعل لساني– أو حتى كذب بالقرآن وأعرض عنه، ألم يعلم في كلتا الحالتين أن الله يرى؟! أم أنه يظن أن الله غافل عما يفعل فلا يرى ما يحدث في خلقه، لذا يطغى ويتجبر؟!

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا(213) بِٱلنَّاصِيَةِ(214) ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

فإن لم ينته هذا الإنسان عن طغيانه وعن ظنه أنه استغنى عن خالقه، وعن النهي عن قراءة القرآن والسماع إليه، فلنأخذن بالناصية ولنجرنه بها هو وكل متكبر طاغ، تلك الناصية الكاذبة في توجهها المرفوعة كبرا، الرافضة السجود لله عزوجل، الخاطئة في أفعالها، المغترة بعلمها، الظانة استغناءها بنفسها وبالبشر أمثالها.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ(215) ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ(216) ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

---

(213) السين والفاء والعين أصلان: أحدهما لونٌ من الألوان، والآخر تناوُل شيءٍ باليد. (...) وفي كتاب الخليل: كان عُبيد الله بن الحسن قاضي البصرة مولعاً بأن يقول: "اسفَعا بيده فأقيماهُ"، أي خُذا بيده.

(214) الناصية هي مقدم الرأس وأعلاه، وهي محل التوجيه والتحكم في الدواب: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة هود ,٥٦] ولأصحاب *الإعجاز العلمي* في القرآن كلام طيب حول هذه الكلمة فليراجع.

(215) جاء في المقاييس: "النون والدال والحرف المعتل يدلُّ على تجمُّع، وقد يدلُّ على بللٍ في الشَّيء. فالأوّل النَّادي والنّدِيّ: المجلس يَنْدُو القومُ حوالَيْه؛ وإذا تفرَّقوا فليس بَندِيّ. ومنه دار النَّدْوةِ بمكّة، لأنَّهم كانوا يَنْدُون فيها، أي يجتمعونَ" اهـ

(216) الزبن أصل يدل على الدفع، و جاء في اللسان: "زَبَنَتِ الناقة إذا ضربت بثَفِناتِ رجليها عند الحلب، فالزَّبْنُ بالثَّفِنات، والركض بالرجْل، والخَبْط باليد. ابن سيده وغيره: الزَّبْنُ دفع الشيء عن الشيء كالناقة تَزْبِنُ ولدها عن ضرعها برجلها وتَزْبِنُ الحالب. وزَبَن الشيءَ يَزْبِنُه زَبْناً وزَبَنَ به وزَبَنَت الناقة بثَفِناتِها عند الحلب: دَفَعَتْ بها. وزَبَنَتْ ولدها: دفعته عن ضرعها برجلها. وناقة زَبُون: دَفُوع، وزُبُنَّتاها رجلاها لأَنها تَزْبِنُ بهم" اهـ

إذا فالأصل يدور في الدفع، فما علاقة هذا بالملائكة؟ لذا اختلف المفسرون في المراد عند تناولهم لهذه الآية، ويُظهر الإمام الفخر الرازي هذا الاختلاف والحيرة، فيقول: "المسألة الثانية: قال أبو عبيدة والمبرد: واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنية إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال: فلان زبنية عفرية، وقال الأخفش: قال بعضهم واحده

فليدع ذلك المغتر بعلمه أولئك الذين يجتمع بهم ويجالسهم ويحسبهم مصدر عزه وقوته، فسندع نحن ملائكة تدفعه وتصده هو ومن معه عن ما يريدون.

ثم تُختم السورة بنهي الرسول والمؤمنين عن طاعته، وتأمر بالسجود والاقتراب، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝﴾ [سورة الـشرح ,٧-٨]

فلا تطع ذلك المغرور المتكبر الطاغي، واقرأ القرآن واسجد لله عزوجل واقترب منه تزداد فتحا وعلما.

وكما نرى فقد بدأت السورة بالأمر بالقراءة، وختمت بالأمر بالسجود والاقتراب، فكأن قراءة القرآن هي باب القرب إلى علام الغيوب.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة القدر في فلك عظمة وقت إنزال أكبر نعمة على الإنسان وفتح باب القرب الأكبر (القرآن).

وكانت سورة العلق قد أمرت بقراءة القرآن وبالسجود والاقتراب، وتبدأ سورة القدر بالتعريف بالليلة التي أُنزل فيها هذا القرآن:

الزباني، وقال آخرون: الزابن، وقال آخرون: *هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة العرب* مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء، وقال قتادة: الزبانية هم الشرط في كلام العرب، وهم الملائكة الغلاظ الشداد، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أي يدفعونهم في جهنم." اهـ
والله أعلم بمراده من الكلمة، فلا نجزم بالمعنى.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ[217] مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾

فهذا القرآن، الذي هو باب القرب من الله عزوجل وباب الفتوحات العلمية والذي هو هدى للناس أنزلته الملائكة في ليلة القدر، وليلة القدر هذه ليست ليلة عادية، وإنما هي ليلة عظيمة القدر! عند الله عزوجل، فهي خير من ألف شهر، لأن تلك الليلة: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [سورة الدخان, ٤] ففي هذه الليلة التي تقدر فيها المقادير أنزل القرآن الكريم، هداية للناس، -كما أوجب الله تعالى على نفسه في الليل: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾ [سورة الليـل, ١٢]- ليقرأ الإنسان وليسجد وليقترب من الله عزوجل.

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾

ففي هذه الليلة التي تقدر فيها المقادير تنزل الملائكة بإذن ربهم من كل أمر من الأمور التي ستقع وتكون. وهذه الليلة سلام هي، فلا تحمل أذى أو ضر أو خوف للناس، حتى مطلع الفجر. فإذا كانت الليلة التي أنزل فيها القرآن سلام، فما بالنا بالقرآن نفسه؟!

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة البينة في فلك حجية الرسول (النبي والكتاب)، الذي قسم الناس إلى مؤمنين وكافرين.

(217) الفرق بين "وما أدراك" و"ما يدريك" في القرآن: "ما أدراك" تشير إلى أنه لم يوجد أحد قد أدراك قبل الآن، و"ما يدريك" تشير إلى أن أحداً لم يدرك في الماضي وأن أحداً لن يدريك في المستقبل.

وكانت سورة القدر قد تحدثت عن زمن نزول القرآن، وهنا تربط سورة البينة تفرق الذين أوتوا الكتاب بمجيئه، فبه صار الناس مؤمنين وكافرين:

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ[218] مُنفَكِّينَ[219] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ[220] ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟[221] صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾

فتبين أن الكافرين من أهل الكتاب ومن المشركين ما هم بتاركي كفرهم ولا منخلعين منه حتى تأتيهم البينة، على أن ما هم فيه باطل، وتقدم لهم الحق من الله عزوجل.

وهذه البينة هي رسول[222]، يقول أنه مرسل من الله تعالى، يتلو صحفا مطهرة عن الباطل والقبح والشرك، وهذا الصحف تحتوي كتبا[223] قائمة بالحق وعليه.

[218] في الآية إشكال كبير للمفسرين، وذلك لأنها تقول بأن من المشركين من هو كافر، ومن ليس بكافر، وليس فيها أي إشكال بعون الله لمن يفرق بين الكلمات المختلفة ولا يضعها في سلة واحدة، فقد يكون الكافر مشركا وقد لا يكون، وقد يكون المشرك كافرا وقد لا يكون، فالكافر هو الإنسان الذي يعرف الحق ويعانده ويكتمه، لذا فقد يكون هناك مشركون غير كافرين، لأن الحق لم يظهر لهم. وفي المسألة تفصيل كبير ليس هذا موضعه.

[219] الفك معروف، ومن مدلولاته –كما أورد الإمام الفخر الرازي: "الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال، ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته، ومنه فكاك الرهن وهو زوال الإنغلاق الذي كان عليه، ألا ترى أن ضد قوله: انفك الرهن، ومنه فكاك الأسير وفكه، فثبت أن انفكاك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة." اهـ

[220] ذلك مثل قولي: لم أكن تارك اللهو حتى يجبرني أبي. ولم تأت "البينة" معرفة في القرآن كله إلا في هذه السورة، وما عدا ذلك فهي منكرة، مفردة ومجموعة. وفيها –والله أعلم– إشارة إلى ما هو موجود في كتب الأقدمين من قدوم الرسول الأعظم بالشريعة الخاتمة الناسخة.

[221] في الآية دليل على ما نقول به من أن الرسول الكريم كان قارئا، ولقد لاحظ الإمام الفخر الرازي هذه النقطة، فقال: "فإن قيل: كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً؟ قلنا: إذا تلا مثلاً المسطور في تلك الصحف كان تالياً ما فيها، وقد جاء في كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب، وإن كان لا يكتب، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم." اهـ

والذي نراه أن النبي الكريم لم يكن قارئا قبل البعثة وأصبح قارئا بأمر الله تعالى: "اقرأ".

[222] عامة المفسرين على أن المراد من البينة هي الرسول، ثم أخذوا يبينون كيف أن الرسول بينة!، ومن ذلك ما قاله الإمام الفخر الرازي: "أن ذاته كانت بينة على نبوته، وذلك لأنه عليه السلام كان في نهاية الجد في تقرير النبوة والرسالة، ومن كان كذاباً متصنعاً فإنه لا يتأتى منه ذلك الجد المتناهي، فلم يبق إلا أن يكون صادقاً أو معتوهاً؛ والثاني: معلوم البطلان لأنه كان في غاية

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ[224] ٤﴾

وعلى الرغم من أن البينة بينة! وهي بالدرجة الأولى عنصر هداية وتوحيد، فإن من عادة أهل الكتاب، الذين أوتوه، ألا يجتمعوا عليها، وإنما يتفرقوا ويختلفوا بشأنها، عندما يأتيهم أي رسول، فمنهم من يؤمن بها ويتبعها ومنهم من يعارضها ولا يؤمن بها ظلما وعدوانا وبغيا من عند نفسه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [سورة البقرة, ٢١٣]

فليست البينة نفسها سبب الاختلاف، وإنما البغي والكبر الموجودان في النفس هو سبب الاختلاف، ولو نُزِع البغي لرفعت البينة الخلاف.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ[225] ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾

كمال العقل، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً؛ الثالث: أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز، والجاحظ قرر هذا المعنى، والغزالي رحمه الله نصره في كتاب المنقذ، فإذاً لهذين الوجهين سمي هو في نفسه بأنه بينة."اهـ

ولا اعتراض على ما يقولون، إلا أننا نقول أن البينة ليست مجرد الرسول، وإنما الرسول الذي يتلو صحفا مطهرة، فالبينة هي الرسول والصحف مجتمعان.

(223) ليس المقصود من الكتاب المعنى المعاصر، وهو مجتمع الورق المغلف، وإنما المعنى الموجود في كتب التراث، مثل قولنا: كتاب الصلاة، أي فصل الصلاة الجامع للمسائل المتعلقة بها، وذلك لأن الكتب أصلا يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ. ومن ذلك الكتيبة.

(224) هذه آخر آية ورد فيها "الذين أوتوا الكتاب"، وأول آية وردت في القرآن تفصل هذه الآية، فتقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (البينة) نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ [سورة البقرة, ١٠١]

(225) يفهم كثيرون الآية هكذا: "وما أمروا إلا أن يعبدوا الله ..."، وكنت منهم! وكنت أتساءل: كيف يكون من قبلنا أو نكون نحن لم نؤمر إلا بهذه الأوامر الثلاثة، فهناك الكثير من الأوامر الأخرى؟! والعلة في الأفهام السقيمة وقلة التدبر!

وليس لهؤلاء مبرر أو عذر في تفرقهم، فما أمرهم الرسول ومن سبقه من الرسل بأي أمر إلا لغاية معروفة، وهي غاية إرسال الرسل جميعا، وهي أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، فلا يشركون به غيره ولكي يتركوا كل الأديان ويستقيموا على دين الله تعالى، ويقيموا الصلاة متقربين بها إلى ربهم، ويؤتوا الزكاة، مطهرين أنفسهم من البخل والأوساخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾

فمن كفر بالحجة البينة فهو في نار جهنم خالدا فيها، جزاءا وفاقا له على كفره وبغيه، ومن دخلها فهو شر البرية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ[226] ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾

ثم تقرر الآيات أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم في الدنيا خير البرية، فهم خير لأنفسهم ولغيرهم، فخيرهم يصل إلى خلق الله، وسيجازيهم الله عزوجل على ذلك بجنات إقامة، تجري من تحتها الأنهار، ولهم غير ذلك من الكرم والمنة أن الله تعالى رضي عنهم، ورضوا عنه، وذلك لمن خشي ربه.

(226) لم ترد كلمة "البرية"، –وكذلك: "القيمة"– إلا في هذه السورة، وهي تحتاج إلى بحث مطول حتى يُستخرج مدلولها الدقيق.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الزلزلة في فلك بينة اليوم الآخر: كتب الأعمال. وكانت سورة البينة قد تكلمت عن بينة الدنيا وهي القرآن، حجة الله على عباده، وتتحدث سورة الزلزلة عن إخراج الأثقال، وهي كتب أعمال الناس، حيث تبطل حجج وجدل كل مجادل. ففي ذلك اليوم يرى الإنسان ما قدمت يداه بعينيه، فكيف الجدال والدفع؟!

انتهت السورة الماضية "البينة" بذكر حال الناس في الدار الآخرة كجزاء عادل لهم على موقفهم من البينة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

وتبدأ هذه السورة الكريمة بذكر مشهد سابق لهذا المشهد، –والذي يتحقق بعده المشهد السابق– وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١﴾، فيكون ما ورد في السورة الماضية متوقفا على ما سيرد في هذه السورة.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿إِذَا[227] زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا[228] ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾

---

[227] من غير المألوف ابتداء الكلام ب "إذا"، وهذا لأن أسلوب القرآن غير أسلوب البشر والعرب في السرد، ولأنها وإن كانت أول كلمة في السورة إلا أنها مرتبطة بما قبلها. ونلحظ مجيء الفعل بعد "إذا" مباشرة، فلم تقل الآية "إذا الأرض زلزلت"، كما هو الغالب في مثل هذه الآيات، والتي يأتي فيها الفعل في آخر الآية (لاحظ هذا في آيات المرسلات والتكوير والانفطار والانشقاق)، وذلك لأن التركيز في هذه الآية على الحدث وليس على الجرم، أما في الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [سورة الانشقاق, ١]، فالمراد لفت انتباه السامع إلى السماء وعظمتها وقدرها، وكيف ستنشق على الرغم من كل هذا!

فتبدأ السورة بعرض مشهد عظيم من مشاهد هذا اليوم وهو زلزلة الأرض كلها، فعندما تزلزل الأرض زلزالها، ذلك الزلزال الشامل الذي يزلزل الأرض كلها، وليس كزلازلنا، والتي تقع في جزء دون آخر، ذلك الزلزال المرتبط بالساعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج ,١]، ذلك الزلزال الذي لا يترك شيئا على حاله وإنما يرفع ويخفض. وعندما تخرج الأرض كتب الأعمال، ويرى

(228) اختلف المفسرون في المراد من الأثقال، إلا أن المشتهر في ذلك هو أن المراد من الأثقال إما البشر أنفسهم أو الكنوز! ونورد هنا ما ذكره الإمام الألوسي في تفسيره حول هذه الآية: "{وَأَخْرَجَتِ الارض أَثْقَالَهَا} فقد قال ابن عباس: أي *موتاها* وقال النقاش والزجاج ومنذر بن سعيد: أن كنوزها وموتاها وروي عن ابن عباس أيضاً. (...) واقتصر بعضهم على تفسير الأثقال بالكنوز، مع كون المراد بالوقت وقت النفخة الثانية، وقال تخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف فيتحسر العصاة إذا نظروا إليها، حيث عصوا الله تعالى فيها ثم تركوها لا تغني عنهم شيئاً (...) وأياً ما كان فالأثقال جمع ثقل بالتحريك، وهو على ما في القاموس: متاع المسافر وكل نفيس مصون، وتجوز به ههنا على سبيل الاستعارة عن الثاني، وجوز أن يكون جمع ثقل بكسر فسكون بمعنى حمل البطن على التشبيه والاستعارة أيضاً كما قال الشريف المرتضى في الدرر وأشار إلى أنه لا يطلق على ما ذكر إلا بطريق الاستعارة ومنهم من فسر الأثقال ههنا بالأسرار وهو مع مخالفته للمأثور بعيد، وإظهار الأرض في موقع الاضمار لزيادة التقرير وقيل للإيماء إلى تبديل الأرض غير الأرض أو لأن إخراج الأرض حال بعض أجزائها، والظاهر أن اخراجها ذلك مسبب عن الزلزال كما ينفض البساط ليخرج ما فيه من الغار ونحوه " اهـ

ونحن نستبعد أن يكون المراد من الأثقال هو الموتى، وذلك للآية التالية "وَقَالَ الإنسَانُ مَا لَهَا"، وذلك لأنه من المفترض أن الإنسان شاهد الموقفين السابقين فقال ما لها، أما أن يكون في باطن الأرض، فهذا معناه أنه لم يشاهد شيئا!

كما نستبعد كذلك أن يكون المراد من الأثقال الكنوز، لأن الكنوز ليست أثقال الأرض، *ولأن الإنسان يتساءل عندما يرى هذا الموقف: ما لها، فيفترض أن ما يراه يكون غريبا جدا حتى يسأل هذا السؤال.*

وكنا قد ملنا إلى أن المراد من الأثقال هو الجبال الرواسي، ويكون إخراجها بأن تخلع من الأرض، تمهيدا لتسييرها ونسفها، إلا أننا رأينا أن هذا المعنى لا ينسجم مع سياق الآيات، فعدلنا عن هذا القول، *ثم ظهر لنا فيها بحمدالله وعونه قول آخر مناسب لسياق الآيات، وهو أن المراد من الأثقال هو كتب الأعمال*. ففي هذا اليوم يُخرج لكل إنسان كتاب جامع لأعماله (لاحظ أن الكتاب يُخرج والأثقال كذلك): ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [سورة الإسراء ,١٣]

وليس هذه الكتب مثل كتبنا، من أنها مكونة من صفحات وغلاف، وإنما هي كتب أخرى عجيبة، من الممكن تشبيهها بعارضات الصور ثلاثية الأبعاد، كتب سجلت بالصوت وبالصورة كل ما اقترفه الإنسان وتعرضه له! وبهذا يرى الإنسان ما قدمت يداه فعلا (توصيف الكتب هذا مأخوذ من فهمنا لآيات عدة في الكتاب الكريم)

وهذه الكتب التي هي تاريخ الإنسان تستحق أن توصف بالثقل، وليس هذا النعت بمستغرب، فإذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى ألفيناه يقول: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [سورة العنكبوت ,١٣]، فالخطايا والأعمال هي أثقال بنص سورة العنكبوت.

فإذا رأى الإنسان كتب الأعمال –والله أعلم بكيفيتها وهيئتها– تتطاير أمامه وتخرج من الأرض، يعجب منها ويستغرب ويسأل: مالها. أما أن يتعجب من زلزلة أو أي حدث طبيعي يوم القيامة مهما كان عظيما فهو مستبعد، فماذا ينتظر الإنسان في هذا اليوم حتى يتعجب من الزلزلة؟!

الإنسان كتب الأعمال بشكل غير مألوف ولا معروف، وعندما يتعجب الإنسان من هذه الكتب التي تخرج من الأرض، وتتطاير.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا[229] ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

ففي هذه اليوم تُخرج الكتب وتعلن الناس بأن الرب أوحى لها[230] بالتحديث بما فيها، وهنا يعلم الناس أنه قد حان وقت كشف المستور، فيصدرون إلى المكان الذي ستؤتى فيه الكتب وتُعرض.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ[231] أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

---

(229) عامة المفسرين على أن عود الضمير في "أخبارها" على الأرض، ثم اختلفوا في كيفية التحديث بالأخبار، *وذلك لأن الأرض لا تتحدث*! ونذكر هنا ما أورده الإمام الفخر في تفسيره، والذي قال فيه: "السؤال الثاني: ما معنى تحديث الأرض؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها: وهو قول أبي مسلم يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله *فكأنها* حدثت بذلك، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت. والثاني: وهو قول الجمهور: *أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً ويعرفها جميع ما عمل أهلها* (!!!)، فحينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصي، قال عليه السلام: «أن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها» ثم تلا هذه الآية، وهذا على مذهبنا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطاً لقبول الحياة، فالأرض مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها يخلق الله فيها الحياة والنطق"اهـ

وعلى قولنا لا إشكال، فالحديث في الآية السابقة عن الأثقال، والتي هي كتب الأعمال، فلا عجب أن تحدث الكتب بما فيها من أخبار.

(230) عامة المفسرين على أن الباء في: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ سببية، أي تحديثها بسبب إيحاء ربك لها، إلا أننا نرى أن هذه الجملة مماثلة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٧٦]

فالأثقال –كتب الأعمال– تحدث بأن ربك أوحى لها، –والملاحظ أن "أوحى" تتعدى ب "إلى"، وذلك كما جاء في القرآن كله، إلا في هذه الآية فقد تعدت باللام، وذلك لأنها تتعدى ب إلى عندما يكون الحديث عن مستقبِل الوحي، حتى ولو كان غير عاقل، كما جاء مع النحل، أما عندما يكون الحديث عن غير ذلك فيتغير حرف الجر، وذلك كما جاء في قوله تعالى "وأوحى في كل سماء أمرها"، فهنا الحديث عن محل الوحي، وهنا في سورة الزلزلة الحديث عن الغاية من الوحي، فالله –والله أعلم– أوحى إلى الأرض من أجل الأثقال.

(231) *الآية واضحة في أن الناس سيرون أعمالهم، ولكن السادة المفسرين –غفر الله لهم ولنا– لم يقبلوا برؤية الأعمال، وذلك لخلفيتهم المعرفية العلمية القاصرة*، وأولوها! فقال الإمام الألوسي: "{لِّيُرَوْاْ أعمالهم} أي ليبصروا جزاء أعمالهم خيراً كان أو شراً، فالرؤية بصرية والكلام على حذف مضاف، أو على أنه تجوز بالأعمال عما يتسبب عنها من الجزاء وقدر بعضهم كتب أو صحائف وقال آخر: لا حاجة إلى التأويل والأعمال تجسم نورانية وظلمانية بل يجوز رؤيتها مع عرضيتها. وهو كما ترى" اهـ

فيومها يصدر الناس فرقا فرقا، ليشاهدوا بأعينهم أعمالهم، التي اقترفوها في الدنيا، وسيرى الإنسان كل ما عمله، خيرا كان أو شرا، فهذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، وكل ما عملوه محضر، ولا يظلم ربك أحدا، فهل هناك بيّنة أقوى من هذه البينة؟!

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة العاديات في فلك كفران الإنسان لنعم الله تعالى، على الرغم من إقامة البينة عليه.

وكانت السورتان السابقتان قد دارتا حول حجة الله على عباده في الدنيا والآخرة المسجلة، وهي كتب الوحي والأعمال، فإن هذه السورة تعرض لكفران الإنسان لنعم الله عليه، التي يغرق فيها الإنسان ثم يكفر بالله! فتعرض السورة مشهد السحب العاديات المنزلات الماء، الذي هو قوام حياة الإنسان، والإنسان على هذه النعم شهيد ولحب الخير شديد وعلى الرغم من ذلك يعرض! وينسى الموت ونزع النفس، ولا يتخذ لذلك العدة، للقاء الخبير.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

أما نحن فنجزم من خلال هذه الآية وآية آل عمران 30، وغيرهما من الآيات، أن الإنسان سيرى أعماله محضرة يوم القيامة، فإذا كان الإنسان قد نجح في تصوير الأحداث وحبسها في شرائط وإسطوانات، تعرضها لاحقا، فإنا نجزم أن العرض الذي سيراه الإنسان عرضا أكثر دقة وطبيعية، حيث سيرى الإنسان أعماله وما اقترفت يده، والله أعلم بطريقة العرض والتخزين.

فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيرا يره في اليوم الآخر، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره في اليوم الآخر. فليس الحديث بحال عن رؤية جزاء الأعمال، وإنما الحديث عن الأعمال نفسها، والتي يراها الإنسان في اليوم الآخر رأي العين.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا[232] ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥﴾

[232] المشهور بين المفسرين أن أول السورة حول الخيل أو الجمال، ولكنا نرى أن العاديات ليس لها أي علاقة لا بالخيل ولا بالإبل، ونبدأ في تحليل الألفاظ لنبين لماذا رفضنا القول السائد:

العاديات جمع عادية، والعادية اسم فاعل مؤنث من عدو، فهل من الممكن أن تكون بمعنى الطامة أو الظالمة أو الغاشية؟ هذا المعنى غير مراد على الإطلاق، فالله تعالى لا يقسم بما فيه ضرر وظلم للناس وإنما ينبههم إلى ما فيه كل الخير. والعادية كلمة كثيرة المعاني ولكنها تدور كلها بين سرعة الحركة والاعتداء! فما هو المراد من العاديات في هذه السورة عند استبعاد مدلول الاعتداء؟ الملاحظ أن السادة المفسرين قاطبة يكادون يجمعون أن المراد من العاديات هو الخيل أو الإبل ويستندون في ذلك إلى ما ورد في الأثر المشهور عن سيدنا على وابن عباس، وعن رجوع ابن عباس لقول الإمام علي.

وقيل أن المراد من ذلك الخيل، وهذا ما رجحه الإمام الفخر الرازي في تفسيره، حيث قال: "واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل، *وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس*، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر مالا يظهر بخف الإبل، ... " اهـ

فإذا نظرنا في المقاييس بحثا عن "ضبح" وجدناه يقول: "الضاد والباء والحاء أصلانِ صحيحان: أحدهما صوتٌ، والآخَرُ تغيُّرُ لون من فعلِ نار. فالأوَّل قولُهم: *ضَبَحَ الثّعلبُ* يَضْبَح ضَبْحاً. وصَوْتُهُ الضُّبَاح، وهو ضابح. قال: دعوتُ ربِّي وهو لا يُخَيِّبُ بأنَّ فيها ضابحاً ثعيلب، فأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ [سورة العاديات ,١] فيقال هو صوتُ أنفاسها، وهذا أقيَسُ، (...) وأمَّا الأصل الثاني فالضَّبْح: إحراقُ أعالي العُود بالنار. والضِّبْح: الرَّماد. *والحجارة المضبوحة هي قَدَّاحة النّار*، التي كأنها محترقة. قال: والمرْوَ ذَا القَدَّاحِ مضبوحَ الفِلَق، ويقال الانضباح تغيُّرُ اللون إلى السواد." اهـ

فإذا كان هذا هو المعنى اللغوي العام لهاتين الكلمتين فما هو المراد من هذه الآيات ؟

الملاحظ في هذه الآية أن الله عزوجل استعمل وصفا عاما "العاديات" ولكنه خصصه بمخصصات عدة، ***ولا بد لمن يستخرج معنى العاديات أن يثبت تطابق هذه الأوصاف مع المدلول تطابقا كليا***، وهذا ما لا نجده بأي حال في أقوال المفسرين، فإذا نحن طبقنا منهج المفسرين في التجزئة والتقطيع فيمكننا القول: نجد أن الوصف من أول السورة يدور في ***فلك الاعتداء***، فمن الممكن أن يتناسب هذا الوصف ينطبق على معداتنا الحربية الحديثة أكثر منه انطباقا على الخيل والجمال، فمعداتنا هي التي تضبح (تحدث أصواتا وتغير لون من فعل نار فتخرج دخانا) وهو توري أقداحا وتغير صبحا وتثير النقع وتتوسط الجمع! ***ولكنا لا نقول بهذا القول، لأنه يؤدي إلى تجزئة الآيات وتقطيعها وعدم وجود أي معنى إجمالي متصل من أول السورة إلى آخرها.***

إذا فما هو المراد من العاديات؟ ***العاديات المرادة في هذه الآيات من خلال التوصيف الرحماني لها هي السحب الثقال المحملة الممطرة***، لأننا إذا طبقنا باقي الأوصاف على أي معنى آخر فلن نجد تطابقا كليا، أما مع السحب فستجد تطابقا تاما كاشفا للألغاز التي أوقعنا فيها المفسرون عند قولهم بالأقوال الأخرى، وابدأ معي عزيزي القارئ في تتبع هذه الأوصاف:

العاديات ضبحا: الضبح كما قلنا "صوت وتغير لون" كما جاء في المقاييس، فإذا نظرنا في حال السحب الثقال حال عدوها وجدنا معها صوتا وهو صوت الريح الناقل لها وكذلك صوت الرعد الخارج منها، كما أن فيها تغير لون، فالسحب تتغير ألوانها وكلما أثقلت السحب اتجها لونها إلى اللون الداكن، إذا فهذه هي العاديات ضبحا السحب المثقلة المحملة بالأمطار والمليئة بالرعود والبروق.

ثم يخصصها الله عزوجل بوصفين آخرين (لا بد أن يتطابقا تماما مع السحب كذلك) والوصف الأول منهما أنها بعد أن كانت عادية ضبحا أنها أورت قدحا.

والملاحظ أن المفسرين قاطبة غفلوا عن حرف الفاء، فلم يشر أحد منهم إلى فائدته في هذه السورة، فجعلوا مراد الله "والعاديات ضبحا والموريات قدحا"، أما نحن فنراعي حرف الفاء ونجعله لترتيب الوصف، أي أنها عاديات فموريات فمغيرات، وهكذا.

ولكن ما هو الإيراء وما هو القدح ؟

هذان اللفظان من الألفاظ المستعملة والمعروفة وسنُذكّر القارئ الكريم بمعنيهما الذي ربما قد غفل أوذهل عنه: لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الواقعة ,٧١] فالإيراء معروف وهو إخراج النار، وهو يختلف في المعنى عن الإيقاد، فالإيراء إخراج نار عن طريق احتكاك وليس عن طريق الإشعال المباشر، ويمكننا أن نسهل الأمر للقارئ: إشعال عود الثقاب يعتبر ضرب من الإيراء، وعندما يوضع الثقاب المحترق في الورق مثلا فهذا إيقاد وإشعال! ضرب حجرين ببعضهما هو نوع من الإيراء.

القدح معروف المعنى، وجاء في لسان العرب "(...) وقَدَحَ بالزَّنْدِ يَقْدَحُ قَدْحاً واقْتَدَح: رام الإيراءَ به. والمِقْدَحُ والمِقْداحُ والمِقْدَحَةُ والقَدَّاحُ، كله: الحديدة التي يُقْدَحُ بها؛ وقيل: القَدَّاحُ والقَدَّاحة الحجر الذي يُقْدَحُ به النار؛ وقَدَحْتُ النارَ. الأَزهري: القَدَّاحُ الحجر الذي يُورى منه النار؛ قال رؤبة: والمَرْوَ ذا القَدَّاحِ مَضْبُوحَ الفِلَقْ والقَدْحُ: قَدْحُك بالزَّنْد وبالقَدَّاح لتُورِيَ؛ الأَصمعي: يقال للذي يُضْرَبُ فتخرج منه النار قَدَّاحة ... " اهـ

إذا فالسحب توري عن طريق القدح وهو الاحتكاك لإخراج النار وهذا ما يقول به العلم الحديث، فهناك سحب ذات شحن سالبة وأخرى موجبة وعند الاحتكاك يحدث الإيراء فينزل المطر ويظهر البرق! وتذكر أن هذا وصف ثابت لهما فالسحب لا محالة عادية، فهي لا تقف، بخلاف أي حيوان، كما أنها تحتك دوما وتخرج برقا، فهذا من وظائفها في النظام الطبيعي، لذلك استخدم الله عزوجل معها الوصف الاسمي "موريات"، وعلى القول الآخر يصبح عملية القدح من الصفات الملازمة للخيل أو للإبل، وهذا ما لا يكون!!

وقارن عزيزي القارئ بين هذا القول وبين من يقول أن المراد من ذلك هو: "فاعلم أن الإيراء إخراج النار، والقدح الصك، تقول: قدح فأورى وقدح فأصلد، ثم في تفسير الآية وجوه؛ أحدها: قال ابن عباس: يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قدح، وقال مقاتل : يعني الخيل تقدحن بحوافرهن في الحجارة ناراً كنار الحباحب. " اهـ

ثم ننتقل إلى التوصيف الرحماني الثاني لحالة السحاب وهي أنها بعد ذلك تغير صبحا! و*السحب هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يغير صبحا!* أما ما عداها فلا يمكن له ذلك ولا يتحقق فيه أبدا.

فإذا نحن نظرنا في أقوال السادة المفسرين وجدناهم يقولون: "يعني الخيل تغير على العدو وقت الصبح، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئاً، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة، *أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد*. وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل، قالوا : المراد هو الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى" اهـ

فعلى فهمهم هذا فإن الله تعالى يقسم بحدث انقرض منذ مئات السنين ولم يعد له فائدة، ويعني أنه لو أغارت نهارا أو ليلا فلا عبرة فيها! *بغض النظر عن كونه فعل ضرر وظلم وغدر فليس هذا من القتال في الإسلام في شيء*، حيث ينبغي علينا أن نعلم المقاتل بقتالنا له ولا نأخذه هكذا غيلة، فكيف يقسم الله عزوجل بالفعل الحرام ؟!! ثم إن الملاحظ أن الخيل أو الإبل لا يمكن أن تغير صبحا أبدا!، من الممكن أن تغير بالصبح أو في الصبح أو صباحا، أما أن تغير صبحا فهذا معناه أنها هي أصبحت كالصبح! وليوضح لي السادة المفسرون كيف يتحول الخيل إلى النور والإحمرار!

أما في حالة القول أن المراد من ذلك هو السحب فيكون المعنى هو أن السحب المثقلة بعد عدوها واحتكاكها وايراءها تغير أي تسرع، مضيئة عن طريق البرق وبذلك تكون هي نفسها صبحا بغض النظر عن الوقت التي تغير فيها! كما أنها ببرق أو بدونه من الممكن اعتبارها صبحا لأن السحب تكون في الغالب بيضاء فمن الممكن النظر إليها من هذا المنظور أيضا كالصبح!

ثم بعد ذلك انتقل الله عزوجل إلى وصف فعل هذه العاديات، فبعد أن كان يصف حالها وتنقله وتغيره انتقل إلى وصف فعلها، فقال: "فأثرن به نقعا"، وتحير المفسرون في مسألة عود الضمير في هذه الآية "فأثرن به" وفي الآية التالية "فوسطن به"، فقالوا فيها أقوالا عجيبة، فإذا نحن نظرنا في الآيات وجدنا أن الإمكانية الوحيدة لعود الضمير هو قوله تعالى "قدحا"، أي أن السحب

فيقسم الله تعالى بالسحب الثقال المتحركات حركة سريعة، والتي دكن لونها واسود لكثرة ما تحمله من أمطار، والتي تجتمع فتحتك فتوري، ومن خلال هذا الاحتكاك يكون برق، وبذلك تضيء هذه السحب وتصبح صبحا، وبهذا الاحتكاك والقدح تثار ذرات المياة الموجودة والراكدة في السحب فتنزل فتتوسط أي جمع كان من نبات أو حيوان أو بشر! وعلى الرغم من ذلك يكون رد الإنسان هو الجحد والنكران.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ[233] لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۞﴾

فالإنسان كثير الجحد والنكران لحق الله فلا يشكره على ما قدمه له، على الرغم من أنه على ما ينعم الله عليه به شهيد، وعلى الرغم من كونه محبا للخير.

وينبه المولى سبحانه بهذه الآيات الثلاث على تناقض فعل الإنسان،فهو يكفر نعمة الله وينكر فضله عليه على الرغم من وضوحه أمام عينيه ثم على الرغم من ذلك هو محب شديد للخير، فكيف يتفق هذا مع تصرفه ؟

المغيرة تثير بهذا القدح والذي يترتب عنه –كما قلنا– برق (مغيرات صبحا) فالعاديات أثارت بالقدح نقعا وهو الماء المنقوع والموجود في السحاب بشكل من الأشكال، فمن خلال هذا القدح يثار النقع! ثم بعد ذلك تأتي النتيجة المنطقية وهي قوله تعالى: "فوسطن به جمعا" أي أن النقع، والذي هو المطر، الذي أنزل من السحاب، يتوسط الجمع أي جمع كان، فنرى أن الماء ينزل ويصل إلى أي جمع لا يحجزه حاجز فيعُمه وينفعه، ومن الممكن القول أن المراد من النقع المثار هو الماء الموجود على الأرض فعندما ينزل الماء من السماء يزيد الماء الموجود على الأرض فيسيل فيتوسط الجمع ومن المعروف أن الماء أو السوائل عامة لا تكون في الأطراف أو المرتفعات وإنما تتوسط بين العوالي!

[233] اختلف المفسرون في الضمير في "إنه"، فمنهم من قال أن الضمير يعود على الإنسان، ومنهم من قال أنه يعود على الله تعالى. والعجيب أنهم لم يختلفوا تقريبا حول "ذلك" فقالوا أن المراد من ذلك هو الكنود! بحجة أن العود هو على أقرب المذكورات!

والذي أراه أن الضمير في "إنه" لا بد أن يعود على الإنسان لأن الحديث عنه في الآية السابقة وكذلك في التالية، فمن الأولى أن يستمر الكلام على وتيرة واحدة بدلا من القول بوجود القطع والاعتراض، فما الدليل على قطع الكلام وعلى أن هذه الجملة جملة اعتراضية، حتى نعود بالضمير على الله عزوجل؟ كما أن عود الضمير هنا على الإنسان أولى ليقابله في آخر السورة "إن ربهم بهم يومئذ لخبير"، فالإنسان شهيد على نِعم الله والله خبير بعباده! وكذلك أرى أن المراد من "ذلك" هو الآيات السابقات والنعم التي أغدقها الله عليه، وبهذا يستقيم المعنى فالآية السابقة تتحدث عن كفر الإنسان للنعمة وعدم شكره عليها، والتالية تنبه على أنه شهيد على هذه النعم، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يشكر!

إن الخير كل الخير هو في استمراره، أما الخير القليل المنقطع الذي يورث شرا فلا خير فيه، بل هو ابتلاء وأذى وشر، فإذا كان الإنسان محبا للخير حقا فعليه أن يفعل العكس، وهو أن يشكر الله على نعمائه وبذلك يستمر الخير الذي يحبه ويصبح من الفائزين في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

فينبه الله تعالى هذا الإنسان المحب للخير المستكثر في جمعه الدافع للشر، إلى أن مصيره وآخرته هي إلى الموت والدفن في القبر مع غيره من الأموات، وهو يعلم كيف تتفتت[234].

كما ينبه الربُ الإنسان إلى ما يراه من استخراج نفس أخيه الإنسان[235] ومن موته أمامه، وكيف أنه سيكون ويصير إلى ما صار إليه، فنفسه ستؤخذ وتجمع وهو سيصير إلى التراب ويبعثر.

---

[234] عامة المفسرين يرون أن هذا حادث يوم القيامة، ولكني أرى أن هذا التوصيف في الدنيا يراه الإنسان بعينه، فنرى أن الله تعالى يذكر الإنسان بحال من يراه في القبور، فعندما يذهب الإنسان لدفن أي عزيز أو عندما تُنقل المقابر، أو لأي سببٍ كان يكون الإنسان في المقابر، يرى عملية البعثرة لما في القبور حيث تُحرك عظاما وتوضع جثث أو تنقل تماما أو أو ...، وهنا يتناسب استعمال "ما" مع ما في القبور، لأنها عبارة عن عظام نخرة وجثث عفنة، أما يوم القيامة فيخرج الناس من الأجداث سراعا كما هم أناسا بالغين!

[235] اختلف المفسرون في المراد من تحصيل ما في الصدور، فقيل كما جاء في تفسير الإمام الفخر الرازي: "قال أبو عبيدة، أي ميز ما في الصدور، وقال الليث: الحاصل من كل شيء ما بقي وثبت وذهب سواه، والتحصيل تمييز ما يحصل والاسم الحصيلة، قال لبيد:

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه   إذا حصلت عند الإله الحصائل.

وفي التفسير وجوه أحدها: معنى حصل جمع في الصحف، أي أظهرت محصلاً مجموعاً. وثانيها: أنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد ومنه قيل للمنخل: المحصل. وثالثها: أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن، كما قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [سورة الطارق ,٩]. اهـ

كما يعرف الله تعالى الإنسان بإحاطته به في جميع أحواله، وخاصة في هذا اليوم العسير، فيعرض للإنسان صورة من يموت ويصير إلى التراب، وهذا الغير بداهة –وكما جاء في الآيات– جمع وغائب فالناس كثيرة في القبور، وهم الذين يموتون ويراهم الإنسان حين ذلك أما عند الموت فلا يرى الإنسان نفسه وإنما يراه غيره! لذلك يقول الله تعالى للإنسان: لا تحسبن أن حياتك في هذه الدنيا أو حياتهم هي الحياة الوحيدة، وأنهم بموتهم قد انتهى الخير والشر بالنسبة لهم! بل هناك حياة بعد الموت، وأنت وغيرك عند موتكم وعند كونكم في قبوركم فإني خبير بكم محيط بكم مطلع عليكم! لذلك فإنه من المنطقي جدا أن يستعمل الله تعالى ضمير الجمع وضمير الغائب من أجل توصيل هذه الصورة للإنسان!

وكما ختمت هذه السورة بمشهد تحصيل الأنفس والقبور، والذي هو مشهد الموت تبدأ التالية بالقرع الذي يوقظ الموتى!

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة القارعة في فلك الصيحة المعلنة بدء الجزاء. وكانت سورة العاديات قد انتهت بالحديث عن مشهد نزع الأنفس: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾، وتبدأ سورة القارعة بالحديث عن الصيحة العظيمة، التي يفزع معها الناس ويقوموا من قبورهم، ومن شدتها تنتفش الجبال. وبعد أن يرى الناس أعمالهم – كما في الزلزلة– توزن، فإما أن تثقل أو تخف.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

والذي أراه أن التحصيل هو الجمع والاستخراج –كما يقول اللسان–، وهذا يكون في الدنيا، فما هو هذا الحدث الذي يكون في الدنيا؟ إنه بداهة ساعة الموت، عندما تأتي الملائكة لتأخذ وتستخرج ما في الصدور وهو نفس الإنسان. أما على قولهم بأن هذا يكون في الآخرة فلا مناسبة فيه ولا تخريج منطقي لزعمهم!

﴿ٱلْقَارِعَةُ[236] ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ[237] ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ[238] ۝٣﴾

---

[236] الناظر في كتاب الله تعالى يجد أن الأسلوب المستعمل في بداية هذه السورة مطابق للأسلوب الوارد في سورة الحاقة، حيث تبدأ السورة بقوله تعالى "الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة" ثم نفاجأ بأن الله تعالى يربع هناك بقوله: "كذبت ثمود وعاد بالقارعة" ولم يقل بالحاقة! إذا فهناك علاقة بين الحاقة والقارعة، وإشارة إلى أن الحاقة هي القارعة! فإذا نحن واصلنا القراءة في نفس السورة وجدنا أن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [سورة الحاقة ,١٣-١٥]–لذا فيمكننا الإجابة على السؤال: متى تقع الواقعة؟ من خلال سورة الحاقة.

[237] طالما أن الله عزوجل استعمل هذا الأسلوب فهو يعني أن المتحدث عنه يفوق تصورات البشر، ولكن هذا لا يمنع من الرجوع إلى المعاجم لنأخذ تصور عن "القرع"! فإذا نظرنا في اللسان وجدنا ابن منظور يقول: "القَرَعُ: قَرَعُ الرأْس وهو أَن يَصْلَعَ فلا يبقى على رأْسه شعر، (...) وفي الحديث: أَنه لما أَتى على محسِّرٍ قَرَعَ راحلته أَي ضربها بِسوْطِه. وقَرَعَ الشيءَ يَقْرَعُهُ قَرْعاً: ضربه. الأَصمعي: يقال العَصا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ أَي إذا نُبِّه انْتَبَه؛ (...) والمِقْرعةُ خشبة تُضْرَبُ بها البغالُ والحمير، (...) والأَقارِعُ: الشِّدادُ؛ عن أَبي نصر. والقارِعةُ من شدائدِ الدهْرِ وهي الداهِيةُ؛ قال رؤبة: وخافَ صَدْعَ القارعاتِ الكُدَّهِ قال يعقوب: القارِعةُ هنا كل هَنةٍ شديدةِ القَرْعِ، (...) وقوله تعالى: ولا يزال كفروا تصيبهم بما صنعوا قارِعةٌ؛ قيل في التفسير: سَرِيّةٌ من سَرايا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومعنى القارعة في اللغة النازلةُ الشديدة تنزل عليهم بأَمر عظيم، ولذلك قيل ليوم القيامة القارعة. ويقال: قَرَعَتْهم قَوارِعُ الدهْرِ أَي أَصابتهم، ونعوذ بالله من قَوارِعِ فلان ولواذِعِه وقَوارِصِ لسانه. (...) الأَصمعي: يقال أَصابته قارعة يعني أَمراً عظيماً يَقْرَعُه. ويقال أَنزل الله به قَرْعاءَ وقارعةً ومُقْرِعةً، وأَنزل الله به بَيْضاء ومُبَيِّضةً؛ هي المصيبة التي لا تدَعُ مالاً ولا غيره. وفي الحديث: أُقسم لَتَقْرَعَنّ بها أَبا هريرة أَي لَتَفْجَأَنَّه بذكرها كالصّكّ له والضربْ. (...) والقُرْعةُ السُّهْمةُ. والمُقارَعةُ: المُساهَمةُ. وقد اقْتَرَعَ القومُ وتقارَعوا وقارَع بينهم، وأَقْرَعَ أَعْلى، وأَقْرَعْتُ بين الشركاء في شيء يقتسمونه. ويقال: كانت له القُرْعةُ إذا قَرَع أَصحابه." اهـ

والناظر في المقاييس يجد أن ابن فارس يذكر أن مرجع عامة باب "ق رع" هو الضرب، ولكن هذا المعنى لا يجمع كل المعاني الواردة في الباب ومن أهمها "القرَع" المعروف بيننا، فما هو المعنى الجامع لهذه اللفظة إذن؟ الذي يظهر لي أن القرع هو الأمر الشديد المباغت الصادم الذي يستأصل مصابه استئصالا شديدا. فإذا فهمنا (القرع) بهذا المعنى وجدناه شاملا لكل المعاني الواردة في اللسان، وتتبعها فستجدها داخلة تحت هذا المعنى، وأهمها الواردة في كتاب الله تعالى: "تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم" فهي داهية مباغتة تنزل بهم عذابا أليما.

[238] هذا الوصف قد ينطبق على أشياء عديدة، فهل المراد منه اليوم الآخر كله، فيكون وصفا له، أم أنه وصف لحدث معين فيه؟ إذا نحن نظرنا في وصف القارعة في هذه السورة وجدنا الرب العليم يقول: "يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش"، أما باقي ما ورد في السورة فهو تال متفرع لذلك –لوجود الفاء– "فأما من ...". فما هو الشيء المناسب لهذين الوصفين؟ الذي نراه –والله أعلم– أن المراد من القارعة هو الصيحة التي تبعث الناس وتوقظهم في يوم (وقت) الخروج. واستخرجنا هذا المعنى من خلال المعاني اللغوية للفظ، ومن خلال القرآن نفسه، فالصيحة أمر شديد مباغت مرتبط بصوت. والصيحة تأتي فجأة وهي جد عظيمة، كما أنها صوت فتكون جامعة لمعان القرع.

فإذا تركنا اللغة ونظرنا في السورة الكريمة وجدنا أن القرع ارتبط بالبشر، وكيف أنهم يكونون في ذلك الوقت كالفراش المبثوث، وأن الجبال تكون كالعهن المنفوش. فإذا نحن نظرنا في بعض السور التي ورد فيها ذكر الصيحة وجدنا التالي: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ [سورة يس ,٤٩]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ [سورة يس ,٥٣]، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [سورة ق ,٤٢]، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [سورة النبإ ,١٨]

فتتحدث عن الصيحة العظيمة، التي ليس لها شبيه أو مماثل، والتي لا يستطيع أحد تصورها. ثم تكمل السورة المشهد للقارئ، فتذكر له ما يصاحب هذه الصيحة وما يترتب عليها، فتقول:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ[239] ۝٥﴾

ففي هذا اليوم يكون الناس في حيرتهم وتنقلهم من مكان إلى مكان بدون توجه واضح كالفراش المنتشر المتفرق[240]، وتكون الجبال[241] كالعهن، الذي فكك من بعضه حتى انتفش، ولم يعد هناك ترابط قوي بين أجزائه.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ[242] ۝٧﴾

فنلاحظ في هذه السور أن خروج الناس وانتشارهم بأشكال مختلفة مرتبط بالصيحة أو النفخ في البوق أو الدعوة، وهذا يكون بداهة في أول اليوم الآخر، والذي سماه القرآن الكريم "يوم الخروج"، فيكون هذا مرجحا لما نقول به. بل وإذا ذهبنا إلى سورة الحاقة والتي تبدأ بنفس الأسلوب التشويقي المثير، نجدها تذكر بعد تكذيب ثمود وعاد بالقارعة –ونلاحظ أن هذه السورة هي السورة الوحيدة التي قدم فيها ذكر ثمود على عاد مقترنين (ثمود وعاد) ومفترقين، بذكر حال كل منهما، فذكرت ثمود أولا!– تقول: "فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية" ومن المعلوم أن ثمود أهلكت بالصيحة! فيكون هذا مرجحا لقولنا. فمن المعلوم أن الطاغية هي الداهية والأمر الشديد المجاوز للحد، وهي لا تأتي إلا وصفا لموصوف، فلا يوجد شيء اسمه طاغ أو طاغية، بل هناك حاكم طاغ أو أمطار طاغية أو دول طاغية ... إلخ. ونلاحظ أن الله تعالى لم يذكر في هذه السورة موصوفا سابقا للطاغية إلا القارعة، فما المانع من أن يكون المراد من ذلك: "فأما ثمود فأهلكوا ب (القارعة) الطاغية؟ فيكون هذا نصا على أن الصيحة قارعة. وبغض النظر عن هذا، فإذا كانت الصيحة وصفت صراحة في الحاقة بأنها طاغية، فما المانع من أن توصف في سورة القارعة ب "القارعة"؟

[239] العهن هو الصوف ذو الألوان، والنفش معروف وهو فك الصوف عن بعضه بعضا حتى ينتفش.

[240] التشبيه بالفراش تشبيه عجيب، لا أعتقد أن أحدا شبه به الناس قبل القرآن. وفي هذا التشبيه إشارة بديعة عجيبة لحال الناس في ذلك اليوم، ففي هذا تلميح بديع إلى حالة الحيرة والتردد عند الناس. فأنا عندما كنت أتابع حركة الفراشات وأنا صغير كنت أعتقد أن الفراش مترددا!، –وذلك من خلال هيئة حركته– فبخلاف أن الفراش لا يطير في اتجاه محدد وإنما يطير في اتجاهات مختلفة، فالمرء يشعر بوجود رعشة أو ذبذبة معينة في حركة وطيران الفراش، مما يورثك شعورا بالحيرة والتردد، وكذلك يكون حال الناس يوم الخروج، لا يعرفون إلى أين يذهبون، فلا يأخذون اتجاها معينا بل يضطربون فيتقدمون ويتأخرون ويشرقون ويغربون، وهكذا حيرة وقلق واضطراب.

[241] العلاقة بين الناس والجبال في هذه السورة أنه بالقرع يحدث التفرع والتشتت والتطاير، فنجد أن البشر أصبحوا كالفراش المبثوث والمتطاير في كل اتجاه بلا نظام ولا هدف، وكذلك تكون الجبال –بعد الدك– كالعهن المنفوش القابل للتطاير في كل اتجاه، فلا يوجد أي ملجأ أو وزر للإنسان يرجع إليه أو يحتمي به، فليس أمام الإنسان إلا الحساب فيحاسبه الله عزوجل على ما قدم، فأما من ثقلت ...

فالإنسان الذي حوسب وثقلت موازينه، فسيكون من أهل الجنة، حيث يتقلب في عيشة راضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ[243] هَاوِيَةٌ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۞﴾

وعلى الطرف الآخر هناك من حوسب فخفت موازينه، فمآله ومرده إلى السقوط وإلى هاوية عظيمة، لا يستطيع الإنسان تصورها، فأمه هذه نار حامية، لا تطاق.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة التكاثر في فلك إلتهاء الإنسان بنعم الله، وكيف أن هذه الغشاوة سترفع وسيعلم اليقين.

وتعد سورة القارعة استكمالا للمشهد المذكور في آخر سورة العاديات، أما سورة التكاثر فتعد استكمالا للمحور الرئيس لسورة العاديات وهو كفران نعمة الله، فتبين

---

[242] المشتهر بين عامة المفسرين تفسيرهم!! "راضية" ب "مرضية"!، ولقد ذكر الإمام القرطبي رأيا حاول تجاوز هذا المأزق، فقال: "وقيل: "عيشة راضية" أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، ..." اهـ

لقد تخيّلواَ أنَّ العيشة هي اسمٌ لشيءٍ لا حقيقة له، أو هي اسمٌ منفصلٌ عن العائش أو هي اسمٌ لجمادٍ، فلا يمكن أنَّ تكون (راضية) لأنَّها غير عاقلة، وعليه فهي مرضية من قبل العائش. لكن هذه المفردة تتضمّن العائش لأنَّها مرتبطة به فهي ليست كأيِّ لفظٍ آخر، مثل (بستان) يموت صاحبه ويبقى هو، لأنَّ العيشة تنتهي بالعائش، فهي اسمٌ لحياة الكائن الحي العاقل وقد اقترنت قرآنياً بالخَلْقِ ذوي العقول والشعور والتمييز. فيمكن أنَّ تقول عاش الرجل عيشةً مرضيةً وعيشةً راضيةً. والتعبير الأول معناه أنَّ العائش راضٍ عن العيشة، ولكن ليس بمقدوره عدم الاهتمام بها، لأنّك بهذا التعبير قد فصلته عنها. فعيشتُهُ صارت مقابلةً له.. وإذن فهو ينظر لها ويهتمُّ بها وإن كان راضياً بها!. ولكن حينما تقول: (عاش الرجل عيشةً راضيةً) فقد صارت العيشة هي الراضية فخرج بذلك عن الاهتمام بها خروجاً كاملاً وصارت هي المهتمة به!. ولا توجد في الحقيقة عيشة على هذا النحو الأخير إلاَّ تلك التي يعطيها الربُّ العظيمُ لعباده الذين رضيَ عنهم.

[243] "أمّ" كما جاء في المقاييس: "هي الأصل، والمرجِع والجماعة والدين (...) قال الخليل: كلُّ شيءٍ يُضَمُّ إليه ما سواه مما يليه فإنّ العربَ تسمّي ذلك الشيءَ أُمّاً. ومن ذلك أُمُّ الرأس وهو الدّماغ." اهـ

وفي استعمال "الأم" إشارة إلى أن أصل هؤلاء وطباعهم نارية، فكأنهم بدخولهم النار قد رُدوا إلى ما كانوا منه في الدنيا، فعادوا إلى أصلهم وما يناسبهم.

السورة أن التكاثر قد ألهانا لدرجة عظمى، ولكن هذه الغفلة والالتهاء لن يستمرا وسيرفعان، ولو علمنا علم اليقين لرأينا الجحيم في الدنيا، وسنراها عين اليقين في الآخرة، وهناك سنسأل عن النعيم الذي غمرنا الله عزوجل به، فما أدينا حقه.

وكانت القارعة قد انتهت بقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ١١﴾، وتبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ فكأنها تقول: دخلتم النار لأنه ألهاكم التكاثر.

تبدأ السورة بقوله تعالى:



---

(244) على الرغم من وضوح المعنى فقد أورد المفسرون في تفسيرهم لمعنى التكاثر، احتمالات لا تتناسب مع السياق بأي حال، مثلما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره حيث قال: "والتكاثر التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب يقال: تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادلوا مالهم من كثرة المناقب، وقال أبو مسلم: التكاثر تفاعل عن الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعلة، ويحتمل تكلف الفعل تقول: تكارهت على كذا إذا فعلته وأنت كاره، وتقول: تباعدت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه، وتقول: تغافلت، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول: تباعدت عن الأمر أي بعدت عنه، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من إثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: ﴿... أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [سورة الكهف, ٣٤] ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله " اهـ والقول أن التكاثر بمعنى الكثرة فقط مردود بداهة، لأن هناك فارق في المبنى بين الاثنين، لذا فلا اعتبار لهذا القول، وأما مسألة أن التفاعل بمعنى التكلف فقول مُتكلف! لأن الله تعالى يقول أن التكاثر ألهانا، والشيء الذي يلهي يكون موافقا لطبيعة الإنسان حتى أنه يلهيه عن غيره من الأشياء بخلاف الشيء المُتكلَف!

فالله تعالى يخبرنا في هذه الآية بجانب نفسي عظيم من جوانب النفس الإنسانية، وهو أن الاستكثار مما جبل عليه الإنسان في طبعه! ونجد هذا الطبع في الطفل الصغير قبل الرجل الكبير! فنجد أن الطفل على الرغم من أنه قد يكون في يده لعبة أو لعبتان إلا أنه يريد أن يأخذ اللعب الأخرى الموجودة مع باقي الأطفال أو يريد أن يجمع باقي اللعب الموجودة والمتناثرة في الغرفة لتكون تحت يده. فالتكاثر مما فطر الله الناس عليه، لأن الإنسان يشعر في ذاته دوما وأبداً بالنقص، فيحاول أن يجبر هذا النقص لا شعوريا عن طريق الاستكثار مما قد يتملك، عله يجبر نقصه، وأنى له هذا! *ويدخل تحت هذه الآية كل أشكال وتحركات الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه البسيطة*، فالإنسان يريد أن يتكاثر فيبحث عن المرأة والعيال، ويريد أن يزيد ماله فيتجر، ويريد أن يصير ذا منعة فيبحث عن الأعوان والأصدقاء والمعارف، ويريد أن يزيد قوته وعافيته عن طريق منع أسباب المرض! ويريد أن يزيد من علمه الدنيوي، وبهذا نجد أن هذه الآية شملت كل ما يقوم به الإنسان منذ مولده إلى موته، لا يجاوزها قدر أنملة، فالإنسان في رحلة تكاثر، وإن لم يكن مكاثرا في أي مجال كان إنسانا خاملا لا غرض له في هذه الحياة!

(245) المعنى المتبادر إلى الذهن من زيارة المقابر هو زيارة المقابر! ولكنا نجد أن بعض المفسرين ذكروا أن المراد من زيارة المقابر هو الموت! وأول ما يلحظه المرء في هذه الآية أن الآية استعملت مفردة "المقابر" وليس "القبور"، وهي لم تستعمل إلا في هذه السورة فقط، وما عدا ذلك وردت "قبور" خمس مرات في القرآن كله.

فالله يقول للناس أنه ألهاهم التكاثر، فما من إنسان إلا وهو مشغول بشكل من أشكال التكاثر لا محالة! تكاثر المال أو العيال أو ... وكبر التهائنا لدرجة عظيمة، ووصلت غفلتنا عن الآخرة إلى أننا زرنا المقابر، وأصبحت المقابر مجرد مزارات فلم تعد محل عظة وتأثر وتذكير بالآخرة!

فلم يعد الموت دافعا لنا إلى التفكر في الآخرة وإنما أصبح حالة عادية! وحدثا مألوفا في حياة الإنسان لا ينشغل به باله، فكل إنسان مشغول بتكاثره ويظن أن الموت لن يأتيه أو أنه سيكون استثناء، ولكن الموت يأتي الجميع فينهي هذا التكاثر وتبدأ مرحلة التفتت والانحلال والإضمحلال!

ثم ينبه الله عزوجل هؤلاء الغافلين، فيقول:



ولقد نسب الله عزوجل الفعل حقيقة إلى فاعله وهو المخاطَب وهو بنو الإنسان، فلم نجعله من باب المجاز؟! فالإنسان الميت لا يزور القبر وإنما يُدخل فيه ويُحمل إليه. ثم كيف ننزع هذه الكلمة من السياق ونقول أن المراد من الخطاب في أول السورة هو كل البشرية أما في هذه الآية فالمراد منها من مات منهم؟! فما الدليل على التخصيص؟ ثم إن الآية التالية تعود فتخاطب نفس المخاطبين في الآيتين الماضيتين فتقول: "كلا سوف تعلمون"، فهل هذا الخطاب في هذه الآية والآيات التاليات إلى آخر السورة للأموات و الأحياء أم أنها للأحياء فقط؟!

ثم إن السياق العام يوجب أن يكون الفعل الموصوف به الإنسان على سبيل المبالغة في اللهو والغفلة هو من فعل الإنسان، أي أنكم غافلون لدرجة أن المقابر أصبحت مزارات بالنسبة لكم! أما أن يقال: ألهاكم التكاثر حتى متم كلا سوف تعلمون! فلا يستقيم المعنى بحال، ثم إن الفعل الوارد في الجملة هو فعل ماض مخبر عما حدث من الإنسان فعلا، فكيف أخاطب الإنسان بفعل لَمّا يحدث له بعد بصيغة الماضي؟ فيصبح هذا الخطاب مثل قولي لمن لم يدخل الامتحان بعد: ألهاك اللعب حتى أنك رسبت!

(246) هذه السورة مكية، وأنا أجزم بدون علم بتاريخ نزولها أنها من أول ما نزل من القرآن، فهي تعد بأن الله سيكشف هذا الإلهاء وأن هذا الكشف سيتكرر وهذا ما حدث فعلا، فنزل القرآن وتتابع حتى أتمه الله وعرّف به البشر مراد الله عزوجل منهم فكان هذا أول علم، وبالنسبة لنا فأول علم يكون ويحدث مع قراءة القرآن أما العلم الآخر الذي سيحدث بعد فترة فهو إما عند الموت أو في اليوم الآخر! وقيل أن المراد من ذلك أن الحدوث الأول سيكون عند الموت والثاني يوم القيامة! ولكن هذا القول بعيد، فلو كان المراد من العلم الأول هو حدوثه عند ساعة الموت فلا فائدة منه ولا من تكراره فإن الإنسان ميت ثم بعد ذلك مبعوث ليحاسب، فماذا ينفعه العلم إذا في الارتفاع عن هذا الالتهاء؟ أما مع القول بأن المراد من العلم الأول هو العلم عن طريق القرآن، وأن العلم الثاني يكون عند الموت أو البعث فيجده مطابقا للقرآن فيكون هناك فائدة من العلم.

أن هذه الغفلة عن حال الإنسان وغايته في الدنيا وكذلك الغفلة عن الآخرة لن تستمر بل ستُرفع، وسيعلم الإنسان كيف هو حاله في الدنيا وكيف هي الآخرة! وسيتكرر هذا العلم، مؤكدا لما جاء في العلم الأول!

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ[247] ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ[248] ۝٦﴾

ثم ينبه الله تعالى فيقول: إن علمكم هذا ليس هو من باب العلم الكامل المتيقن، بل هو علم لم يصل إلى مرحلة اليقين بعد، ولو علمتم علم ما في القرآن، وآمنتم به حق الإيمان، لما بقى عندكم أي شك ولرأيتم الجحيم الذي حُدثتم عنه في الدنيا. فالإنسان الذي يعلم علم اليقين يرى الجحيم عقلا (والرؤية صنفان بصرية وعقلية) ماثلا أمام عينيه، في كل فعل يفعله أو قول يتفوهه، من خلال وصفها في القرآن

---

[247] العلم كما جاء في المقاييس: "العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره. من ذلك العَلامة، وهي معروفة. يقال: عَلَّمت على الشيء علامة." اهـ

واختلف السادة المفسرون في المراد من علم اليقين، فقالوا كما أورد الإمام الفخر الرازي في تفسيره: "وجهان أحدهما: أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة، كقوله تعالى: ﴿... وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ ... ۝﴾ [سورة يوسف, ١٠٩] وكما يقال: مسجد الجامع وعام الأول، والثاني: أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة، وقد سمي الموت يقيناً في قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝﴾ [سورة الحجر, ٩٩]، ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت (!!!) وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله" اهـ

ونحن لا نوافق الإمام الفخر فيما ذكره، ونقول: نلاحظ أن الله تعالى أخبر أننا سوف نعلم، وكرر هذا الخبر، ثم عاد فأخبرنا أننا لو علمنا علم اليقين؟ فهذا يعني أننا لا نعلمه، فما هو هذا العلم اليقيني؟

علم اليقين هو والله أعلم القرآن الكريم! فالناظر يعرف أن العلم الوحيد، الذي يحتوي اليقين من حيث صحته وثبوته وثباته، هو القرآن الكريم؛ فكل ما جاء فيه هو من اليقين لذلك فهو علم اليقين!

[248] العجيب أن السادة المفسرين متفقون أو يكادون على أن جواب "لو" محذوف وليس هو "لترون الجحيم"، *وهذا مبني على التأصيل الفاسد بوجود محذوف في القرآن*، ونحن لا نقول بوجود أي محذوف في القرآن، لذا فإنا نقول أن الجواب هو "لترون الجحيم".

ونلاحظ أن الله تعالى قال "لترون الجحيم" ولم يقل "لترون الجنة" مثلا، وفي هذا إشارة إلى أن من عَلم عِلم القرآن رأى الدنيا على حقيقتها، ورأى فيها جحيما حاجبا للإنسان عن الجنة وعن الله عزوجل وأن النعيم الحقيقي هو في الجنة عند الله عزوجل، لذلك قال: لترون الجحيم! ولا يعني هذا أن الدنيا شر وإنما لأن الإنسان مهما كان مُنعّما في الدنيا فهو –مقارنة بما في الجنة– في جحيم. فالدنيا مليئة بالمصاعب والمتاعب والمشاق فهي جحيم، لذلك ورد في الحديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"، فالدنيا جحيم مرفوع في اليوم الآخر، إما إلى الجحيم الحقيقي أو إلى النعيم المُدام!

الكريم ويعلم كم هي عقاب أليم شديد للغافلين فيكون كل همه هو النجاة منها فيبتعد عن الغفلة واللهو.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ[249] ۝٨﴾

ويختم الله تعالى بقوله أن ما رأيناه عقلا في الدنيا (إذا علمنا علم اليقين ولم نكن من اللاهين الغافلين) سنراه في الآخرة حقيقة ماثلة أمام أعيننا، ولقد رأينا الجحيم في القرآن بأوصاف معينة، وسنأتي يوم القيامة فنجد الجحيم هي عين اليقين، نفس ما ورد في القرآن وكما رأيناها بعقولنا في الوصف القرآني، فلا شك فيها ولا جدال. وبعد هذه الرؤية فإنكم أيها المسكثرون اللاهون الغافلون مسؤولون عن النعيم.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة العصر في فلك شمول الخسران للإنسان بسبب التهائه.

وكانت سورة التكاثر قد تكلمت عن التهاء الإنسان بالتكاثر، فبينت سورة العصر أن هذا الفعل هو انغماس في الخسران، إلا الذين ...

﴿وَٱلْعَصْرِ[250] ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ[251] ۝٣﴾

---

[249] ليس في الآية أي إشارة أو ذم للنعيم، وإنما كل ما هنالك أن الله تعالى يقول أننا سنسأل عن النعيم، فإن كان من حلال بلا سرف ولا كبر ولا إلهاء فلا حرج، وإن كان غير ذلك ففيه كل الحرج!

فليكن فعلكم للتكاثر مُرتَهن بأنكم ستسألون عنه يوم القيامة، فليس الأمر هكذا متروك، وإنما له عاقبة وسؤال وعقاب، فمن عرف العقاب أحسن العمل، أما من أمن العقوبة أساء الأدب.

[250] لم ترد مفردة "العصر" في القرآن، إلا في هذا الموضع، واختلف المفسرون في المراد من "العصر"، فقيل أنه صلاة العصر! وقيل أنه وقت العصر المعروف، وقيل أنه بمعنى الزمن أو الدهر. ولا تميل النفس إلى جعل العصر دالا على الزمن كله ماضيه ومستقبله ونرى أن المراد من العصر *عصر الإنسان* على ظهر الكوكب، والذي هو عصر أمة الإسلام، فلقد أتت أمة الإسلام في

يقسم الله تعالى بالزمن الأخير قبل انتهاء اليوم على أن الإنسان لفي خسر، فليس هناك أي فرصة للتصحيح، إلا الذين آمن وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فبهذا يفوز جمعهم في العصر وبعد الغروب.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الهمزة في فلك ذكر مثال لخسران الإنسان، بتوعد من يحطم بالتحطيم.

إذا كانت السورة الماضية تدور في فلك خسران عامة الإنسان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأتوا بصنف من الأعمال الصالحة اللسانية وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر. فتبدأ هذه السورة بتابع للسورة الماضية كلها ومعكوس خاتمتها. فتبدأ بقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ فهؤلاء من الإنسان الخاسر على مر العصور، لأنهم أتوا بمذموم من أقوال اللسان وهو الهمز واللمز بدلا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر!

تبدأ السورة بقوله تعالى:

آخر يوم الدنيا، والذي هو فترة العصر، وستستمر إلى غروب وانتهاء هذا اليوم وبدء اليوم الآخر، فهي الأمة الأخيرة في الوقت الأخير، ففيها إشارة إلى قرب انتهاء اليوم، وإلى هلاك وضلال من لم يدخل في هذه الأمة، فعلى الإنسان المسارعة في العمل قبل أن تضيع الفرصة. وفي هذا إشارة إلى مثَل ملكوت السماوات الوارد في إنجيل متى في الإصحاح العشرين، والذي ورد بمعناه —مع اختلاف— عند البخاري، والذي قال فيه الرسول: «إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً، فقال: من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى المغرب بقراطين، فعملتم أنتم، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً! فقال الله (!!): وهل نقصت من أجركم شيئاً، قالوا: لا، قال: فهذا فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً».

(251) فيها إشارة بديعة، فأنت أخي لن تصبر طويلا، فنحن بعد العصر وسرعان ما سيأتي الغروب، وبعده ستنال الجزاء الحسن.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ[252] ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ[253] ٣﴾

---

(252) اختلفت أقوال المفسرين في تحديد معنى الهمز واللمز، ومن ذلك ما أورده الإمام الفخر الرازي، حيث قال: "المسألة الثانية: الهمز: الكسر قال تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ ... ١١﴾ [سورة القلم ,١١] واللمز: الطعن والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم، قال تعالى: ﴿... وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ... ١١﴾ [سورة الحجرات ,١١]، (...) وللمفسرين ألفاظاً أحدها: قال ابن عباس: الهمزة المغتاب، واللمزة العياب؛ وثانيها: قال أبو زيد: الهمزة باليد واللمزة باللسان؛ وثالثها: قال أبو العالية: الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب ورابعها: الهمزة جهراً واللمزة سراً بالحاجب والعين، وخامسها: الهمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون" اهـ

فإذا رجعنا إلى مقاييس اللغة وجدنا ابن فارس يقول: "الهاء والميم والزاء كلمةٌ تدلُّ على ضَغْطٍ وعَصْر. وهمَزْت الشَّيءَ في كفِّي. ومنه الهَمز في الكلام، كأنَّه يَضْغَط الحرف. ويقولون: همزَ بِهِ الأرض.وقوسٌ هَمْزَى: شديدةُ الدَّفعِ للسَّهم. والهمَّاز: العَيَّاب، وكذا الهُمَزَة. قال:

تُدْلِي بوُدِّيَ إذْ لاقَيتَنِي كذِباً   وإنْ أُغيَّبْ فأنت الهامزُ اللُّمَزَهْ

وَهمْزُ الشَّيطان كالمُوتَة تَغلِبُ على قَلْب الإنسان تَذهب به." اهـ

فإذا خبرنا استعمالها في المجسمات، يمكننا تحديد معناها في المعنويات، فنقول أن الهمز قريب من استعمالنا لكلمة الطعن في لغتنا المعاصرة، أي ويل لمن يطعنون الناس ويذمونهم بألسنتهم فتكون كلماتهم كالسهام أو الرماح التي تخترق جسم الإنسان.

فإذا نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يستعمل هذه الكلمة في أشكال مختلفة مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [سورة المؤمنون ,٩٧]، أي أعوذ بك مما يوسوسون به من أفكار وظنون، وقوله: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ [سورة القلم ,١١] فهؤلاء يضرون الناس بكلامهم الذي يحمل سهام العيب.

فإذا نظرنا في *اللمزة* وجدنا أن المعنى قريب، فابن فارس يقول في المقاييس: "اللام والميم والزاء كلمةٌ واحدة، وهي اللَّمْز، وهو العَيب. يقال لَمَزَ يَلمِزُ لَمْزاً. قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ... ٥٨﴾ [سورة التوبة ,٥٨]. ورجل لَمَّازٌ ولُمَزَة، أي عَيَّاب." اهـ

ولكنا نرى أن الفرق بين الهمز واللمز هو أن الهمز الطعن والذم صريحا كان أو إيحاءً، أما اللمز فهو العيب بالنقص والحط والتقليل من القدر، وأخذنا هذا التحديد من معكوس المعنى، فالزمل يدل على الحمل والتغطية والتعادل، ومن ذلك المزمل أي الذي يغطي نفسه بكثير من الملابس، ومنه المزاملة أي المعادلة على البعير. فإذا نحن عكسنا هذا المعنى وجدنا أن اللفظ يكون بمعنى الحط والتقليل من الشأن، أي أن أحط من قدر الإنسان ومن فعله كأنه لا يساوي شيئا!

ونلاحظ أن الله تعالى استعمل صيغة "فُعَلَة" والتي تفيد المبالغة ليدل على أن هذا الفعل ملازم لهم لا ينفصل عنهم، فليس الوعيد لمن همز مرة أو لمز أخرى، وإنما الوعيد لمن صار هذا حاله وديدنه، *فبدلا من أن يكون لسان عون يوصي الناس بالحق وبالصبر وبالمرحمة أصبح لسان سلق*، يعيب هذا ويقلل من شأن ذاك، ويعرض بفعل ونية الآخرين، وفي هذا الخطر العظيم على الفرد والمجتمع، فالإنسان يحتاج لمن يشكر له فعله، لا العكس حتى لا يحبط ويترك العمل.

(253) الذي أراه واستشعره من هذه الآية منذ صغري أن هذه الآية خبرية على سبيل الإنكار والتعجب!

ونلاحظ في الآية أن الله تعالى قال: *أخلده* ولم يقل: *يخلده*، إشارة إلى أن هذا الإنسان لا يظن أن المال سيحقق له هذا وإنما حققه له فعلا! فهو في حياته من الخالدين الذين لا يموتون! والآية تشير إلى جزء هام في نفسية أباطرة المال، وهي نسيانهم التام للموت وظنهم الخاطر أنهم سيخلدون، فهم وإن كانوا يعلمون أنهم سيصدق عليهم الموت لا محالة، ولكنهم ينسون هذا ويتصرفون على أساس أنهم مخلدون أبدا، ونلاحظ نفس هذه الحالة النفسية عندهم في سورة البلد، حيث يظنون أيضا أن لن

فيتوعد الله سبحانه وتعالى كل طعّان ذمام في الناس، ذلك الذي يعيب الناس وينقص من أقدارهم ومما يفعلون، فلا يعدها شيئا طاعنا في نواياهم، ذلك الذي جمع الأموال وكثّرها ونوّعها، فلم يقتصر على صنف واحد من أصناف المال وإنما جمع منها الكثير، فجمع المال والعقار والأنعام والذهب والفضة و كثير من أصناف المتمولات! ذلك الذي عظم عنده مقدار ماله وغناه لدرجة أنه يحسب أن ماله أخلده.

﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ[254] ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾

يقدر عليهم، أحد لأنهم أهلكوا مالا لبدا! فهم يحسبون أنهم وإن ماتوا جسدا فلقد خلدهم الموت في ذاكرة الناس، ولا يزالون يذكرونهم دوما بعظيم أفعالهم، فبذلك هم من الخالدين الذين لا ينسون، وينسون أن الخلود الحقيقي هو في العمل الصالح وفي الشهادة، وبهما ينال الإنسان الحياة الحقيقية عند الله، ويحصل على الثناء الخالص والذكر الدائم من الناس.

[254] *الحطمة كلمة غريبة الاستعمال بالنسبة للنار، لأنه من المعروف أن الحطم يدل على التكسير، فكيف تكسر النار، فالمفترض فيها أن تحرق أو تأكل*؟! ننظر أولا في أقوال المفسرين، من خلال ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره: "وأما {الحطمة} فقال المبرد: إنها النار التي تحطم كل من وقع فيها ورجل حطمة أي شديد الأكل يأتي على زاد القوم، وأصل الحطم في اللغة الكسر، ويقال: شر الرعاء الحطمة، يقال: راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم الماشية أي *يكسرها عند سوقها لعنفه*، قال المفسرون: الحطمة اسم من أسماء النار وهي الدركة الثانية من دركات النار، (...) واعلم أن الفائدة في ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه: أحدها: الاتحاد في الصورة، كأنه تعالى يقول: إن كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة. والثاني: أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى: وراءك الحطمة، وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبقي ولا تذر. الثالث: أن الهماز اللماز يأكل لحم الناس، والحطمة أيضاً اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم" اهـ

ولم يوضح الإمام الفخر الرازي –وعامة المفسرين كذلك– العلاقة بين النار والحطم.

ونثني بالمعاجم، فإذا نحن نظرنا في اللسان بحثا عن معنى الحطم، وجدنا ابن منظور يقول: "الحَطْمُ: الكسر في أي وجه كان، وقيل: هو كسر الشيء اليابس خاصَّةً كالعَظْم ونحوه. حَطَمَهُ يَحْطِمُهُ حَطْماً أي كسره، وحَطَّمَهُ فانْحَطَم وتَحَطَّم. والحطْمَةُ والحُطامُ: ما تَحَطَّمَ من ذلك. الأَزهري: الحُطامُ ما تَكّسّرَ من اليَبيس، والتَّحْطيمُ التكسير (...) *الحَطْمَةُ والحُطْمَةُ والحاطوم: السنة الشديدة لأنها تَحْطِمُ كل شيء، وقيل: لا تسمى حاطوماً إلا في الجَدْب المتوالي*." اهـ

وقبل أن نذكر العلاقة بين النار والحطم لا بد أن نركز على الفارق بين الحطم والكسر، فالكسر معروف وهو مثل قولنا: كسرت المائدة، أما التحطيم فهو التكسير إلى قطع صغيرة؛ وذلك مثل قولنا: حطمت الزجاج أو الخبز الجاف، وتصور الفارق بين الهيئتين في المائدة والزجاج تعرف الفارق بين المعنيين. إذا فالنار حطمة، ولكن كيف؟

كما لاحظت عزيزي القارئ فلقد ذكر الله تعالى في أول السورة قوله "همزة لمزة"، وهي على وزن *فُعلة*، والذي يفيد الشدة والمبالغة في التوصيف، وهنا استعمل الله عزوجل نفس الوصف مع النار، أي أنها تكسر تكسيرا شديدا، فيتحول من هذا التحطيم الكفار إلى فتات! *وكون النار حطمة شيء منطقي، فالمواد إذا وضعت في النار إما أن تنصهر –مثل الزجاج– أو تتيبس مثل الفخار! ونحن إذا وضعنا في النار أي مادة قابلة للتيبس في النار مثل الطين، فإنها من شدة الحرارة تتحجر، ومع ازدياد الحرارة فإنها لا تتوقف عند هذا التحجر وإنما يصل الأمر إلى مرحلة التفتت والتحول إلى تراب حار مرة أخرى.*

فيرد الله تعالى على هؤلاء الواهمين، معرفهم أن هذا الإنسان الذي ظن في نفسه الخلود بالذكر والشهرة سيُترك ويهمل في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، فهي عظيمة خطيرة، أكبر مما تتصور. إنها نار الله الموقدة، نار منسوبة إلى الله، وعظمة خلق الله على قدر عظمته! فكيف هذه النار العظيم الموقدة والتي لا تنطفأ؟! إنها نار مختلفة فهي تحطم من يكون فيها وتكسره.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ[255] ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾

وهذا ما سيحدث مع هذا الصنف من الكفار، فهؤلاء ستوقد عليهم النار في أماكن مخصوصة حتى تصل أجسادهم إلى درجة عظيمة من التيبس، ومع استمرار الإيقاد، فإن أجسادهم اليابسة لا بد أن تتفتت "تتحطم".

(255) الفؤاد معروف ومشتهر، *ولكن الذي لا يعرفه كثير من العرب المعاصرين أن الفأد أساسا بمعنى الشي والتوقد*، –وهذا مناسب بداهة للمشهد العام الذي تقدمه السورة– وفي هذا يقول ابن منظور في اللسان: "فأَدَ الخبزة في المَلَّة يَفْأَدُها فَأْداً: شواها. وفي التهذيب: فَأَدْتُ الخُبْزَةَ إذا مَلَلْتَها وخَبَزْتَها في المَلَّةِ. *والفَئِيدُ: ما شُوِيَ وخبِزَ على النار*. وإذا شوي اللحمُ فوق الجمْرِ، فهو مُفْأَدٌ وفئيد. والأُفؤُودُ: الموضع الذي تُفْأَدُ فيه. وفَأَدَ اللحمَ في النار يَفْأَدُه فَأْداً وافْتَأَدَه فيه: شواه. والمِفْأَدَةُ: السَّفُّودُ، وهو من فأَدت اللحم وافتأَدته إذا شويته. ولحم فَئِيدٌ أَي مشويٌّ. والفِئد: الخبز المفؤُود واللحم المَفْؤُود." اهـ

واختلف المفسرون في المراد من الاطلاع على الأفئدة، فقال بعضهم أنها تأكل الجسد حتى إذا وصلت إلى الفؤاد توقفت! وقال بعضهم أن المراد من ذلك أنها تدخل الجوف حتى تمس الفؤاد. ولكنا نرى أن السادة المفسرين قد أبعدوا النجعة إذ استعملوا الفؤاد بمعنى القلب! فالقلب عضو في جسد الإنسان، أما الفؤاد فهو دور هذا العضو، كما أن السمع هو دور الأذن والبصر هو دور العين، ولننظر في القرآن لنعرف كيف فرق القرآن بينهما: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [سورة النحل, ٧٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [سورة المؤمنون, ٧٨]، ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾ [سورة القصص, ١٠]

فنلاحظ أن الله تعالى يذكر الناس بنعمه عليهم وكيف أنه منحهم السمع والبصر والأفئدة، فيفهم من هذا بداهة أن الفؤاد ليس عضوا وإنما هو وظيفة القلب ودوره، أي أن القلب خلق ليتفئد، كما كانت الأذن للسمع. ويظهر الفرق الكبير بين الاثنين في آية القصص.

فعلى هذا الفهم لا بد أن يختلف تصورنا لهذه الآية، فالمفسرون فهموا أن المراد من الأفئدة القلوب، وقالوا أنها خصت بالذكر لأنها موطن العقائد، أما نحن فنقول أن الفؤاد أساسا ليس مادة وإنما هو "مجرد"، فكيف تتطلع النار على الأفئدة؟

قلنا مسبقا –في تناولنا لهذه السورة– أن الله تعالى ذكر وصفا ضروريا للنار وهو قوله "تتطلع على الأفئدة"، *فلم قلنا أن هذا الوصف ضروري*؟ إذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى عند وصفه للنار، وجدناه يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝٥٦﴾ [سورة النساء, ٥٦]

ففي هذه الآية نص على أن جلود الكافرين تنضج، وكلما نضجت تغير حتى يذوقوا العذاب، فكيف يذكر هنا أن النار سيحطم؟ فهل ستحرق أم ستحطم؟

ويعطي الله هذه الحطمة وصفا ضروريا، وهي أنها تتطلع على الأفئدة، فتعرف ما في قلوب من فيها، وعلى أساس ذلك يعذبون.

ثم يوضح الله عزوجل مقدار الضيق والعذاب الذي يكون فيه هؤلاء فيقول: "إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة" فهذه النار مؤصدة عليهم فليس هناك مخرج لهم منها، فهم يعانون ويقاسون حرها، داخل عمد تتمدد[256] من شدة حرارة النار، فكيف حال من بداخلها؟!

من أجل هذا كان الوصف بالإطلاع على الأفئدة ضروريا، فهذا النار تكشف ما في قلوب من فيها، وتعرف سبب عقوبة من فيها، فهذا عوقب من أجل كفره، وذلك من أجل نفاقه وهذا من أجل همزه ولمزه، فيكون لكل منهم صنف من العذاب. إذن فالتحطيم خاص بهذا الصنف من الناس لا يتعداهم إلى غيرهم من الذين يعذبون بالحرق فقط! ومسألة اطلاع النار على القلوب ليس غريبا، فالله تعالى ينسب إلى النار صفات العاقل، فيقول: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ [سورة الـملك ,٨]، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [سورة ق ,٣٠]، وغير ذلك من الصفات التي تشير إلى كونها تعقل، وهنا يضيف الله تعالى لها وصفا جديدا وهي أنها تكشف ما في قلوب المعذبين فيها، فينال كل منهم ما يستحق، حسب ما أضمر في فؤاده!

[256] سببت هذه الآية حيرة كبيرة للمفسرين، فلم يتصوروا كيفية كون الأعمدة ممددة! فقال الإمام الفخر الرازي عند تناوله لهذه الآية: "المسألة الثانية: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء، يقال: عمود البيت للذي يقوم به البيت. المسألة الثالثة: في تفسير الآية وجهان؛ الأول: أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب، وفي بمعنى الباء أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها، ولم يقل: بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها. والقول الثاني: أن يكون المعنى: إنها عليهم مؤصدة حال كونهم موثقين: في عمد ممدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص" اهـ

والذي نراه أن المراد من كون الأعمدة ممددة أمران: أولهما هو أن هذه الأعمدة ممدودة أي أنها غير منصوبة، فمن الشائع أن يكون العمود منصوبا وعليه يستند شيء، أما هذه الأعمدة فممدودة. وأما المدلول الثاني والمأخوذ من التضعيف في الكلمة فهو أن هذه الأعمدة تتمدد، فهذه الأعمدة لتعرضها للنار الشديدة تتمدد بفعل الحرارة. وبهذا يظهر أمامنا شكل آخر لتأثير النار فيما هو فيها، فهذه الأعمدة تتمدد ومن فيها ييبسون حتى يتفتتون! وبهذه الآية يمكننا أن نفهم شكل العذاب الرهيب الذي سيكون فيه هؤلاء الهمزة اللمزة، فهم محبوسون أو محاطون بالنار داخل عمد ممددة، تتمدد بفعل النار، والنار المؤصدة مؤصدة بالعمد فلا مخرج لها فتنصب عليهم وتتركز فلا تنفيس وإنما إيقاد حتى التفتت، وإذا كانت الأعمدة تتمدد بفعل النار فما بالنا بمن داخلها!

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الفيل في فلك ذكر مثال للتحطيم المذكور في سورة الهمزة.

فإذا كانت سورة الهمزة تكلمت عن تحطيم –تكسير إلى قطع صغيرة جدا– يحدث في النار، فإن هذا من المستغرب، فتأتي سورة الفيل لتقدم الدليل على ذلك في الدنيا، وهو ما حدث لأصحاب الفيل، فلقد أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة حارقة جعلتهم كعصف مأكول، تناثر وتطاير في الهواء، فهل يُستغرب وقوع ذلك في الآخرة؟!

وسورة الفيل هي تأكيد واقعي من القرآن على الغيبيات التي ذكرها في سورة الهمزة، فمن عادة القرآن أنه إذا ذكر غيبا أن يذكر نموذجا مبسطا مصغرا له في الدنيا، يُعرف القارئ أنه قد رأى وعرف عينة منه في الدنيا فما باله بما في الآخرة!

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ[257] فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ[258] ٢﴾

---

(257) نلاحظ أن الله تعالى قال: "كيف" ولم يقل "ما"، فهذا يؤكد أن محور السورة يدور حول الكيفية، كيفية الإهلاك، وهذا يؤكد ما قلنا به أن السورة تفصيل للسورة الماضية.

(258) جاء في المقاييس: "الكاف والياء والدال أصلٌ صحيح يدلُّ على معالجةٍ لشيء بشدّة، ثم يتّسع الباب، وكلّه راجعٌ إلى هذا الأصل. قال أهلُ اللُّغة: الكيد: المعالجة. قالوا: وكلُّ شيءٍ تُعالِجُه فأنت تَكِيدُه. هذا هو الأصل في الباب، ثم يسمُّون المَكر كيداً. قال الله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ... ٤٢﴾ [سورة الطور, ٤٢]. ويقولون: هو يَكيدُ بِنفسهِ، أي يجودُ بها، كأنَّه يُعالِجها لتخرُجَ. (...) والكَيد الحرب، يقال: خرجوا ولم يلقَوْا كيداً، أي حرباً." اهـ

ويفهم عامة المفسرين "تضليل" على أنها "ضلال"! ومن ذلك قول الإمام الفخر الرازي: "المسألة الثالثة: {فِى تَضْلِيلٍ} أي في تضييع وإبطال، يقال: ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً ونظيره قوله تعالى: ﴿... وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ٥٠﴾ [سورة غافر, ٥٠] (...) بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس، وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم" اهـ

وهذا مردود، لأن "ضلال" من "ضل"، و"تضليل" من "ضلّل"، وشتان بين الاثنين، ثم ما هو مدلول "في" في الآية؟! أنا أفهم الآية كما نستعمل جملة الدعاء الشهيرة: "واجعل كيدهم في نحورهم"، أو "جعلت اجتهادي أو تنافسي في رياضة" أي أن الله جعل كيدهم في تضليل، (بدلا من أن يكون كيدهم مثلا تقتيل)، فهم أتوا يريدون هدم الكعبة فقط –ولم يقصدوا التعرض لأهل مكة–، وهذا الفعل بداهة من وجوه تضليل الناس. وهذا من كيد الله عزوجل بهم. (لاحظ أنهم يكيدون أصلا، فجعل الله كيدهم في كذا، لا أن الله هو من جعلهم يكيدون ابتداءا)

فالله عزوجل يسأل النبي الكريم سؤالا تقريريا عن رؤيته كيفية فعله بأصحاب الفيل، وكيف أنه استدرجهم من حيث لا يعلمون، فأوردوا أنفسهم المهالك بأيديهم، عندما أرادوا أن يهدموا الكعبة، ليحولوا الناس إلى بنائهم.

﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ[259] ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ[260] ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ[261] مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾

---

(259) نحن نرى –والله أعلم– أن سبب التنكير في "طيرا"، أنها كانت صنفا واحدا وليس صنوفا مختلفة، كما يمكن أن تكون هذه الطيور غير معروفة.

وأما "أبابيل" فلا نزيد فيها عن السادة المفسرين، ونقف نفس الموقف غير قادرين على الجزم بمدلول محدد، ونعرض لغيرنا ما قاله الإمام الفخر الرازي بشأن الأبابيل: "ما الأبابيل؟ الجواب: أما أهل اللغة قال أبو عبيدة: أبابيل جماعة في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل أبابيل من ههنا وههنا، وهل لهذه اللفظة واحد أم لا؟ فيه قولان: الأول: وهو قول الأخفش والفراء: أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد، لا واحد لها. والثاني: أنه له واحد، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه؛ أحدها: زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة، وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة؛ وثانيها: قال الكسائي: كنت أسمع النحويين يقولون: إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل؛ وثالثها: قال الفراء: ولو قال قائل: واحد الأبابيل إيبالة كان صواباً كما قال: دينار ودنانير ." اهـ

وندعو أهل الخبرة ليدلو بسجْلهم في الكلمة!

(260) العجيب أن كثيرا من المفسرين مصرون على أن الحجارة كانت صغيرة جدا! فكان أصغرها مثل العدسة وأكبرها مثل الحمصة! ولست أدري هل تسمى هذه الأحجام حجارة أم حصي؟!!

ولي وقفة مع "سجيل" التي لم يشف المفسرون فيها صدورنا، فإذا نحن نظرنا في أقوالهم، لا نجد تحديدا أو قولا واضحا فيها، ومن ذلك قول الإمام الألوسي: "{مّن سِجّيلٍ} صفة حجارة أي كائنة من طين متحجر معرب سنك كل، وقيل هو عربي من السجل بالكسر وهو الدلو الكبيرة ومعنى كون الحجارة من الدلو أنها متتابعة كثيرة كالماء الذي يصب من الدلو، ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وقيل من الاسجال بمعنى الإرسال والمعنى من مثل شيء مرسل ومن في جميع ذلك ابتدائية، وقيل من السجل وهو الكتاب، أخذ منه السجين وجعل علماً للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، والمعنى من جملة العذاب المكتوب المدون فمن تبعيضية" اهـ

فبعد كل ما كتبه الإمام الألوسي لا يخرج المرء بأي تصور واضح. فإذا قصدنا المعاجم علها تعطينا تصورا عن اصل الكلمة، ألفينا ابن فارس يقول في المقاييس: "السين والجيم واللام أصلٌ واحدٌ يدلُّ على انصبابِ شيءٍ بعد امتلائِهِ. من ذلك السَّجْل، وهو الدَّلو العظيمة. ويقال سَجَلت الماءَ فانسجَلَ، وذلك إذا صَبَبْته. ويقال للضَّرْع الممتلئ سَجْل. ..."اهـ

ونقول: سجيل صيغة مبالغة من السجل، مثل سكير صيغة مبالغة من السكر، أي أن هذه الحجارة من شيئ كثير الصب وهو من الطين، –كما ورد في الذاريات– فهل يمكننا أن نقول أن المراد من السجيل هو البركان؟! فأوصاف البركان تتشابه تماما مع المعروف في الآيات، فهو ممتلئ بالحمم يسجلها على ضفافه، وهي تكون سائلة في أول أمرها ثم تصبح بعد ذلك حجارة جافة، فهل تكون الحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل كانت حجارة من بركان من البراكين؟! الله أعلم، هذا اجتهاد منا في فهم السجل.

(261) العصف معروف وهو ما تعصفه الريح، سواء كان تبنا أو بواقي أوراق الشجر، المهم أنه فتات صغير تذروه الرياح.

فأرسل الله عزوجل عليهم طيرا أسرابا متتابعة شديدة عظيمة الخلقة، أخذت هذه الطير ترميهم بحجارة كبيرة حارقة. فجعلهم سبحانه كعصف أكلت منه الدواب وبُعثر ونثر، فلا يهتم به أحد.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة قريش في فلك تعليل ما فعله الله في سورة الفيل. فإذا كان الله قد تحدث عن إهلاك أصحاب الفيل، فإنه يبين في سورة قريش أن فعله هذا كان لإيلاف قريش. وكيف أن عليهم أن يعبدوه مقابل ما يقدمه لهم. —وما يصدق على قريش يصدق على كل البشر والخلق– تبدأ السورة بقوله تعالى:


﴿لِإِيلَٰفِ[262] قُرَيْشٍ[263] ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ[264] ٢﴾

---

[262] الألف أصل يدلُّ على انضمام الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة أيضاً! فإذا نحن نظرنا إلى الأصل الذي أتى منه ال "إيلاف" وجدنا أنه "آلف" وهو بمعنى التصيير ألفا، والألف في اللغة تأتي بمعنى العدد المعروف وكذلك إشارة إلى الكثرة، فكما نعرف فإن الألف هو آخر الأعداد العربية ثم بعد ذلك يُكرر، فيقال ألف ألف و ألف ألف ألف وهكذا! فيكون المراد والله أعلم أن الله فعل ذلك لتكثير قريش ألوفا مؤلفة.

فالمراد من الإيلاف هو التكثير عن طريق ضم الشيء إلى بعضه مع وجود التوافق والتآلف بين المضموم والمضموم إليه، فإذا لم يكن هناك توافق لا يسمى تأليفا!

[263] ما المراد من قريش؟ قد يعجب القارئ عندما يقرأ هذا السؤال، لأن *قريش* كما هو معلوم هو اسم قبيلة الرسول الكريم. ونحن نعرف ونقر أن قريش هو اسم قبيلة الرسول، *ولكن الأسماء المذكورة في القرآن لها دلالتها المستقلة حيث تتطابق مع الدور والغرض الذي جاءت من أجله على الرغم من كونها أسماء!* فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "القاف والراء والشين أصلٌ صحيح يدلُّ على الجمع والتجمُّع. فالقَرْش: الجمع، يقال تَقَرَّشُوا، إذا تجمَّعوا. ويقولون: إنَّ قُريشاً سمِّيت بذلك. والمُقَرِّشة السَّنة المَحْل، لأنَّ النّاسَ يضمُّون مواشِيَهم. ويقال: تقارَشَت الرِّماح في الحَرْب، إذا تداخَلَ بعضُها في بعض."اهـ وفي اللسان: "القَرْشُ: الجمع والكسبُ والضم من ههنا وههنا يضم بعضه إِلى بعض. ابن سيده: قَرَشَ قَرْشاً جَمَعَ وضمَّ من هنا وهنا، وقَرَشَ يَقْرِشُ ويَقْرُشُ قَرْشاً، وبه سميت قُرَيش (...) وقيل: سميت بذلك لتَجْرِها وتكسُّبها وضَرْبِها في البلاد تَبْتَغي الرزق، وقيل: سميت بذلك لأَنهم كانوا أَهلَ تجارة ولم يكونوا أَصحابَ ضَرْع وزرْع من قولهم: فلان يَتَقَرَّشُ المالَ أَي يَجْمَعُه."اهـ

إذن فقريش اسم لقبيلة ولكنه أيضا متطابق مع مدلوله؛ فهو يدل على الضرب في الأرض والتجارة والاكتساب، وهذا هو الوصف الذي جاء في السورة لهذه القبيلة، حيث أنها تتجر وتكتسب. فتأمل تطابق المعنى مع المراد الإشاري للاسم!

[264] من المعروف أنه كان لقريش رحلتان، رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشام! وكانوا يتجرون ويكتسبون في هاتين الرحلتين لأنهم أهل قرش! ولي في مسألة رحلة الشتاء والصيف هذه قول آخر، حيث *أرى أن المراد من رحلة الشتاء*

فالله يقول أنه فعل ما فعل بأصحاب الفيل من أجل تكثير قريش، وتأليفهم وتوافقهم، حيث يكثرون ويزيدون برحلة الشتاء والصيف.

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

لذلك يأتي الربط المنطقي بعد ذلك وهو قوله تعالى "فليعبدوا"، فإذا كان الله هو الذي خلقهم هم وغيرهم وكثّرهم وأوجد لهم اختلاف الزمان وما فيه من فوائد وأهمية في التجارة والكثرة فمن الواجب عليهم أن يعبدوه!

ونلاحظ أن الله تعالى قال "رب هذا البيت" ولم يقل "الله أو الرحمن" وذلك والله أعلم لارتباط السورة بالسورة الماضية، حيث أراد أبرهة هدم البيت فحفظه الله وصانه، فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي كرموا من أجله وبه شرفهم وعزهم.

ثم يواصل الله تعالى ذكر نعمه عليهم، فيذكرهم سبحانه بأنه كفل لهم أهم احتياجين من احتياجات الإنسان الأساسية وهما الطعام والأمن، ومن توفر له هذان العنصران الأساسيان فعليه أن يقوم بالعنصر الثالث وهو: "التقديس" والعبادة[265]!

والصيف هو تلك الرحلة الكونية التي يقوم بها كلا من الشتاء والصيف في دورانهم وانتقالهم حول الأرض، فهما في رحلة واحدة يتبع بعضها بعضا، وهذه رحلة زمانية تتكرر كل عام فلم ولن تنقطع إلى قيام الساعة.

والذي يرجح هذا القول هو قوله تعالى "رحلة" وأنه لم يقل "ارتحال"، والرحلة هي عملية الانتقال نفسها، كما أنه قال "رحلة" ولم يقل "رحلتي" ومن المعروف أن رحلتي الشتاء والصيف القريشيتين كانتا منفصلتين، بخلاف رحلة الشتاء والصيف المتصلتين بالفصلين البينيين الخريف والربيع! وهي وإن كانت للعالم كله، إلا أن الله تعالى يُذكر قريشا بنعمه عليهم، فيذكرهم بنعمة اختلاف المناخ حرا وبردا، وكيف أن اختلاف المناخ هذا يساعد على إنبات ثمار وزروع وأطعمة مختلفة، كما يؤدي إلى اختلاف السلع وتنوعها، فلو ظل الناس في جو واحد لكانت هناك سلعة واحدة ثابتة لا تتغير!

(265) يمكننا القول أن سورة قريش حوت ترتيبا عجيبا لحاجات الإنسان سبقت به ترتيب *ماسلو* المادي، حيث أتت بالركنين الأساسيين وهما الطعام (الركن البيولوجي) والأمن (الركن النفسي)، وجعلت التقديس ناتجا منطقيا لهما.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الماعون في فلك علامات المكذب بالدين وتوعده.

وكانت سورة قريش قد تكلمت عن نعمة الله على خلقه بأن أطعمهم وآمنهم، فتحدثت السورة هنا عن كيف أن الخلق لا يقومون بالمماثل مع إخوانهم. ولم يقتصر الأمر على التعامل مع الخلق، وإنما تعداه إلى العلاقة مع الخالق، فهم يصلون وهم ساهون ويراءون الناس في أعمالهم، ويمنعون وصول المعونات إلى المحتاجين.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ[266] ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ[267] ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ[268] ۝٣﴾

فتنبه الرسول الكريم إلى علامة وأمارة المكذب بالدين، فليس الدين مجرد مظاهر وشعائر تؤدى، وإنما يظهر إيمانه في أفعاله، فإيمانه يؤدي لا محالة إلى مراعاة الآخر والعطف عليه، وكذلك يظهر تكذيبه في أفعاله وفي قسوته، فإذا كان ممن يغلظ معاملة اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فهو من المكذبين وإن كان ممن يؤدون الشعائر ويحافظون على المظاهر.

[266] تبدأ السورة باستفهام غير منفي، لأنه يسأل عن شيء غير ظاهر وقد لا ينتبه إليه الرسول أو المؤمن، فبهذا السؤال ينبهه ويعطيه إجابه عنه ويعرفه به.

[267] جاء في اللسان: "دَعَّه يَدُعُّه دَعًّا: دَفَعَه في جَفْوة، وقال ابن دريد: دَعَّه دَفَعَه دَفْعاً عنِيفاً. وفي التنزيل: فذلك الذي يَدُعُّ اليَتيم؛ أَي يَعْنُفُ به عُنْفاً دَفْعاً وانْتِهاراً، وفيه: يومَ يُدَعُّون إِلى نار جهنَّم دَعًّا؛ وبذلك فسره أَبو عبيدة فقال: يُدْفَعُون دَفْعاً عَنِيفاً. وفي الحديث: اللهم دُعَّها إِلى النار دَعًّا." اهـ

[268] نلاحظ استمرار الحديث عن اليتيم والمسكين، كما في الفجر والبلد والضحى.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ[269] ۝٧﴾

ثم يتوعد الله عزوجل أولئك المؤدين للشعائر، والذين يؤدونها فقط كطقوس لا أكثر، فهم ساهون عنها ولا يستشعرونها، ثم هم لا يبتغون بها وجه الله، وإنما يراءون الناس، وفي الخفاء هم مانعون للخير حتى ولو كان يسيرا لا يُذكر، كالأوعية.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الكوثر في فلك شكر نعمة الله تعالى على القرآن والنصرة.

---

[269] اختلف المفسرون في المراد من الماعون، ويعرض الإمام الفخر هذا الاختلاف، فيقول: "فيه أقوال: الأول: وهو قول أبي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك: هو الزكاة، وفي حديث أبي: «من قرأ سورة أَرَأَيْتَ غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً» وذلك يوهم أن الزكاة، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين، أن الماعون اسم لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغني، ينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم، ويدخل فيه الملح والماء والنار. فإنه روي: «ثلاثة لا يحل منعها، الماء والنار والملح» ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم، وأصحاب هذا القول قالوا: الماعون فاعول من المعن. وهو الشيء القليل (...) والقول الثالث: قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون هو الماء." اهـ

فإذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الميم والعين والنون أصلٌ يدلُّ على سهولةٍ في جريان أو جري أو غير ذلك. ومَعَن الماءُ: جَرَى. وماءٌ معينٌ. ومجارِي الماء في الوادي مُعْنانٌ، كذا قال أبو بكر. والمَعْنة ماءٌ قليل يجري. ومن الباب أمعَنَ الفرسُ في عَدْوِه. وأمْعَنَ بحقِّي: ذهَبَ به. ورجل مَعْنٌ في حاجته: سَهْل. وأمعنت الأرضُ: رَوِيَتْ. وكلأٌ مَمْعونٌ: جَرَى فيه الماء."اهـ

فكما رأينا فأكثر ما أورده ابن فارس يدور حول الماء، وفي الكتاب العزيز نجد قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [سورة الـملك ,٣٠] فيرجح هذا أن يكون للماعون علاقة بالماء. والماعون اسم على وزن "فاعول" وهي من الأوزان التي عدها الصرفيون في اسم الآلة، مثل: ساطور وناطور.

ولقد قال المفسرون أن الماعون هو اسم لما لا يُمنع عادة، ولكنا نخصص فنقول: نحن نرى –والله أعلم– أن الماعون كان في الأصل اسم للإناء الذي يوضع فيه الماء المأخوذ من المعين، –ومشهد السيدات الحاملات لأوعية الماء بعد ملوها من النهر معروف ومثبت في لوحات شهيرة– ثم أُطلق بعد ذلك على عامة الآنية.

ونحن في مصر نستعمل الكلمة في الجمع فقط، فنقول: "مواعين"، ولا نكاد نستعمل المفرد.

وكانت سورة الماعون تكلمت عن السهو في الصلاة والمراءة في الأعمال، والإغلاظ في معاملة اليتيم والبخل، فتتحدث سورة الكوثر عن معكوس هذه الأوصاف، فتأمر بإخلاص النية في الصلاة والعبادة والذبح لله، -والذي سيصل إلى اليتيم والمساكين والمحتاجين-، لأن الله تعالى أعطى النبي الكريم الكوثر -القرآن- ونصره فبتر مبغضيه المعادين له ونصره عليهم.

تبدأ السورة بقوله تعالى:



[270] الكوثر يدل على الكثرة، وهو موجود في صيغة "فوعل" وهي صيغة غير مألوفة استعمالا، فما هو مدلول *فوعل*؟
صيغة فوعل صيغة تدل على الأصل والمصدرية – بالمعنى الطبيعي الموردي وليس اللغوي- الذي يُتفرع عنه وينبع منه! فلو قال الله تعالى للرسول الكريم: "إنا أعطيناك الكثرة أو الكثير" لكان هذا لا يدل على أن الرسول هو أكثر من أخذ أو على عظم ما أعطاه، بل لا يمنع أن يكون هناك من أُعطى أكثر منه، فالكثير كثير وجوده، فقد يكون معك كثير ومعي كثير ولا يوجد ما يمنع هذا. ولو قيل: "إنا أعطيناك أكثر" لكان في هذا مقارنة بين النبي الكريم وغيره، وفي هذه الحالة لا يوجد ما يمنع أن يكون هناك من يقاربه، ولكن الرسول الكريم زاد عنه في بعض الجوانب! أما عندما يقول الرب القدير للنبي الرحيم أنه أعطاه الكوثر فكأنه يقول له : *إنا أعطيناك ما لم نعط أحدا من البشر فلقد أُعطيت الأصل، وما عداك فهو آخذ للفرع!* فما هو الكوثر؟
اختلف العلماء في المراد من الكوثر وحق لهم أن يختلفوا فهو لفظ عام أصل! فقيل أن الكوثر نهر في الجنة، وبداهة سيكون للنبي الكريم بعد موته، وهذا القول مستبعد بعض الشيء لكون النبي الكريم لم يأخذه، فكان من الأولى أن يُقال: "إنا وهبناك أو جعلنا لك"، أما أن يقول: "أعطيناك" مع نهر فبعيدة بعض الشيء، كما أنه يطلب إليه أن يصلي لربه وينحر كرد فعل على هذا العطاء، وعلى الرغم من أن وعد الله متحقق لا محالة، وهو أصدق مما يراه الإنسان بعينيه التي في رأسه، فإن الله تعالى أكرم منا كلنا، فلا يعد بعطاء شيئ في الآجل ثم يطلب الشكر عليه في العاجل. كما أن الصيغة الواردة في الآية هي صيغة الماضي، فالأولى هو حمل الزمن عليه، إلا أن يدل دليل في النص نفسه على أنه في غير ذلك. إذا فكون الكوثر نهر في الجنة بعيد، وكذلك لنفس الأسباب يبعد ما قاله الشيعة؛ من أن المراد من الكوثر هو الذرية الكثيرة التي جاءت للنبي الكريم عن طريق ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها وعن زوجها، حيث قالوا أن المراد من الكوثر هو الذرية، وهذا يقابل ما جاء في آخر السورة وهو قوله تعالى "الأبتر"، فإذا كان شانئ النبي الأكرم أبتر فإنه ذو كوثر! ولكن هذا أيضا بعيد لكونه لم يتحقق في زمن النبي الكريم كما أنه لم يُعطه! وقيل أن المراد من الكوثر النبوة، وقيل وقيل، ولكن الأوصاف كلها لا تنطبق مع عنصر الأصلية والثبات اللذان ينبغي توفرهما وحصولهما في الكوثر، وهذا ما لا يكون فيما ذكروه، كما أن المعاني الغيبية التي ذكروها لا يمكن التحقق من صدقها في الدنيا، فلا تكون وجه إثبات، فما المعنى أن يقول الرسول لأهل مكة: إن الله أعطاني نهراً في الجنة أو الشفاعة أو ...، فهل رأوا من ذلك شيئا؟ فإذاً لم يتحقق التطابق بين المعاني المذكورة وبين الكوثر، فما هو المراد من الكوثر؟
الذي نراه والله أعلم أن المراد من الكوثر هو القرآن الكريم، فهو الذي ينطبق عليه وصف الكوثر أيما انطباق فهو أصل الخير وجِماعه، كما أنه في استمرار و زيادة إلى يوم القيامة فلا ينقطع ولا يذهب، فهو وإن ثبت مبناه إلا أن معانيه في ظهور وجلاء وزيادة، وكلما مر الزمان اكتشف الناس معان عظيمة لهذا الكتاب الرباني، فإذا حدث وأخطأ بعض الناس في تأويله يظل كما هو بدون تأثر إلى أن يظهر تأويله السليم بإذن الرب العليم. *والناظر يعلم أن أكبر نعمة أنعمها الله على رسوله كانت هي كتابه*، لذلك

فالله تعالى يذكر نعمته للرسول الكريم بأنه أعطاه القرآن الكوثر على يد الملائكة، ولقد صدق هذا الخبر حتى وفاة الرسول الكريم، فاستمر الكوثر في الزيادة حتى تم فلم يقدر أحد من العرب على قتل الرسول حتى يضيع القرآن أو ينقص، وفي آخره نزل قوله تعالى: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ... ۝٣﴾ [سورة المائدة ,٣]، فثبت أن الكوثر أُعطي كاملا وكل الناس على ذلك شاهدون، فثبت بالواقع والمشاهدة أن الخبر الأول كان – ولا زال – صادقا في وقته وبعده حتى قيام الساعة.

﴿فَصَلِّ[271] لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ[272] ۝٣﴾

كان من الأولى حمله هنا عليه، فكما قال الله تعالى في سورة الضحى "وأما بنعمة ربك فحدث" أي فحدث بالقرآن ولا تخف. فالنبي أُعطى القرآن في الماضي وليس في المستقبل، فهو متفق مع زمن الآية، كما أنه كان مستمرا في الزيادة في زمن النبي الكريم، فهو لم يُعطه مرة واحدة وإنما أُنزل على مرات متفرقات ليثبت به قلب الرسول الكريم.

(271) نلاحظ أن الله تعالى جعل الصلاة كرد فعل للعطاء مع أننا نتكلم من أول السورة على الشكر! لأن الصلاة تشتمل الشكر ومعان أخرى كثيرة لا يحيط بها الشكر، فقد يُسدي إليّ إنسان خيرا فأشكره، أما الله تعالى عندما يعطي النبي وعندما يأمره بالرد فهو لا ينتظر منه الشكر وإنما ينتظر منه ردا يكون بقدر مقدار النبوة وبمقدار المعطي! فالنبي بصلاته لربه يعلن خضوعه وعبوديته للرب القدير وأنه لم يخرج عن ذلك النطاق فهو لا يزال ذلك العبد الراجي رحمة ربه العابد له، الباسط يديه له . *كما أن في الصلاة إشعار لعدم استغناء* الرسول الكريم عن ربه، فلربما يظن ظان أن الرسول الكريم إذا أُعطي أصل الخير فشكر، أنه ربما يستغني عن ربه – معاذ الله– ولكن بالصلاة يقدم الرسول البراهين على احتياجه لربه ولعبوديته له في كل حال.

كما نلحظ أن الله تعالى قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [سورة الكوثر ,٢]، ولم يقل: "فصل وانحر لربك"، وليس لهذا الأمر علاقة بالفاصلة أو ما شابه، وإنما ارتباط هذا الترتيب بالمعنى المراد، فلما قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [سورة الكوثر ,٢] عُلم أن الصلاة لا تكون إلا لله تعالى، أما النحر فيكون لله تعالى *ولكنه يصل إلى الناس*، ولو قال "فصل وانحر لربك" لكان معنى هذا ألا يصل شيء من الذبائح إلى الناس، وهذا ما لا يريده الله تعالى ولا يرضاه وإنما هو يريد الشكر والتقوى من الناس، لذلك قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [سورة الحج ,٣٧].

(272) لمّا كانت الآية خطابا للرسول الكريم ذكر المفسرون لها أسباب –مناسبات– نزول مختلفة، ولم يتفقوا على سبب نزول واحد، والأسباب كثيرة أشهرها الرواية التالية كما جاء في تفسير الإمام الفخر الرازي : "وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول: إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه" اهـ

وبغض النظر عن صحة هذا السبب أو غيره من الأسباب التي ذكروها، فإن الآية عامة *تقدم قانونا عاما في التعامل مع الرسول الكريم ونبوءة صدقها الزمان ولا يزال يصدقها*. فالآية تقول للنبي الكريم: "إن شانئك هو الأبتر" والكلمة الوحيدة التي قد تغيب عن القارئ في هذه السورة هي قوله تعالى "شانئك"، فما هو الشنآن؟ إذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الشين والنون والهمزة أصلٌ يدلُّ على البِغضة والتجنُّب للشيء. من ذلك الشَّنُوءَة، وهي التقزُّز؛ ومنه اشتقاق أَزْدِ شَنوءة. ويقال: شَنِئَ فُلانٌ فلاناً إذا أَبغَضَه." اهـ

وبعد أن ذكر الله تعالى لنبيه نعمته، يأمره بشكر نعمته التي أعطاها، فيأمره أن يُصلي لله تعالى فقط فلا يصلي لأي معبود آخر، كما أن عليه أن يراعي الله عزوجل في صلاته هذه فلا يُراءي بها أحدا!

وبعد أن يصلي الرسول لربه يقوم فينحر، والنحر معروف وهو الذبح لله تعالى، فالرسول يعلن شكره لربه بشكلين اثنين وهما: الصلاة؛ فهذا فعل بينه وبين ربه، وهناك النحر وهذا فعل علني يظهره الرسول للناس، ويوضح لهم به مقدار فضل الله تعالى عليه، وبذلك يجعلهم هم أيضا يحمدون الله تعالى ويشكرون على نعمه وآلائه.

وكما أنعم الله عليك بالعطاء، ينعم عليك بالمنع، فيمنعك فلا يصل إليك أحد بالسوء، ومن يبغضك ويظهر عداوتك هو الذي لا يتم له خير، ثم يهلك متبرَؤ منه، أما أنت فقد أعطيت الخير كله، أعطيت الكوثر!

والشنآن وارد في كتاب الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [سورة المائدة ,٨]

إذا فالشنآن بمعنى البغض، ولكنه لا يكون إلا في البغض الظاهر المؤيد بالأفعال، أما البغض القلبي فليس لأحد إطلاع عليه إلا ربه، كما أنا لا نحاسب الناس على ما في قلوبهم. أما الأبتر فهو من البتر، وهو معروف، وهو كما جاء في المقاييس: "الباء والتاء والراء أصلٌ واحد، وهو القطع قبل أن تتمَّه. والسيفُ الباتر القَطَّاع. ويقال للرجُل الذي لا عقِب له أَبتَر. وكلُّ من انقطع من الخَيْر أثرُه فهو أَبْتَر..." اهـ

ونحن نرى أن المعنى أشمل مما ذكره المفسرون، فالإنسان الذي يبغض الرسول الكريم ويُظهر هذا الشنآن فإن الله تعالى يجعله هو الأبتر أي الذي لا نصير له ولا معين، و البتر كما جاء في اللغة هو القطع قبل التمام، فلا يحصل لهذا الشانئ تمام نعمة وكمالها بل تنقطع عنه ولا تستمر أبدا. *وفي هذا التحديد لمعنى البتر الرد على من يقول أن هناك من يشنأ الرسول وهو ليس مقطوعا من الخير*. وهذا الاعتراض هو على قول المفسرين الذين جعلوه ممنوعا من كل خير، أما نحن فنأخذ بالمعنى اللغوي الأصل للكلمة وهو الانقطاع قبل التمام فلا تتم عليه النعمة في حياته بل تبتر، كما أنه هو نفسه يصير أبترا تماما بعد موته فينقطع عن ذكره وأثره أي وجه من وجوه الخير بل يُنسى ويهمل في مزابل التاريخ، وهذا ما حدث بالفعل مع معاندي النبي الكريم ومحاربيه!

والناظر في التاريخ يجد أن هذه النبوءة تحققت ولا تزال تتحقق، فمن كان يضمن للرسول أن لا يموت قبل اكتمال رسالته ومن يضمن للرسول استمرار هذا التحقق بعد موته وعدم اندثار دينه الذي أتى به وذهابه طي النسيان في صفحات التاريخ، كما ضاع من قبله من ضاع؟! ليس هناك ضامن بشري لذلك، ولكن إن هذه نبوءة ربانية ولا بد من تحققها كما أخبر بها، وفي هذا التحقق إثبات لصدق السورة وآية على رحمانيتها.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الكافرون في فلك إعلان الاختلاف عن الكافرين وتميز الأديان.

وكانت سورة الكوثر قد تكلمت عن الإخلاص لله عزوجل وإفراده بالعبادة، وإعلان اندحار المخالفين وظهور الإسلام، وتأتي سورة الكافرون فتعلنها صراحة، براءة مما سوى دين الله من الأديان، فلكلٍ دينه، فلا إكراه في الدنيا، ولن يتحول الكافرون إلى الإيمان أبدا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [سورة البقرة ,٦]، وسيظل الرسول على إخلاصه لله تعالى ولدينه.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ[273] ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾

---

(273) نحن كمسلمين حفظنا القرآن من صغرنا لا نستغرب هذا الخطاب، ولكن العالم باللغة وبطبع الإنسان يعلم أن في هذا الخطاب شدة على المخاطب وإغلاظ في القول، فعندما يقول الإنسان لآخر: يا أيها الفاسق أو الكافر، فسينفر منه ولن يستمع إليه، ولقد أطال الإمام الفخر الرازي، في تفسيره مفاتح الغيب، النفس في تبرير هذه الكلمة وذكر لها من الوجوه العشرات، حتى نقبل أن الله العلى العظيم الذي قال: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة"، والذي قال: "وجادلهم بالتي هي أحسن"، هو الذي يأمر نبيه بخطاب الكافرين بقوله: "قل يا أيها الكافرون"، وأخذ يصول ويجول بتبريرات، تُنسيك المشكلة الرئيسة وتأخذ معها الانطباع الأكيد أنه ليس لديه حل لهذا المشكلة –التي أوقع نفسه فيها لفطنته!– ولكنه يحاول أن يزيلها بأي حال من الأحوال، وهذه المشكلة التي أوقع الفخر الرازي فيها نفسه، والتي تجاوزها كثير من المفسرين بقولهم أن هذا الخطاب كان خطابا مخصوصا لكفار معينين من قريش! نابعة من أن السادة المفسرين غفلوا عن معنى الكافر في كتاب الله عزوجل، ولو علموا ذلك لما رأوا أي حرج في مخاطبة الكافر بهذا الشكل وبهذه الطريقة، وهذا اللبس ناتج من أنهم لا يُعرفون الكافر تعريفا صحيحا. لذا نبدأ بتعريفنا للكافر حتى نوضح لما أنه من الجائز ومن المقبول أن يأمر الله تعالى نبيه بخطاب الكافرين بقوله "يا أيها الكافرون". وقبل أن نبدأ بتعريف الكافر، نقدم المعنى الأساسي لكلمة: "كفر"، فنقول هو كما ورد في المقاييس: "الكاف والفاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو السَّتْر والتَّغطية. يقال لمن غطّى دِرعَه بثوبٍ: قد كَفَر دِرعَه. والمُكَفِّر: الرّجل المتغطِّي بسلاحه..." اهـ

فما معنى الكفر في القرآن الكريم؟ إذا نظرنا في أقوال المفسرين عند تفسيرهم لمصطلح الكفر، وجدناهم يقولون أن الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به (ولقد خانهم التعبير فالذي لا يعرف الله لا يسمى كافرا! فكيف يكفر بما لا يعرف، فالكفر يكون بعد أن أعرف الله وأرفض الإيمان به!)، وكفر جحود وكفر معاندة وكفر نفاق. من لقي ربه بشيء

من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فأَما كفر الإِنكار فهو أَن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد (وهو يقصد هنا أنه لا يعترف بوجود إله) وكذلك روي في قوله تعالى: "إِن الذين كفروا سواء عليهم أَأَنذرتهم أَم لم تنذرهم لا يؤمنون" أَي الذين كفروا بتوحيد الله، وأَما كفر الجحود فأَن يعترف بقلبه ولا يقرّ بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس وكفر أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْتِ، ومنه قوله تعالى: فلما جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا به، يعني كُفْرَ الجحود، وأَما كفر المعاندة فهو أَن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يَدِينَ به حسداً وبغياً، ككفر أَبي جهل وأَضرابه. وفي التهذيب يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه ويأْبى أَن يقبل كأَبي طالب، حيث يقول: ولقد علمتُ بأَنَّ دينَ محمدٍ من خيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينَا لولا المَلامةُ أَو حِذارُ مَسَبَّةٍ لوَجَدْتَني سَمْحاً بذاك مُبِيناً، وأَما كفر النفاق فأَن يقرّ بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه" اهـ

ولقد فات السادة المفسرين أن الإنسان لا يمكن أن يكفر الله تعالى أو يكفر الإيمان! فالكفر كما قلنا هو التغطية والستر وهذا محال على الله تعالى، فكيف يغطي الإنسان الله عزوجل، أي: كيف يغطي أحد أو يستر فكرة وجود الله أو الإيمان به عزوجل؟ فسواء أقر الإنسان بوجود إله أو لم يقر (لا يستطيع أحد من الملاحدة أن يدعي أن الله غير موجود يقينا، وأقصى ما لديهم هو الإدعاء أن فكرة وجود الإله عنده أضعف من فكرة عدم وجوده) فهو في جميع الحالات مقر بالله تعالى ولو كفكرة مجردة عند الآخرين! هذا إذا تغافلنا أو تعامينا عن فطرية الإيمان بالمقدس والموجودة عند كل منا. إذن ففعل الكفر هو فعل تغطية وستر، فلا يمكن للإنسان أن يكفر إلا إذا جاءه شيء فغطاه وستره، أما أن يكفر بدون مستور فهذا ما لا يكون!

فليس الكافر ذلك الإنسان الذي لم يؤمن بالله تعالى فقط، وإنما هو ذلك الإنسان الذي عرف الحق وستره وأغلق قلبه دونه، أو لا يريد أن يسمع له بأي حال.

وليس الكافر الذي لا يؤمن بوجود الله تعالى فقط، فهناك من الكفار من يقر بوجود الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [سورة النساء, ١٥٠-١٥١]، فهم مؤمنون بالله، ولكنهم لا يريدون أن يؤمنوا بكل ما جاءهم من الرسل: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]، فهؤلاء مقرون بوجود الله تعالى، ولكنهم يرفضون الرسول الذي يأتي إليهم. وهناك المقر بوجود الله ولكنه منكر للقاء الآخرة، وهناك من يرفض التحاكم إلى كتاب الله تعالى ويعرض عنه، وهناك من يجادل بالباطل، وهناك من يكتم ما آتاه الله من فضله وهناك من يستكبر، وهناك من يصد عن سبيل الله تعالى، فما هو الوصف الجامع لهؤلاء؟ كل هؤلاء مندرجون تحت مسمى الكفر، فهم عرفوا ثم كفروا، وكفرهم هذا نابع من عنادهم وزيغ قلوبهم، فستروا الحق وغطوه ثم حاربوه، لذلك ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [سورة البقرة, ٦]، فلو كان المراد من الكفر هو كما قال المفسرون عدم الإيمان بالله، لكانت القضية الواردة في الآية قضية كاذبة، فهناك الكثير من الملاحدة ومن المسيحيين —والذين هم كفرة بنص الكتاب— يدخلون في دين الله تعالى ثم إن إنذار الرسول وباقي المسلمين تبعا له يجدي معهم نفعا، فيدخلون في الدين، وهذا الفهم الخاطئ نابع من تهميش المعنى اللغوي الأصلي، فالمعنى كما قلنا هو الستر والتغطية وهم عرفوا الحق ولم يتبعوه فستروا وغطوا وعاندوا وشاقوا الرسول وأنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، لذلك استحقوا الختم من الله تعالى فهم لا يؤمنون.

ولما كان هذا هو حال الكافر استحق من الله تعالى هذا الخطاب وهذا الإغلاظ في القول، فهو إنسان معاند جلب على نفسه الوبال، وأردى بنفسه إلى النار ثم هو يؤذي المسلمين والدين والكتاب بأفعاله، وهو لا يرجى إيمانه في يوم من الأيام، لذا خوطب في هذه الآية بهذا الشكل، وهو خطاب إعلام بالحقيقة الواقعة فلا يمكن أن يكون إلا بهذا الحال، والتنبيه في هذا الخطاب هو إشارة للمؤمن وللمشرك! فمن الممكن أن يخالط الإيمان شرك: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [سورة يوسف, ١٠٦]، كما أن السورة توضح أن المشرك يمكن أن يؤمن بالله تعالى ويترك الشرك.

فالله تعالى يأمر نبيه بأن يُعلم الكافرين المعاندين الرافضين للإيمان بإعلان فصل بينه –ونحن معشر المسلمين تباعا– وبين هؤلاء الكافرين المناصبين لنا العداء باللسان وبالجنان، وإعلان من الله عزوجل لهؤلاء الكافرين من اليهود والنصارى ومن غيرهما، أن النبي المصطفى لن يعبد الذي يعبدونه.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾[274]

وهذا الإعلان خطاب إلى الكفار مختلفي الأنواع والأصناف، فلا بد من الرد عليهم كلهم، فمنهم من يعبد من دون الله (يعبد هواه أو أصناما .. إلخ) فهؤلاء خاطبهم الله تعالى أن ايأسوا فلن يتحول محمد إلى دينكم بل هوثابت على دينه وأنتم كذلك لا تعبدون إلهه، ثم خاطب الفريق الآخر من أمثال عباد عيسى والمكابرين من اليهود

---

[274] الناظر يجد أن الله تعالى قال: "لا أعبد ما تعبدون" وقال: "ولا أنا عابد ما عبدتم" فما الفارق بين الاثنين؟ وهل هناك تكرار في قوله تعالى: "ولا أنتم عابدون ما أعبد" الذي ذكر مرتان في هذه السورة؟

نحن نؤمن تمام الإيمان ونوقن تمام اليقين أنه لا تكرار في كتاب الله تعالى، حتى ولو تكررت الآية بلفظها تامة كاملة –وهذا قليل الحدوث جدا في كتاب الله تعالى –فسنجد أن السياق يحتم علينا أن للآية المكررة لفظا، معنى آخر، وننظر لنعرف ما هو الفارق بين قول الرسول: "لا أعبد" وقوله "ولا أنا عابد"، وكيف أن الفارق بين الآيتين هو الذي سيوضح لنا الفارق بين الآيتين الآخريتين وكيف أنه لا تكرار في معناهما.

لا أعبد ما تعبدون: لا: دخلت على الفعل المضارع فأفادت الاستقبال، كما قال السادة المفسرون، أي أن الآية تقول على لسان النبي المصطفى: لن أعبد ما تعبدون في المستقبل، فأنا ثابت على ديني مستمر عليه مهما عاندتم وفعلتم، وبغض النظر إذا كان دخول لا على الفعل المضارع يفيد الاستقبال أو لا يفيده، فإن الواضح لكل ذي عينين أن "لا" دخلت على الفعل، والفعل عامة يفيد التغير بخلاف الصيغة الاسمية التي تفيد الثبات والاستقرار. فهنا يشير الله تعالى بقوله: "لا أعبد ما تعبدون" أن النبي لن يتغير إلى عبادة آلهتهم فهو ثابت مستقر على الدين الحنيف! ثم أردف حاكيا حال الكافرين مستعملا الجملة الاسمية، قائلا: "ولا أنتم عابدون ما أعبد" لكي يوضح لهم أن حالهم لا يتغير، فهم مقيمون أبدا على حالهم، فكما وضحنا أن الكافر تبعا للتوصيف الرحماني لا يؤمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [سورة البقرة ,٦]، لذلك استعمل الله تعالى مع الكافرين الجملة الاسمية، التي تخبرهم بثبات حالهم على الكفر أبد الدهر وأنهم لن يؤمنوا. ثم قال الرب القدير على لسان النبي المصطفى: "ولا أنا عابد ما عبدتم"، فعطف هذه الجملة على الأولى أي أني لست بعبادتي الله تعالى الآن أعبد آلهتكم التي عبدتم، فلست أنا واحد منكم ممن يعبدون أسماءا سميتموها، كما أن الله تعالى يشير باستعماله الزمن الماضي في توصيف فعل الكافرين: "ولا أنا عابد ما عبدتم"، بخلاف الجملة الأولى التي قال فيها "ما تعبدون"، إلى أن النبي (ص) ما أتى بأساطير الأولين وألف منها دينا جديدا وسماه الإسلام ودعى إلى عبادته، وإنما هو يعبد دينا مختلفا تماما عما قال به آباؤكم من الكافرين؛ فهو يتبع دين الله الأول الأوحد وهو الإسلام، ثم قال حاكيا حالهم: "ولا أنتم عابدون ما أعبد" أي لا تظنوا أو تحسبوا أنكم تعبدون الله تعالى فأنتم تخلقون إفكا وتعبدونه من دون الله.

والرافضين لاتباع شرع الله تعالى من المسلمين! فقال لهم وليس النبي يعبد إلهكم ولا أنتم تعبدون إلهه، فهو على حال غير الحال التي أنتم عليها.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ[275] وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

ثم يختتم الله تعالى السورة بآية هي مضرب المثل في التسامح وفي الحرية الدينية – وهي في نفس الوقت تأكيد لمعنى السورة كلها وتقرير لحال واقع – فأنتم معاشر الكافرين لكم دينكم فهو محصور عليكم فقط، فكل من يكفر يصير منكم ويدخل دينكم.

فليعبد كلٌ منا إلهه وليدع كل منا الآخر لحاله، فحساب كل منا في الآخرة عند الله عزوجل، أما في الدنيا فنحن بالخيار: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩﴾ [سورة الكهف, ٢٩] فاعملوا ما شئتم إنا عاملون.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة النصر في فلك نبوءة –تحققت– بالنصر. وإذا كان الله قد أعلن على لسان نبيه في سورة الكافرون براءته من الكافرين، واعتداده بدينه، فيعطيه في النصر نبوءة، أن هذا الدين سينتصر، وسيدخل الناس في دين الله أفواجا في حياة النبي الكريم، وسيرى ذلك بعينه، والواجب عليه تجاه ذلك أن يسبح الله تعالى ويستغفره.

(275) نلاحظ أن الله تعالى قال واصفا دعاوي الكافرين الباطلة بالدين! على الرغم من أنهم لا يقبلون بالإسلام ولا يرضون به ولا يعترفون بنا ويقتلونا ويذبحونا ويغتالونا من على الأرض اغتيالا! فيقول : لكم أيها الكافرون دينكم ولي أنا محمد (ومن على شاكلتي من المسلمين) دين، وفي هذا رد على من يرفض أن يسمي الأديان غير الإسلام "دين"، ويسميها: ملة، أو أي تسمية أخرى!

﴿إِذَا جَآءَ[276] نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا[277] ۝٣﴾

فالله تعالى يُذكر نبيه أن النصر أولا وأخيرا هو من عند الله، لأن الله كتب هذا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [سورة المجادلة, ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [سورة غافر, ٥١]، فإذا جاء ورأيت الناس يدخلون فسبح، وبالفعل حدث ذلك، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وعلى الرغم من تأخر وقوع هذا، فلم يقع إلا في آخر حياة الرسول الأكرم، إلا أنه حدث ووقع، وهذا ما أشارت إليه السورة الكريمة، بأمره بالتسبيح والاستغفار.

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة المسد في فلك هلاك كبار الكافرين المعاندين. وكان الله تعالى قد وعد النبي الكريم بالنصر في سورة النصر، وهنا يخبره بهلاك وخسران زعيم من زعماء العناد وهو أبو لهب، –سواء كان عمه أو أي مسعر لنار الحرب على المسلمين–، هلاكه هو ومن يسانده ويعاونه في أذى الرسول والمؤمنين:

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ[278] ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾

(276) العجيب أن السورة نبوءة وأمر مقابل النصر، ثم نجد بعض الروايات تقول أن السورة نزلت بعد فتح مكة، بل وفي آخر حياة الرسول الكريم! وهذه الروايات مردودة، فالآيات تتنبأ عن أمر في المستقبل، وتريد الروايات أن تجعل الحديث عن الماضي!!!!

(277) في الآية إشارة إلى أن هذا النصر سيتأخر وسيكون في آخر حياة النبي الكريم، فلقد أُمر النبي بالتسبيح بالحمد والاستغفار بعد النصر ودخول الناس في دين الله أفواجا، وفي هذا إشارة إلى أنه قد يصدر عنه في أثناء الدعوة والتبليغ ما يستوجب ذلك، ثم فيه إشارة إلى تمام رسالته والانتهاء من الدور المكلف به، والانشغال بالقرب من الله عزوجل، مما يشعر بدنو الأجل.

وفيها يعلم الرب القدير النبي الكريم أن أذى أبي لهب قد هلك وخاب، وهو نفسه قد خسر وهلك، فلم ينفعه ماله وما كسب في رد هذا الهلاك والخسران، وفي الآخرة سيصلى نارا ذات لهب، جزاءا له على تسعيره العداوة ضد الرسول والمسلمين والدين.

---

(278) اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافا كبيرا، فهم وإن نجحوا في تقديم مدلول الكلمة، إلا أنهم احتاروا في إسقاطها، فلقد قالوا أن التباب هو الهلاك أو الخسران المفضي إلى الهلاك. ولا غبار على قولهم هذا. فإذا نحن نظرنا في تاج العروس للزبيدي، ألفيناه يقول: "التَّبُّ: الخَسَارُ والتَّبَبُ مُحَرَّكَةً والتَّبَابُ كسَحَابٍ والتَّبِيبُ كأَمِير: الهَلاَكُ والخُسْرَانُ، والتَّتْبِيبُ تَفْعِيل: النَّقْصُ والخَسَارُ المُؤَدِّي للْهَلاَكِ كَذَا قَيَّدَهُ ابنُ الأَثِيرِ (...) وتَبَّ الشَّيْءَ: قَطَعَهُ وتَبَّ إذَا قَطَعَ (...) واسْتَتَبَّ الأَمْرُ: تَهَيَّأَ واسْتَوَى، واسْتَتَبَّ أَمْرُ فُلاَنٍ إذَا اطَّرَدَ واسْتَقَامَ وتَبَيَّنَ، وأَصْلُ هذَا منَ الطَّرِيقِ المُسْتَتِبِّ وهو الَّذِي خَدَّ فيه السَّيَّارَةُ أُخْدُوداً فَوَضَحَ واسْتَبَانَ لمَن يَسْلُكُهُ كأَنَّهُ تُبِّبَ بكَثْرَةِ الوَطْءِ وقُشِرَ وَجْهُهُ فَصَارَ مَلْحوباً بَيِّناً مِنْ جَمَاعَةِ ما حَوَالَيْهِ منَ الأَرْضِ فشُبِّه الأَمْرُ الوَاضِحُ البَيِّنُ المُسْتَقِيمُ به." اهـ

ولكنهم عادوا فاختلفوا، فهل الكلمة الأولى "تبت" والثانية "تب" على الحقيقة أم على الدعاء؟ فمنهم من قال أن الأولى على الدعاء، –وبذلك جعلها مساوية لقولنا: تبا لك! وهذه ليست مثل تلك، فهذا دعاء صريح متعد بحرف، وذاك فعل متعد بنفسه، فلا يتساويان– والثانية على الحقيقة، ومنهم من قال أن الاثنين على الحقيقة، ومنهم من قال أن المراد من الأول أبي لهب نفسه والثانية تأكيد، ومنهم من قال أن المراد من الأول عمله والثانية هو نفسه، ومنهم من قال أن المراد من الأولى ماله والثانية هو نفسه. والمفسرون مجمعون على أن المراد من أبي لهب هو عبدالعزى بن عبدالمطلب، عم النبي المصطفى، وأن أبا لهب كنيته، ثم احتاروا في تبرير تكنية القرآن له. ونقول: لو كان المراد من يديه العضوين المعروفين لما كان لتخصيصهما قبله هو فائدة، فلقد تب هو نفسه وبالتالي فكله تابٌ، كما أن الأعضاء لا توصف بالفوز أو الخسارة أو الهلاك، بخلاف إذا كان المراد من يديه عمله ووسائله التي يستخدمها في محاربة الدين، فيكون المعنى مقبولا، كما نقول: خاب عمل فلان وخاب هو أيضا. وليس هذا الاستعمال أو القول بمستغرب، فلقد ورد في القرآن في آيات عدة، منها قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ [سورة المائدة, ١١]، وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ٢﴾ [سورة الممتحنة, ٢]"، فالمراد منها الأذى والاعتداء الفعلي البدني.

ونحن نتوقف في تحديد المراد من أبي لهب هذا، فلربما كان عم الرسول فعلا، ولربما كان غيره. وإن كنا نرى في الآية حديثا عن متزعم إيقاد نار الحرب ضد المسلمين، –يهوديا كان أو كافرا–، لذلك كني بأبي لهب، لا لأنه سيكون من أصحاب النار في الآخرة، ولا لتلهب وجنتيه! فالناظر في الكتاب يجد أن الأوصاف المذكورة لأبي لهب هذا تتطابق مع اليهود، فالله تعالى يقول: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ٦٤﴾ [سورة المائدة, ٦٤] فاليهود صدورهم تشتعل طغيانا وكفرا، وهذا لهب يحرق صدورهم، كما أن أيديهم مغلولة، وهم يوقدون نيران الحروب، كما أنهم أغنياء، ويرون أنهم أغنياء جدا: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾ [سورة آل عمران, ١٨١]، كما أن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦﴾ [سورة الأنفال, ٣٦]

فنحن نرى أن الآية إشارة إلى كل من يوقد نار الحرب ضد الدين، وإن كان المقصود الأول بها شخصا محدودا.

ثم ينتقل الله عزوجل ليقدم تأكيدا على هلاك أبي لهب هذا واندحاره وصلوه النار، بقوله:

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ[279] ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ[280] ۝٥﴾

فامرأته كذلك قد تبت وهي مكثرة من حمل الحطب لأذى المسلمين والرسول، وهلكت مختنقة بحبل من ليف مجدول، التف حول رقبتها وأثر فيها تأثيرا شديدا.

وفي سوء الخاتمة هذه وحقارتها، المقترنة ببطلان سعيها، تأكيد على بطلان سعي المحاربين المؤذين، وعلى هلاك أبي لهب نفسه.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الإخلاص في فلك التعريف بالله وتميزه سبحانه عن كل الآلهة المزعومة.

[279] عامة المفسرين على أن "امرأته" معطوفة على المستكن في "سيصلى"، أي وامرأته ستصلى نارا ذات لهب! والذي نراه أنها معطوفة على تب! أي: وتبت امرأته حال كونها حمالة الحطب. لاحظ أن: حمالة، منصوبة وليست مرفوعة، والغريب أن عامة المفسرين يميلون إلى التعامل مع "حمالة الحطب" كأنها صفة، مع كونها منصوبة في المصحف! لذا اختلفوا في الآية التالية، "في جيدها ..."، فمن جعل الجملة الأولى صفة مرفوعة، جعل الجملة الثانية صفة ثانية! ومن جعل الأولى حال، جعل الثانية حال ثانية.

وهذا ما نقول به، لأن الأولى منصوبة كما هو في المصحف! فيكون المعنى والله أعلم أنها تبت حال كونها حمالة الحطب وفي جيدها حبل من مسد، أي تبت بينما تكثر في حمل الحطب، وفي رقبتها حبل من مسد.

واختلف المفسرون لقولهم بقولهم في "في جيدها حبل من مسد"، حول هذا الحبل، فقالوا أنه يكون في الآخرة، وهذا ما لا نقبله، لأن الآية الأولى عندما أرادت الحديث عن الآخرة، قالت: "سيصلى"، وهنا تتكلم بصيغة اسمية، ومن قال أنها حال في الدنيا قال أن المراد من ذلك الإشارة إلى خساستها، تشبيها لها بالحطابات.

[280] جاء في المقاييس: "الميم والسين والدال أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جَدْل شَيءٍ وطَيِّه." اهـ

وجاء في لسان العرب: المسَدُ، بالتحريك: اللِّيف (...) وجارية مَمْسُودةٌ: مَطْويّةٌ مَمْشوقةٌ. وامرأَة مَمْسُودةُ الخَلْق إِذا كانت مُلتفّة الخَلْق ليس في خلْقها اضطراب. ورجل مَمْسُود إذا كان مَجْدُولَ الخَلْق. وجارية ممسودة إذا كانت حَسَنة طَيِّ الخلق." اهـ

بعد أن أمر الله الرسول الكريم بإعلان البراءة من الكافرين في سورة الكافرون، وبشره بالنصر وبهلاك المعاندين في النصر والمسد، يأمره سبحانه بالتعريف بجماع الإيمان، في سورة الإخلاص، وهو التعريف بالله الحق، واختلافه عن باقي الآلهة المزعومة. – كما اختلف الدين الإسلامي عن باقي الأديان–.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ[281] ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ[282] ۝٤﴾

فقل يا محمد وعرّف بالله، قل هو الله أحد، فسبحانه واحد أحد، فليس سبحانه مجتمع آلهة، فالله إله واحد، سبحانه هو الله الصمد، يقصده كله الخلق ويطلبونه ويرجعون إليه، فلا ملجأ ولا مرجع منه إلا إليه، وهو غني عنهم كلهم، سبحانه لم يلد ولم يولد، فليس هناك إله أب أو إله ابن، أو الابن الإله، أو حلول واتحاد، فهذه خرافات ليس لها من الله نصيب، سبحانه ليس له شبيه، ليس كمثله شيء، ولم يكن ولن يكون له مكافئ في يوم من الأيام.

(281) الصمد أصل يدل على القصد والصلابة، وجاء في لسان العرب: "الصَّمَد بالتحريك: السَّيِّدُ المُطاع الذي لا يُقْضى دونه أَمر، وقيل: الذي يُصْمَدُ إِليه في الحوائج أَي يُقْصَدُ؛ قال: أَلا بَكَّرَ النَّاعي بخَيْرَيْ بَني أَسَدْ، بعَمْرو بنِ مَسْعُود، وبالسَّيد الصَّمَدْ ويروى بِخَيْرِ بني أَسد؛ وأَنشد الجوهري: عَلَوْتُه بِحُسامٍ، ثم قُلْتُ له: خُذْها حُذَيفُ، فأَنْتَ السَّيِّدِ الصَّمَدُ والصِّمَد: من صفاته تعالى وتقدّس لأَنه أُصْمِدَتْ إِليه الأُمور فلم يَقْضِ فيها غيره؛ (...) وقيل: الصمد السيد الذي قد انتهى سُودَدُه؛ قال الأَزهري: أَما الله تعالى فلا نهاية لسُودَدِه لأَن سُودَدَه غير مَحْدود؛ وقيل: الصمد الدائم الباقي بعد فناء خَلقه؛ وقيل: هو الذي يُصمَد إِليه الأَمر فلا يُقْضَى دونه، وهو من الرجال الذي ليس فوقه أَحد، وقيل: الصمد الذي صَمَد إِليه كل شيء أَي الذي خَلق الأَشياءَ كلها لا يَسْتَغْني عنه شيء." اهـ

(282) السورة على صغرها جامعة لأصول التوحيد وناسفة لكل شرك، فهي قاضية على القول بوحدة الوجود أو الإله المكون من أجزاء أو من أفراد، أو الألهة المولودة أو المخلوقة أو تلك التي تنتج آلهة، أو التي تقارب سمات الخلق سماته، فليس ذلك إلها متفردا مطلقَ.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الفلق في فلك الاستعاذة بالرب من الانقسام والشقاق ونتائجه. فبعد أن عرّف الله البشر بنفسه في السورة السابقة، يأمرهم بالصمد إليه، بالاستعاذة بالإله الرب، من شرور الخلق عامة، ومن الشرور المجتمعية.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ[283] ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ[284] ②﴾

فتأمر المسلم بالاستعاذة برب الفلق الحاكم المسيطر على الكون كله، من أي شر موجود فيما خلقه الله تعالى.

---

[283] الفلق معروف ونحن نستعمله، فإذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "الفاء واللام والقاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فُرْجةٍ وبَيْنُونةٍ في الشيء، وعلى تعظيمِ شيء. من ذلك: فَلَقْتُ الشّيءَ أَفْلِقُه فَلْقاً. والفَلَق الصُّبح؛ لأنَّ الظَّلام يَنْفلِقُ عنه. والفَلَق مطمئنٌّ من الأرض كأنَّه انفلَقَ، وجمعه فِلْقانٌ. والفَلق الخَلْق كله، كأنَّه شيءٌ فُلِق عنه شيء حَتَّى أُبرِزَ وأظْهِر." اهـ

فإذا نظرنا في أقوال المفسرين في *تفسيرهم* للفلق، وجدناهم مختلفين في تحديد وتضييق وتخصيص الفلق، فوجدناهم يقولون أنه الصبح لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق، ولأنه ورد هكذا في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ... ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأنعام ,٩٦] وقيل أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ... ﴿٩٥﴾﴾ [سورة الأنعام ,٩٥] والجبال عن العيون: ﴿... وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴿٧٤﴾﴾ [سورة البقرة ,٧٤] والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرخ " ... إلخ

والذي أراه أن الفلق هو عملية الفلق نفسها، فهذه العملية من أهم العمليات التي يقوم عليها بناء الكون ونظام الطبيعة، فالصبح يُفلق والحب يفلق والأرض تفلق والعلاقات تفلق! إلخ ما يفلق من حولنا. بل إن الكون كله قد بدأ ب "فتق": ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٣٠]

وليس في الآية أي إشارة إلى أن الفلق نفسه شيء ضار أو سلبي وإنما هو من أهم السنن الكونية، والتي بدونها لا يستمر الكون، فلولا الانقسامات ما كان إنسان ولا نبات ولا حيوان! ولكن ليس كل انقسام خير مُنّمٍ، فهناك انقسامات ماحقة مضمرة ضارة.

[284] لا يقولن أحد أن الله تعالى يخلق الشر، استدلالا بهذه الآية، فلم يقل سبحانه أنه خلق الشر أو أن كل ما خلقه شر أو فيه شر، وإنما أمرنا أن نستعيذ من شر ما خلق، فإذا كان هناك خلق فلا يخلو هذا الخلق من أن يحتوي شرا بأي شكل من الأشكال، فالشر والخير موجودان في الكون بقضاء الله تعالى وإرادته، كما قال سبحانه: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٣٥]

فلا بد من وجود الخير والشر في الكون حتى يكون هناك معنى للامتحان وللابتلاء، أما ذلك الكون الذي يخلو من الشر فهو الجنة، أو ذلك الكون الوهمي الذي يريده الملاحدة ويرفضون من أجله فكرة الامتحان الإلهي، فوصل بهم الأمر إلى رفض وجود الرب القدير!



[285] اجتمع في هذه الآية كلمتان، غاب معرفة معناهما عن كثير، حتى المفسرين واللغويين! لذا نجد أنهم تحيروا في تحديد معنى هذا الغاسق الذي وقب! تحيرا شديدا، لأن اجتماع كليهما في تصور واحد أمر مستبعد، ونبدأ أولا بعرض الأصل اللغوي لهاتين الكلمتين، لنعرف لم تحير المفسرون عند تحديد المداليل الخاصة بهما. إذا نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول:
"الغين والسين والقاف أصلٌ صحيح يدل على ظُلْمة. فالغَسَق: الظلمة. والغاسِق: الليل. ويقال: غَسَقت عينُه: أظلمت. وأغْسَقَ المؤذِّن، إذا أخَّر صلاةَ المغرب إلى غَسَق اللَّيل. ..." اهـ

"وقب: الواو والقاف والباء: كلمةٌ تدلُّ على غَيبةِ شيءٍ في مَغَاب. يقال وَقب الشَّيءُ: دخَلَ في وَقْبة، وهي كالنُّقْرة في الشَّيء. ووقَبَتْ عيْناه: غارتا. [و] وقَبَ الشَّيءُ: نَزَلَ ووقَع. قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [سورة الـفلق ,٣]، قالوا: هو اللَّيل إذا نَزَل ..." اهـ

ولكن لنا أن نتوقف ونسأل : هل أصاب ابن فارس بتحديده لمعنى الغسق؟ من خلال حسي اللغوي الفطري المُنمّى! أرى أن تحديده هذه المرة جانبه الصواب كثيرا، فالغسق ربما يكون متعلقا بالظلام ولكن المعنى المستشعر له عندي هو السيلان والنزول، (لاحظ الشبه بين: غسق و غسل) فلما نظرت في لسان العرب وجدته يقول: "*غَسَقَتْ عينه* تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقاناً: دمعت، وقيل: انصبَّت، وقيل: أَظلمت. والغَسَقان الانصباب. وغَسَق اللبنُ غَسْقاً: انصب من الضَّرْع. وغَسَقت السماء تَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً: *انصبَّت وأَرَشَّتْ*؛ ومنه قول عمر، رضي الله عنه: حين غَسَق الليل على الظِّراب أي انصب الليل على الجبال. وغَسَق الجرحُ غَسْقاً وغَسَقاناً أي سال منه ماء أَصفر؛ وأَنشد شمر في الغاسق بمعنى السائل: أَبْكِي لفَقْدِهِم بعَينٍ ثَرَّة، تَجْري مَسارِبُها بعينٍ غاسِق أي سائل وليس من الظلمة في شيء. أَبو زيد: غَسَقت العين تَغْسِق غَسْقاً، وهو هَمَلان العين بالعَمَش والماء. وغَسَق الليل يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً وأَغْسَقَ؛ عن ثعلب: انصبّ وأَظلم؛ ومنه قول ابن الرُّقَيّات: إن هذا الليل قد غَسَقا، واشْتَكَيْتُ الهَمَّ والأَرَق " اهـ

إذا فالغسق هو على المعنى الراجح بمعنى النزول الشديد المتوال أي الانصباب وليس بمعنى الإظلام! والوقب هو غيبة شيء في شيء، ونظرا لأن ابن فارس يذكر الأصل الجامع للمفردة فإنا سنذكر للقارئ الكريم هذه المرة نماذج من استعمالات الوقب في اللغة من خلال لسان العرب ليعرف كيف هو الاستعمال الغالب لهذه المفردة: "الأَوْقابُ: الكُوَى، واحدُها وَقْبٌ. والوَقْبُ في الجبَل: نُقْرة يجتمع فيها الماء. والوَقْبةُ كُوَّة عظيمة فيها ظِلٌّ. والوَقْبُ والوَقْبةُ: نَقْرٌ في الصَّخْرة يجتمع فيه الماءُ؛ وقيل: هي نحوُ البئر في الصَّفَا، تكون قامة أَو قامتين، يَسْتَنْقِع فيها ماءُ السماء. *وكلُّ نَقْرٍ في الجَسدِ*: وَقْبٌ، كنَقْرِ العين والكَتِفِ. ووَقْبُ العَيْن: نُقْرَتُها؛ تقول: وَقَبَتْ عَيْناه غارَتا. وفي حديث جَيْشِ الخَبَطِ: فاغْتَرَفْنا من وَقْبِ عَيْنه بالقِلالِ الدُّهْنَ؛ الوَقْبُ: هو النُّقْرة التي تكون فيها العين. والوَقْبانِ من الفَرس: هَزْمتانِ فوق عَيْنَيْه، والجمع من كل ذلك وُقوبٌ ووِقابٌ. (...) الإيقابُ إِدْخالُ الشيءِ في الوَقْبةِ. ووَقَبَ الشيءُ يَقِبُ وَقْباً: دَخَلَ، وقيل: دَخَل في الوَقْبِ. وأَوْقَبَ الشيءَ: أَدْخَلَه في الوَقْبِ. ورَكِيَّةٌ وَقْباءُ: غائرةُ الماء ..." اهـ

هذا هو الاستعمال الرئيس للغسق وللوقب، وقبل أن نهب القارئ المعنى المراد منهما نعرض له أولا أقوال المفسرين فيهما:

إذا نحن نظرنا في أقوال المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية، من خلال تفسير الإمام الرازي، نجده يقول: "ذكروا في الغاسق وجوهاً، أحدها: أن الغاسق هو اليل إذا عظم ظلامه من قوله: ﴿... إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ... ۝٧٨﴾ [سورة الإسراء ,٧٨] ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً (...) *قال قوم: الغاسق والغساق هو السائل* من قولهم: غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين، يقال: وقب يقب وقوباً إذا دخل، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء، والإيقاب إدخال الشيء في الوقبة، هذا ما يتعلق باللغة (كأن اللغة في واد والمفسرين في آخر، أو أنهم غير ملزمين بها! —عمرو—) وللمفسرين في الآية أقوال: أحدها: أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل، (...) وثانيها: أن الغاسق إذا وقب هو القمر، قال ابن قتيبة: الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيغسق، أي يذهب ضؤوه ويسود، (و) وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله

صلى الله عليه وسلم بيدها وأشار إلى القمر، وقال: «استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب» قال ابن قتيبة: ومعنى قوله: تعوذي بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف" اهـ

إذا فأقوال السادة المفسرين في مسألة الغاسق إذا وقب تدور في فلك معنيين اثنين وهما الليل أو القمر، وقرأت في تفسير الغاسق الذي وقب تفسيرا حديثا وهو تفسير حديث للعلامة الشيخ النابلسي، يرى فيه أن الغاسق هو الشيطان والمراد من وقوبه أنه يدخل في صدر الإنسان فيوسوس له ويدفعه في نهاية المطاف إلى المعاصي والجرائم! وهذا الرأي من الممكن قبوله كتفسير إشاري للآية ولكن ليس هو المراد منها حتما، ونعود لمناقشة الرأيين الأولين: هل من الممكن أن يكون الغاسق الواقب هو الليل؟ هم متفقون أن الوقب هو بمعنى دخول الشيء في مغاب حتى لا تراه العين! والمشكلة أن الليل لا يدخل في شيء حتى لا تراه العين، بل هو الذي يجعل الأشياء لا تراها العين، فعجبت ممن جعل الساتر مستورا، *كما أن الملاحظ أن الشر المستعاذ منه في هذه الآية شر معلق* وليس مطلقا، فعلى تفسيرهم هذا يكون المعنى: "ومن شر الليل إذا دخل أو أظلم!" وهذا معنى حشوي لا فائدة منه، فهل هناك ليل بدون إظلام أو دخول؟! الليل لا يكون ليلا إلا إذا أظلم ودخل وما عدا ذلك فلا يكون الليل ليلا!! لذا يكون من المرفوض قطعا أن يكون الليل هو الغاسق! والعجيب أنهم جعلوا الغاسق هو الليل ثم جعلوا الوقب بمعنى النزول أو الدخول (الوقتي طبعا)! هكذا بكل بساطة! أما مسألة أن القمر هو الغاسق الذي يقب فنحن نرفضها مثل أختها السابقة، ونحن نعلم أن هذا الرفض سيشكل حساسية كبيرة عند كثير من الأخوة، بسبب ردنا للحديث الوارد في الباب، ولكنا نرد الحديث من باب مخالفته للقرآن ومخالفته للغة، بسبب عدم تطابق الوصف الفعلي للقمر مع الغسوق أو الوقوب، فالغاسق على قولهم هو المظلم، فهل القمر مظلم؟ قد يقول قائل: نعم، القمر مظلم لأنه لا يصدر ضوئا وإنما يعكس ضوء الشمس! فنقول: لا، القمر ليس مظلما، هناك فارق بين أن يكون الشيء يشع ويصدر ضوئا وبين كونه لا يصدر، فالقمر لا يصدر ضوئا ولكنه غير مظلم، ونوضح الصورة للقارئ: إذا كان هناك مصباح كهربائي في البيت، فعندما يعمل يكون مضيئا، وعندما لا يعمل لا يكون مظلما وإنما يذهب ضوئه! فهل اسوّد المصباح عند إغلاقه أو أصدر ضوءا أسود؟ أم أنه لم يعد له ضوء فقد؟ إذا هناك فارق كبير بين ذهاب الضوء وبين الإظلام، ومن هنا نعرف أن القمر لا يكون غاسقا (هذا على فرض كون الغسق بمعنى الإظلام!) ثم هل نرى القمر عندما يكون *مظلما* أم أننا نراه فقط عندما يكون منيرا؟ بداهة نحن لا نرى القمر كله أو بعضه إلا عند كونه منيرا، فإذا كان غاسقا فلا نراه، وفي هذه الحالة يكون هو في الوقب، فعلى قولهم يكون المراد أن نستعيذ من المظلم إذا أظلم، وهذا بداهة مما لا معنى له.

إذا فالغاسق الواقب لا يصلح أن يكون الليل أو الشيطان أو حتى القمر، فما هو إذن، إن لم يكن واحدا من المذكورات؟

الذي نراه هو أن الغاسق الواقب هو المطر الشديد المتتابع، الذي يؤدي إلى انهيارات أرضية!

ونبين للقارئ لم قلنا بهذا القول: إذا تتبعنا مفردة "غسق" في كتاب الله تعالى، وجدنا أنها وردت بشكل المصدر في موضع واحد،؛ وهو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الإسراء ,٧٨] ووردت بصيغة المبالغة في موضعين؛ وهما قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة ص ,٥٧] و﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النبإ ,٢٥]، ووردت بصيغة اسم فاعل في سورتنا هذه "غاسق إذا وقب" فإذا نظرنا في المعاجم، وجدنا أن المعنى يتأرجح بين الظلمة وبين الانصباب، فما هو المعنى الراجح منهما؟ الناظر في كتاب الله تعالى –حتى من خلال هذه الآية– يجد أنه يحتم أن يكون معنى الغسق هو الانصباب، فإذا نحن نظرنا في آيتي ص والنبأ وجدناهما كليهما مرتبطتين بالشراب، فنجد آية سورة ص تأتي في معرض المقارنة بين المتقين وأهل النا، فبعد أن عرضت موقف المتقين قائلة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ [سورة ص ,٥١] جاء قوله تعالى في معرض الحديث عن أهل النار: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة ص ,٥٧]، وفي سورة النبأ جاءت آيتنا المنشودة هذه بعد قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النبإ ,٢٤] أي أن أهل النار لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما شديد الحرارة والشراب يكون غساقا، أي نازلا مندفعا بشدة. وتصور أنك تحاول أن تشرب من شلال، كيف سيكون حالك وكيف سيكون الألم والماء الشديد ينزل منصبا فوقك؟! فهاتان الآيتان ترجحان كون الغسق هو الإنصباب، أما آية الإسراء فهي بمعنى النزول والانصباب

وبعد أن استعاذ بالله من العام ينتقل في الاستعاذة إلى الخاص، والسورة كلها تسير على نسق تنازلي، فيستعيذ به من شر الخير الكثير، والذي إذا زاد يصبح ضرا، – وتقدم السورة نموذجا لذلك بالمطر، إذا نزل شديدا متتابعا حتى أنه يؤدي إلى حدوث بعض الانكسارات في القشرة الخارجية للأرض فيتجمع فيها الماء.

وبعد الاستعاذة من الشرور الطبيعية، ينتقل إلى الاستعاذة من الشرور المجتمعية الإنسانية، فيقول:

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ[286] فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

كذلك، ويدلل على قولنا هذا ما جاء في قول سيدنا عمر: "حتى يغسق الليل على الظراب" أي ينزل على الظراب! فمراد سيدنا عمر واضح وهو نزول الليل وليس إظلامه، وإلا لا يكون لتخصيص الكلام معنى، فإذا نظرنا في آية الإسراء وجدنا أنها أيضا ترجح هذا المعنى، فالآية تقول: "أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ" ودلوك الشمس وصف لحركة الشمس، لذا فمن الأولى أن يكون غسق الليل وصف لحركته "نزوله" وليس لهيئته. ثم تأتي الكلمة الأخيرة في الآية فتقول أن الغاسق يوقب، والوقب كما قلنا دخول شيء في شيء حتى يغيب، ونرجوا القارئ الكريم أن يعود إلى المعاني المذكورة في لسان العرب، فسيجد أن الوقب في معظمه يدور في فلك الماء المختزن أو الراكد أو السوائل بشكل عام.

فإذا نحن فهمنا أن المراد من الغاسق هو المطر المنصب فلنا من القرآن مستند وهو سورة النبأ وص، والكلمة التالية "وقب" مُحتمة لهذا المعنى! وبهذا القول نجد أنه هو القول الوحيد الذي جعل الغاسق يقب حقا! أما غيره من الأقوال فهو إما ليس بغاسق أو ليس بواقب!

[286] إذا نظرنا في المقاييس، وجدنا ابن فارس يقول: "النون والفاء والثاء أصلٌ صحيح يدلُّ على خروج شيء من فمٍ *أو غيره* بأدنَى جَرْس. منه نَفَثَ الرّاقِي رِيقَه، وهو أقلُّ من التَّفْل. والساحرة تَنْفُثُ السمّ. و"لابدَّ للمصدور أن يَنْفُث" مثَل. و"لو سألني نُفَاثَةَ سِوَاكٍ ما أعطيته"، وهو ما بقي في أسنانه فنفثَه. ودمٌ نفيثٌ: نَفَثَهُ الجُرحُ، أي أظهَرَه. " اهـ

إذا فالنفث هو خروج شيء عن شيء بقوة، فما هي العقد؟ العقد جمع عقدة، ومفهوم العقدة معروف ومتبارد إلى الذهن، ونزيده توضيحا فنقول: ورد في المقاييس: "العين والقاف والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةِ وُثوق، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلها. من ذلك عَقْد البِناء، والجمع أعقاد وعُقود. قال الخليل: ولم أسمع له فِعْلاً. ولو قيل عَقَّد تَعقِيداً، أي بنى عَقْداً لجاز. وعَقَدت الحبلَ أعقِده عَقْداً، وقد انعقد، وتلك هي العُقْدة . (...) وعاقَدته مثل عاهدته، وهو العَقْد والجمع عُقود. قال الله تعالى: ﴿... أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ... ۝١﴾ [سورة المائدة ,١]، والعَقْد: عَقْدُ اليمين، [ومنه] قوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ... ۝٨٩﴾ [سورة المائدة ,٨٩]. النكاح وكلِّ شيء: وُجوبُه وإبرامُه." اهـ

إذا كان المذكور هو المعنى اللساني، فما هو المراد من النفاثات في العقد، هل المراد منها الساحرات كما ورد في كتب التفسير؟ إذا نظرنا في أقوال المفسرين –كما جاء في تفسير الفخر الرازي– وجدناه يقول: "وإنما أنت النفاثات لوجوه؛ أحدها: أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى، قال أبو عبيدة: النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي، سحرن النبي صلى الله عليه وسلم. وثانيها: أن المراد من: النفاثات النفوس. وثالثها: المراد منها الجماعات، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد. القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم:

فنستعيذ بالله من شر تلك النفوس التي تعمل على زيادة التعقيد في التعاقدات والعلاقات بين الناس، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى الانقسام والشقاق والتباين، كما

{مِن شَرّ النفاثات} أي النساء في العقد، أي في عزائم الرجال وآرائهم، وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق (!!!) يقذفه عليه ليصير حله سهلاً، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله: ﴿... إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [سورة التغابن ,١٤] فلذلك عظم الله كيدهن فقال: ﴿... إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة يوسف ,٢٨]. *واعلم أن هذا القول حسن، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين.*" اهـ

إذا فالسادة المفسرون يكادون يجمعون على أن المراد من النفاثات: النساء! سواء كُنّ من الساحرات أو النساء اللاتي تنفث في عزائم الرجال! فهل هذه الأقوال فعلا مقبولة، وهي ما تقول به الآية؟ نبدأ في تحليل الآية: أول ما يلحظه الناظر في الآية أنها تستعيذ من شر النفاثات، وليس من شر النفث نفسه! *فإذا كان المراد من الآية إثبات تأثير السحر لكان من الأولى أن يقال: "ومن شر النفث في العقد" فالضر يقع منه* سواءا كان نافثه رجل أم امرأة، فالشر يقع من النفث، وسواءا كان التأثير من المرأة أكثر أم أقل كما يدعون فالشر يقع في النفث، وليس من نافثه! إذا فالآية تستعيذ من النفاثات وليس النفث، فلا يحق لنا أن نجعلها تستعيذ من النفث! فهل المراد من النفاثات فعلا الساحرات أو النساء؟

"نفاثات" كما هو واضح لكل ذي عينين صيغة مبالغة من "نفث"، فهي على وزن فعّالة، إذا فالمراد في الآية شخص كثير النفث حتى أنه أصبح عادته وطبعه، ويستوي في هذا الأمر كون الشخص رجلا أو امرأة، لأن نفاثات جمع نفاثة *وهي مما تطلق على الرجل والمرأة، كما يقال: علامة وفهامة، ولو كان المراد النساء لقيل نافثات.* إذا ف *نفاثات* صيغة مبالغة تنطبق على الرجل والمرأة في عين الوقت، لأنها صيغة مبالغة، فما المراد منها؟ نقول والله أعلم: إن المراد من ذلك على عكس ما قاله أبو مسلم تماما، وكذلك ما قاله المفسرون، فالمراد من النفاثات في العقد هو تلك النفوس التي تعمل على النفخ في العقد من أجل تضخيمها وزيادة تعقيدها وليس من أجل حلها أو توهينها، فالعُقْدَةُ كما جاء في اللسان حَجْمُ العَقْد، والجمع عُقَد. ومن ينفخ في العقدة يعمل على زيادتها وشدتها لا على توهينها. ونلاحظ أن العقد نفسه لا شر فيه، ولكن المشكلة هي في النفث في هذا العقد حتى يزيد ويتعقد ويشتد! والدليل على أن النفث يأتي بمعنى بث الأفكار (والذي لا يكون إلا عن طريق الكلام الذي يخرج من الفم!) وليس مختصا بما ينفثه الإنسان من ريقه فقط، هو أن هذا اللفظ عام ولم يستعمل فقط هكذا في اللغة، ويكفيك شاهدا على ذلك جعل صاحب اللسان النفث بمعنى الإسراع! وأن صاحب المقاييس جعله بمعنى خروج من فم *أو غيره*! والنفث على قولنا يخرج كذلك من الفم، كما أن هذا الاستعمال ورد في الحديث الشريف، فقد جاء عن النبي الكريم: "إِنَّ رُوحَ القُدُس *نَفَثَ* في رُوعي أن نفسا ..."، وكذلك قوله في الحديث في افتتاح الصلاة: اللهمَّ إني أَعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ ..."

ونلحظ أن الله تعالى استعمل صيغة جمع المبالغة المطلق، لأن هذا الصنف من البشر كثير، ويتصرف هذا التصرف بدون تخطيط أو إعداد وإنما هو سجيته!

نستعيذ به من شر الإنسان الذي يتحرك لقشر النعمة عن الآخرين، فيدبر لهم المكائد ويؤذيهم بأي شكل أمكن[287].

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم تدور سورة الناس في فلك الاستعاذة بالرب من شر الوسواس الخناس.

وإذا كانت السورة الماضية دارات في فلك الاستعاذة، فإن هذه السورة تكمل السورة الماضية بالاستعاذة من أخطر مستعاذ منه وهو الوسواس الخناس، الذي قد يدفع إلى سوء الاعتقاد والعمل.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

---

(287) الناظر في الآية يجد أنها تأمرنا بالاستعاذة من شر "حاسد إذا حسد" ولم تقل "ومن شر حسد حاسد"، *فلو كان المراد من الآية إثبات الحسد بالمعنى الخرافي الذي يقولون به لأمرتنا بالتعوذ من الحسد نفسه،* أما أن تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد وليس الحاسد مطلقا وإنما إذا حسد! فيعني هذا أن الحسد في نفسه أو الحاسد ذاته ليس ضارا، وإنما إذا حسد يكون ذا شر! فما هو المراد من ذلك؟

معنى الحسد معروف بالنسبة لكل الناس؛ وهو: تمني زوال نعمة الغير مع تحولها إلى الحاسد أو حتى عدم تحولها! والحسد أساسا بمعنى القشر! فالحاسد يتمنى أن تُقشر النعمة المحيطة بالآخر وتحيط به هو، أو أن تُنزع عنه فيتساويا كلاهما في التجرد! فمن أين أتى هؤلاء السادة أن الحسد شعاع يخرج من العين، فإذا اصطدم بالمحسود حدث له ما كان يتمناه الحاسد في قلبه؟ *إن الحسد بهذا المفهوم الخرافي لا أثر له في القرآن وإنما هو أفهام بشر!* وهذه الآية خير دليل على إبطال هذا الفهم والعجب أنهم يستدلون بها، فالآية تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد إذا حسد، وهنا نتوقف لنسأل: هل هناك حاسد لا يحسد؟ نعم، الإنسان الحاسد إنسان حاقد على غيره ناقم على وضعه، ويتمنى أن يصير الناس في مثل حاله أو يتغير هو إلى حالهم، وهذا الحال أصبح ملازما له حتى أنه استحق الوصف الاسمي "حاسد"، ولكنه لا يمشي هكذا في الطريق فيحسد كل من و ما يقابله، ولكنه يحسد أشخاصا معينين يشعر معهم بالنقص! فإذا حسد يأمرنا الله بالاستعاذة من شره. *والحق يقال أني كنت من أشد المقتنعين بالتفسير الأول ومن المنافحين عنه،* عن طريق القول بأن للعقل قوى خارقة وقدرات لم تُكتشف بعد، فما المانع أن يكون عند بعض الناس القدرة على التأثير في الآخرين؟! ولكني لما نظرت في الآية وجدت أنها تثبت الشر للحاسد نفسه في حالة حسده وليس للحسد، فعرفت أن ما قاله لي بعض العلماء — ورفضته ساعتها— أن المراد من شر الحاسد إذا حسد؛ هو أنه إذا تحرك هذا الحاسد لإيقاع حسده. فهو يتمنى زوال النعمة مني فيدبر لي المكائد ويغشني ... إلخ الأفعال التي تؤدي إلى الخسارة وزوال النعمة! *وتأمل عزيزي القارئ الآية فهي تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد نفسه وليس من الحسد!* ففي هذه الحالة سيفعل الإنسان الحاسد ما يقدر عليه ليؤذيك، وهذا هو التصرف المتوقع من الحاسد.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ[288] ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ[289] ٣﴾

فتأمرنا بالاستعاذة برب الناس خالقهم وملكهم، فهو الرب الحاكم، وإلههم، فهو الرب الحاكم المعبود من الناس.

﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ[290] ٦﴾

فنستعيذ به من شر كثير الوسوسة، كثير الاستخفاء والتستر، فإذا انتبهت إليه فر منك واختفى، ذلك الذي يوسوس في صدور الناس، فنستعيذ بالله تعالى سواء كان الوسواس من الشياطين أو من الناس، أو حتى نفس الإنسان.

وكما استعاذ في هذه السورة برب الفلق وبرب الناس، تبدأ السورة التالية بحمد رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

---

[288] كما عرّف الله تعالى نفسه في ثاني آية في القرآن نفسه مضافا إلى البشر: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [سورة الفاتحة ,٢]، تُختم سور القرآن بنفس الأمر، فيضيف الله عزوجل نفسه إلى الناس في ثلاث آيات.

[289] ليس كل الناس يعبدون الله تعالى، ولكن الحديث هنا من وجهة نظر المتكلم، ولأن الإله في الأعم والغالب هو الخالق ونلاحظ في هذه السورة عدم ذكر اسم الله لأن بعض الناس وإن انحرفوا عن الله إلا أنهم يقصدونه!

[290] ذكرت كلمة "الناس" خمس مرات، وفي هذا إشارة إلى أن خطر وسواس الناس، أكبر وأعظم من خطر وسواس الجنة.

الخاتمة

ها نحن نحط الرحال مرة أخرى بعد تلك الرحلة الماتعة مع سور جزء عم، وكلي يقينٌ أن القارئ الكريم سيغير تصوره عن هذا الجزء وتلك السور تحديدا، وسيتأكد كم ظلم الكتاب العزيز بتلك النظرة السطحية المجتزأة البسيطة، وكم ظلمه القائلون بأنه لا موضوع له ولا اتصال، أو أن لبعضه موضوع وليس للبعض الآخر! موقنا تمام اليقين أن الكتاب من عند الله تأليفا وترتيبا، فليس للبشر فيه أي دور سوى التلقي!

ولا نتوقع منك عزيزي القارئ أن تتقبل كل ما سطرناه في هذا الكتاب، فنتوقع منك أن تقبل الصور البديعة والتناسقات المدهشة التي أظهرناها بين السور، وترفض الجزء التأصيلي الذي قدمناه في الباب الأول، والمتعلق بنزول القرآن سورا فقط، وعدم نزول آيات منفصلات، ولكن هذا هو دأب الإنسان دوما قبالة كل جديد هادم للقديم وخاصة في مجال الفكر! فما بالنا لو كان الأمر في الدين!

ولكنا ندعوك عزيزي القارئ للتساؤل والتفكر: هل سينقص هذا القول من قدر الدين والله شيئا، وهل سيفتح بابا للطعون في الدين، أم أنه سيغلق أبوابا كثيرة للطعن، ويقدر الله حق قدره؟ وندعوك أن توازن بين القولين:

كان الرب العليم ينزل القرآن سورا كاملة لا تُبدل ولا تغير، تنزل السورة الطويلة مثل البقرة، بما تحتويه من موضوعات وأحكام متعددة، جملة واحدة، كما تنزل سورة الكوثر، وجعلها الرب الكريم كتابا في حياة الرسول وعلى يده.

كان الرب العليم ينزل أحيانا سورا كاملة وفي الغالب آيات منفصلات، وعندما كان يعترض بعض المعترضين كان يزيد بعض كلمات من أجلهم! ولم يخاطب الله تعالى عباده بكتاب وإنما بمقالات منفصلة، تولى ترتيبها أصحاب الرسول بعد وفاة الرسول الكريم!

إننا ننزه كتاب الله تعالى لمحمد عن أن يكون أقل من كتاب موسى، فإذا كان موسى قد أوتي الألواح، فمعاذ الله أن يكون الكتاب الخاتم مجموعة مقالات غير مرتبطات، وإنما هو كتاب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كتاب هو آية بديعة، آية واحدة مكونة من عدة آيات، كل آية منها مكونة من آيات بينات، ولكي يكون الكتاب آية بديعة (سورة بديعة) فلزاما أن يكون متصل الأبعاض وليس مبتترها.

مما يأسى له القارئ أن علمائنا الأفاضل جعلوا كتاب الله "خواطر إله"! أنزلت بحسب الحالة وعُدلت تبعا للظروف! ومعاذ الله أن يكون كتابه هكذا! فكتاب الله أُنزل بعلمه، الذي وسع السماوات والأرض، أفلا ينزله كتابا؟! فإذا آمنت وصدقت أن كتاب الله كتاب، فأقرأه ككتاب وافهمه ككتاب، ولا تجعل القرآن عضين.

إن التناول الموضوعي بالشكل الشمولي، الذي مهدنا له في هذا الكتاب، سيظهر آية العظمى لكتاب الله، وهي تصديق أجزاء الكتاب، المنزل في ثلاث وعشرين عاما، بعضها بعضا، فكل سورة منها مكملة ومصدقة لما قبلها، وبهذا يكون محمد –على قول غير المسلمين– هو أول إنسان يؤلف نصوصا حسب الأحوال والظروف، يرصها رصا، ثم تصبح هذه النصوص –صدفة وبكل عجب– موضوعا متصلا واحدا (سورة واحدة) ثم تتكاتف هذه السور فتؤلف سورة واحدة كبيرة، وهذا ما لا يقول به عاقل. ويقول به غير المسلمين!

كان يفترض في السادة المفسرين أن لا يغفلوا في تفسيرهم عن موضوع السورة ومحورها التي تدور حوله، ولكن إذا كان المفسرون الأوائل في فترة التقعيد والتنظير وغفلوا عن هذه البدهية فلا يمكننا إلا الترحم عليهم والدعوة لهم بالمغفرة، ولكن ماذا نقول فيمن يصرون على التزام نفس النهج في التعامل مع آي الذكر الحكيم؟ فيتناولها جملا منفصلات، ولا يزيد بفعله هذا عن أن ينقل إلينا حيرة المفسرين السابقين، بنقل

أقوالهم، أو يزيدنا حيرة وتشتتا بقول جديد ينشأه احتمالا في الجملة (التي يفترض أنها آية في سورة في قرآن)!

وهكذا تتكاثر الأقوال في فهم كلمات كتاب الله تعالى، لأن المفسر (الذي لا يفسر) يرفض أن يستخرج موضوع السورة ويجزم أن الآيات كافية في الفهم، على الرغم من أن كلام البشر لا يُفهم إلا في سياقه، فما بالنا نعامل كتاب الله بما لا نقبل أن يُعامل به كلامنا؟ لقد نجحنا ولله الحمد والمنة في تحديد مدلولات كلمات في الكتاب العزيز، واستخراج مشاهد رائعة في سور عديدة، احتار المفسرون في تصورها، استنادا إلى وحدة موضوع السورة، وإلى إيماننا بأن كلام الله متصل غير مقتضب.

وختاما نقول: إن كثيرا من الأخوة طلاب العلم لا يتجهون إلى تدبر القرآن أو إلى دراسة التفسير، وذلك ظنا منهم أن الواحد منهم لن يأتي بما لم تأت به الأوائل، فلم يترك الأقدمون للجدد مجالا! ونقول: لقد ترك الأقدمون للمتأخرين الكثير والكثير، فلا نتكل على ما قدمه سلفنا الصالح، وإلا أصبحنا الخلف الطالح، وإنما نتدبر كما تدبروا ونتفكر كما تفكروا، وسنستخرج من القرآن العجب والدرر وما لم يخطر للأوائل على بال، لأنهم قدموا الأساس ونحن نبني على أساسهم وقواعدهم، وننقد بعض ما قالوا، وبهذا يزداد الإيمان بالكتاب العظيم، أما أن نظل مكتفين بما قدموا فسنكون ممن أضاعوا الكتاب واتخذوه ظهريا، وممن قال فيهم الرسول: ﴿إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ۝٣٠﴾

وقانا الله وإياكم من أن نكون منهم، وجعلنا ممن يتدبرون الكتاب وممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

كان الفراغ من هذا الكتاب في يوم الإثنين، لتسع عشر خلون من ربيع الأولى في عام ثلاثين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق للسادس عشر من شهر مارس في عام تسعة وألفين بعد ميلاد المسيح.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران
* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام
* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟
* السوبرمان بين نيتشه والقرآن
* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون
* قراءة لسور الطعن
* السيدة عائشة والتاريخ المشوه
* قصص القرآن القرآني
* الجن .. الأرباب المختلَقة
* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً
* السلفية .. منهج إسلامي؟
* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة
* رواية خواطرٌ شواذ
* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية
* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست